الطبعة الخامسة

الجزء الثاني

قصة الأندلس

من الفتح إلى السقوط



دكتور راغب السرجاني

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

قصة الأندلس

الجزء الثاني

أ.د. راغب السرجاني

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٤٨١٠

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.
قصة الأندلس / تأليف/راغب السرجاني
القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠
(٨٠٠ص)، ٢٤ سم تدمك: ٦-٨٠٦-٤٤١-٩٧٧-٩٧٨
١ - الأندلس — تاريخ
أ. العنوان ٩٥٣.٠٧١

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧- ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

الفصل الثاني

الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف

رأينا كيف تَكَوَّنت ممالك الطوائف في الأندلس، وكيف أضحى صرح الخلافة الشامخ إلى بنيان متصدِّع الأركان، متناثر الأشلاء، ولو أن هؤلاء المتغلبين سكنوا إلى ما تغلَّبُوا عليه، ورضوا به من غير طمع ولا جشع، وتحلَّوْا بالنخوة الإسلامية لهان الأمر علينا، ولسكن الناس إلى ما آلت إليه الأندلس المسلمة، ولكن يبدو أن هؤلاء الثائرين ومن هم على شاكلتهم قد آثروا الفتنة والشقاق والفراق، واستحلُّوا دماء المسلمين بأرخص الأثمان، فباعوا دينهم وخسروا دنياهم، مقابل أن يتغلَّب على أخيه في الدين، وربما أخيه من أمه وأبيه، بل ربما استعان على أبيه وأخيه وعمه وأهله جميعًا.

وتَكَوَّنت في سبيل النوازع الشخصية أحزابُ المصالح وتكتلات المصالح، وسرعان ما تتصدَّع تلك الأحزاب وتتفكَّك، وينقلب صديق الأمس إلى عدوِّ اليوم والغد والمستقبل، وقد سلك هؤلاء المتغلِّبُون المتحكِّمُون في أراضي المسلمين في الأندلس كل السبل غير الشرعية، التي تُعَبِّر عن النذالة والخسَّة التي تمتَّع بها معظمهم، فاستعانوا بالخيانة والغدر، كما استعانوا بالنصارى على بعضهم البعض، ورضوا بالذلَّة والمهانة في دفع الجزية والإتاوات مقابل النيل برضا الممالك النصرانية الإسبانية، وهكذا أضحت الأندلس مسرحًا للصراعات بين المتخاصمين والمتنابذين؛ تلك الصراعات التي شَكَّلَتْ قصَّةَ مأساةٍ عاشتها أمَّة الإسلام ما يقارب القرن من الزمان.

أولا: الصراع بين إشبيلية وبطليوس

اتسمت الحروب والنزاعات بين هاتين المملكتين بالشراسة والقوَّة؛ ربما عاد ذلك إلى التقارب الحدودي الشديد بينهما، إضافة إلى الأطماع التوسُّعية التي اتَّسم بها أصحابها، وهذا يجعلنا نستقرئ الأحداث قبل وقوعها، فكلٌّ من القاضي أبي القاسم بن عباد وعبد الله بن مسلمة الأفطس يسعى لتوسعة ممتلكاته وتحصين دولته، وانتهاز الفرص بأسرع وسيلة ممكنة، وكان ذلك إيذانًا باشتعال الحرب بين المملكتين في أي وقت، وهو ما حدث بالفعل.

كان أول صدام عسكري قام به القاضي ابن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة هو قتاله مع عبد الله بن مسلمة الأفطس صاحب بَطَلْيُوس حول بَاجَة، المدينة التي أصابتها الفتنة والاضطراب إثر إلغاء الخلافة واستئثار كل ثائر بإمارته، ومعلوم أن بَطَلْيُوس تمثِّل الحدَّ الشمال الغربي لإِشْبِيلِيَة، وكان كلٌّ من ابن عباد والأفطس يستعين بالبربر في حروبه وتوسُّعاته، وكان القاضي ابن عباد على علاقة وطيدة بمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قَرْمُونة، وقد وصف ابن حيان البرزالي بقوله: «وكان ابن عبد الله بقَرْمُونة قطب رحى الفتنة، كثيرًا ما يُحرِّض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قُرْطُبَة، فيعمَّا الجهات كلها تدويخًا؛ كلما آبا من جهة صارَا إلى سواها، حتى أثَّرَا آثارًا قبيحة»[1].

ولا يخفى عليك أن علاقة ابن عباد بالبرزالي هي علاقة مصالح متبادلة لا أكثر! وهذا النوع من المصالح لا يدوم، فدعائمه ليست على كتاب الله ولا على سُنَّة رسوله، وسرعان ما يتحوَّل الصديق إلى عدوٍّ، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ حاول ابن عباد أن ينتزع قَرْمُونة من حليفه البرزالي، وكاد له ذلك لولا تدخُّل البربر

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٠.

واختراقهم أراضي إِشْبِيلِيَة، وكانت مقتلة عظيمة قُتِلَ فيها إسماعيل ابن القاضي ابن عباد، وذلك سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م)[(١)].

تمثّل قَرْمُونة الحصن الشمالي الشرقي لإِشْبِيلِيَة، فمن المصلحة العامة لابن عباد أن يكون على علاقة حسنة مع جاره، ومن ناحية البرزالي فمن مصلحته أن يُوَطِّدَ علاقته بابن عباد ليستعين به على قتال ابن حمود الطامع في إمارته؛ ومن ثَمَّ بعث القاضي ابن عباد لحليفه البرزالي يستعين به في السيطرة على بَاجَة، وأرسل عبد الله الأفطس ابنه محمد المظفر إلى بَاجَة، ويبدو أن ابن الأفطس أسرع إلى بَاجَة قبل الحليفين، وتملَّك المدينة، فأرسل القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل على رأس جيش إلى بَاجَة، ومعه قوّة من صاحب قَرْمُونة محمد بن عبد الله البرزالي، وفرض ابن عباد الحصار على بَاجَة وبداخلها ابن الأفطس، وجاء ابن طيفور صاحب مِيرْتُلَة بمددٍ لابن الأفطس، فاضطرم القتال بين الفريقين، وكانت مذبحة مهيبة، قُتل فيها من جيش ابن الأفطس الكثير، وأُسر منهم الكثير كذلك، وكان من بين الأسرى محمد بن الأفطس، وأخ لابن طيفور صُلِبَ بإِشْبِيلِيَة سنة ٤٢١هـ، وأُرسل ابن الأفطس إلى قَرْمُونة ليكون بجوار البرزالي، ثم أطلق سراحه، وكان محمد بن عبد الله البرزالي عرض على ابن الأفطس يوم أطلقه أن يجتاز على القاضي ابن عباد ليشركه في المنِّ عليه بفكِّه، فأبى ابن الأفطس ذلك وقال: مُقامي في أسرك أشرف عندي من تحمُّل منَّته، فإما انفردت باليد عندي وإلا أبقيتني على حالي. فأُعجب ابن عبد الله البرزالي بمقاله، ونافس في إسداء اليد عنده لكمال خصاله، وأكرم تشييعه، وبعث به إلى بَطَلْيُوس[(٢)].

هدأت الأمور بين المملكتين قليلاً، ولم ينسَ ابن مسلمة الأفطس تلك الهزيمة

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ٣/ ٣١.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ١٩-٢٢.

الثقيلة، التي أُسِرَ فيها ابنه محمد، وكاد أن يُقتل، وظلَّ ينتظر ذلك اليوم الذي يثأر فيه لنفسه ولابنه، ومرَّت أربعة أعوام، وبعث القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل بجيش توغَّل شمالاً في أراضي ابن الأفطس، وهنا كَمَنَ ابن الأفطس لابن عباد، وأغلق عليه طريق رجوعه، وكانت مقتلة عظيمة في جيش إِشْبِيلِيَة، لم ينجُ منها إلا قليل، وفرَّ إسماعيل بن عباد إلى لَشْبُونَة وتحصن بها، وكانت حادثة شنيعة لبني عباد سنة (٤٢٥هـ=١٠٣٤م)[1].

مرَّت السنون ومات القاضي ابن عباد سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م)، وخلفه ابنه عبَّاد المعتضد بالله، كما مات أيضًا عبد الله بن مسلمة الأفطس سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، وخلفه ابنه محمد المظفر، وهكذا مات الآباء وهم يحملون خصومات شنيعة جاءت بالويلات على المسلمين.

ولكن السؤال: هل نسي الأبناء أحقاد آبائهم، أم ساروا على نهجهم؟

والحقيقة المرَّة التي حفظها التاريخ أن الأبناء ساروا أشدَّ مما كان في عهد آبائهم، فلم ينسَ المعتضد بن عباد مأساة والده في سنة ٤٢٥هـ، كما لم ينسَ المظفر عداوة إِشْبِيلِيَة، وكان شعار كليهما ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

عادت الحرب أشدَّ ما كانت عليه، واضطرمت المعارك بين المعتضد والمظفر؛ إذ حاول المعتضد أن ينتزع لَبْلَة من صاحبها ابن يحيى، الذي عجز عن صدِّ جيوش إِشْبِيلِيَة، فاستغاث بالمظفر صاحب بَطَلْيُوس، الذي كان في غنًى عن هذه الفتنة، وخرج المظفر لإغاثة ابن يحيى، واستغلَّ فرصة غياب المعتضد عن إِشْبِيلِيَة فبعث بجماعة من البرابرة فعاثوا فيها، وعاث المعتضد في بَطَلْيُوس وأعمالها، وكادت أن

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٢.

تكون فتنة يذهب فيها الإسلام والمسلمون من كلا الإمارتين، فتدخَّل الوزير أبو الوليد بن جهور مسرعًا؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وجهد ابن جهور جهده في صرفهم، وأرسل ثقات رسله إلى عامَّتهم، وراح يضرب لهم الأمثال، ويُخَوِّفهم من سوء العاقبة والمآل، حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظًا وتذكرة، يجد منهم الأطواد الراسية، ويرقى الحيات المتصامة، واستنَّ القومُ في ميدان الغِيِّ، وكانت مقتلة عظيمة وفتنة بربرية، اتسمت بالقوة والعنفوانية، وعاث كلٌّ منهما في أراضي الآخر، وكانت الهزيمة على ابن الأفطس أولاً، لكنه استأنف الكرَّة، واستطاع هزيمة المعتضد هزيمة قاسية، قُتِلَ فيها كثير من جنده، وكان ذلك سنة (٤٣٩هـ=١٠٤٧م)[1].

ثم كانت سنة (٤٤٢هـ=١٠٥٠م) حيث تطوَّرت الحوادث، وتفاقم الأمر، وساء التفاهم بين المظفر بن الأفطس وابن يحيى حليف الأمس، فقد خان المظفر حليفه ابن يحيى، ورفض أن يَرُدَّ لابن يحيى ودائعه التي ائتمنه عليها من مال وذخائر، كان ابن يحيى جعلها عند المظفر أيام هجوم المعتضد بن عباد على لَبْلَة، ولما ساء الأمر بينهما هاجم المظفر بن الأفطس لَبْلَة، فهرع ابن يحيى للمعتضد بن عباد يطلب نجدته، فأرسل له جيشًا قويًا، فتك بابن الأفطس ومزَّق جيشه شرَّ ممزَّق، واحتزَّ من رءوسهم نحو مائة وخمسين، وأفنى حماة رجاله.

ثم جهز المعتضد جيشًا آخر من إِشْبِيلِيَة بقيادة ابنه إسماعيل ووزيره ابن سلام، فتوجَّه ناحية بَطَلْيُوس وأعمالها، فعاث شمالاً في أراضي ابن الأفطس حتى مدينة يَابرَة، وعلى الناحية الأخرى جمع المظفر بن الأفطس رجاله واستدعى حليفه

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٣، ٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٠٩، ٢١٠، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٨٤.

إسحاق بن عبد الله البرزالي، فبعث له بجيش عليه ابنه العزُّ، واجتمع الفريقان من غير أهبة ولا استعدد، ودارت حرب طاحنة، دارت دائرتها على ابن الأفطس، وحزَّ رأس العزِّ بن إسحاق وبعث به إلى إِشْبِيلِيَة، مع رأسٍ لعمٍّ ابن الأفطس، ولم يجد ابن الأفطس إلاَّ الفِرَار والنجاة بنفسه، فلجأ إلى يَابرَة تحت كنف صاحبها عبد الله بن الخرَّاز، وقد قُدِّرَ عدد مَنْ قُتِلَ في هذه الموقعة بثلاثة آلاف على أقلِّ تقدير[١].

وفي أواخر سنة ٤٤٢هـ (حيث لم تجف دماء المسلمين في يَابرَة، ولم يتنفَّس ابن الأفطس الصعداء من هول هزيمته وصدمته في يَابرَة) جهَّز المعتضد بن عباد جيشه وعاث في أراضي ابن الأفطس قتلاً وتشريدًا ونهبًا، وحرقًا في الأراضي والمزارع، فعمَّت المجاعة في البلاد، وفتح المعتضد حصونًا وبلدانًا، والمظفر لا يستطيع أن يَرُدَّ، ولم يملك إلا أن اعتصم بحصنه بَطَلْيُوس، ولم يُخْرِج من خيله فارسًا، وجعل يشكو إلى حلفائه، فلا يجد ظهيرًا ولا نصيرًا، واشتدَّ البأس على المظفر بن الأفطس، وكادت أن تكون نهايته، إلاَّ أن الوزير أبا الوليد بن جهور تَدَخَّل درءًا للفتنة، وسعيًا في الصلح بين هذين المتخاصمين، حتى تمَّ له ذلك في ربيع الأول (٤٤٣هـ=١٠٥١م)[٢].

وهكذا انتهت القطيعة بين إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، بعد أن كادت تُفْنِي كل شيء، ويبدو أن المعتضد والمظفر لم يرجعَا إلى نحو ما كانا عليه من الحروب والنزاعات، وإنما بحث كل منهما عن عدوٍّ هو أضعف منه ينال من لحمه، وينهش من مُلْكِه.

ثانيا: الصراع بين إشبيلية وغرناطة:

وقفت مملكة غَرْنَاطَة حجر عثرة أمام أطماع إِشْبِيلِيَة زمنًا طويلاً، فمع ما كان

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٤، ٣٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٥، ٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢١١-٢١٣.

يتمتَّع به البلاط الإشبيلي من قوَّة عسكرية وأدبية على يد بني عبَّاد، كان البلاط الغرناطي يتمتَّع كذلك بقدر كبير من القوة العسكرية على يد بني زيري، الذين وقفوا أمام كل محاولة لاستئصال البربر في الأندلس، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم بقوَّة على الإمارات الجنوبية الأندلسية، وكان هذا بلا شكٍّ نذيرًا باشتعال الحروب بين بني عباد وبني زيري؛ إذ يقف كلٌّ منهما في سبيل توسُّعات الآخر.

والغريب أن أوَّل اشتباك بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة لم يكن في أيٍّ من البلدين، وإنما كان في إِسْتِجَة، إذ سَيَّر القاضي أبو القاسم بن عباد جيشًا بقيادة ابنه إسماعيل؛ لانتزاع قَرْمُونة من محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، فحاصر ابن عباد قَرْمُونة ثم نهض إلى حصار حصن أشذونة وإِسْتِجَة، فلم يجد البرزالي إلا أن يستنجد بإخوانه البربر، فأرسل إلى إدريس المتأيد الحمودي وقبائل صنهاجة، فأمدَّه إدريس بعسكر يقوده ابن بَقَنَّةَ أحمد بن موسى مُدَبِّر دولته، وخرج باديس بن حبوس صاحب غَرْنَاطَة، ودار بينهم قتالٌ شرسٌ، انتهى بمقتل إسماعيل بن عباد، وحُمل رأسه إلى إدريس الحمودي في سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م)[١].

وقد اتَّسمت عَلاقة بني عباد بإِشْبِيلِيَة بالعدائية مع باديس بن حبوس في غَرْنَاطَة، وكانا كلٌّ من الطرفين يتسابق إلى أطماع الآخر يحول بينه وبينها، ويقف أمامه حجر عثرة في سبيل تحقيقها، واتَّسمت توسُّعاتها بأنها ذات اتجاه واحد ومصلحة واحدة؛ ولذلك فهم في صراع دائم؛ وكان الصراع على أشُدِّه بين المعتضد بن عباد وباديس بن حبوس يتمثَّل في انتزاع مَالَقَة والجزيرة الخضراء، أو أملاك الحموديين السالفة دولتهم.

فقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على الجزيرة الخضراء سنة (٤٤٦هـ=

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٣٠، ٣١، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١١٣، ١١٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٩.

١٠٥٤م)[(١)]، وأنهى بذلك دولة بني حمود في الجزيرة، وبقي له مَالَقَة التي استطاع باديس أن يستوليَ عليها سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) [(٢)]، وكان أهل مَالَقَة قد سئموا من حُكم البربر، فتاقت نفوسهم إلى التخلُّص منه، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد سرًّا يستحثُّونه على افتتاح مَالَقَة، فاستجاب لهم المعتضد، وسَيَّرَ لهم حملة بقيادة ابنيه جابر ومحمد المعتمد، وضربوا الحصار على مَالَقَة، وكادت أن تسقط، إلاَّ أن باديس صاحب غرناطة أسرع إلى نجدتهم، حتى فوجئ به جيش إشبيلية الذي كان على وشك النصر، فكانت معركة قاسية على جند إِشْبِيلِيَة، وفرَّ ابنا عباد جابر والمعتمد يجرَّان أذيال الهزيمة إلى رُنْدة، وكان ذلك سنة (٤٥٨هـ=١٠٦٦م) [(٣)].

لم ييأس المعتضد بن عباد من هزيمته أمام باديس بن حبوس في انتزاع مَالَقَة، فوجَّه قوَّاته إلى الإمارات البربرية الصغيرة الواقعة في الشمال والشرق من إِشْبِيلِيَة؛ وهي إمارات: رُنْدة، وقَرْمُونة، وأركش، وشَذُونة، ومورور، وقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على إمارات ثلاثة؛ هي: قَرْمُونة، ورُنْدة، ومورور كما أوضحنا.

وما يعنينا هنا هو إمارتي أركش وشَذُونة التي يُسيطر عليها بني يرنيان؛ إذ اتجه أمير أركش محمد بن خزرون إلى باديس بن حبوس وعرض عليه أن يُعطيه حصن أركش مقابل أن يُقطعهم أرضًا بغَرْنَاطَة ينزلون بها، ويكونون تحت كنفه وفي دولته، فوافق باديس بن حبوس، وأرسل إليهم أن يأتوا بأموالهم وأهليهم وذويهم ومتاعهم، فخرجوا بذلك كله فكانوا نحوًا من خمسمائة دابة، وكان معهم جماعة من بني برزال أعداء المعتضد، وكان المعتضد يرقب عن كثب كل هذه التحرُّكات، فكَمَن لهم كمينًا، ودارت حرب شرسة بين الطرفين مُزِّقَ فيها البربر كل ممزَّق، وقُتل

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٥، ٦/ ١٨٠.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٤٩، ٥٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٣-٢٧٥، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٣٢.

محمد بن خزرون، وبذلك ردَّ المعتضدُ على هزيمته في مَالَقَة، وانتزع أركش وبلاد شَذُونة من باديس بن حبوس[١].

تُوُفِّي المعتضد بن عباد سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وخلفه في الحُكم ابنه المعتمد على الله محمد، وكان المعتمد ذا طموح، ولم يكن ينسى ما كان بين أبيه وبين باديس، وظلَّ يتحيَّن الفرصة تلو الأخرى ليقتنص من غَرْنَاطَة ما يقدر، وكان يُراقب الأحداث في غَرْنَاطَة عن كثب، وكان المعتمد بن عباد مثل آبائه وأجداده يتوجَّس خوفًا من تنامي قوَّة البربر في الأندلس؛ وخاصَّة قاعدتهم الأقوى غَرْنَاطَة؛ إذ هي مهبطهم الأول إلى الأندلس عندما يأتون من وراء البحار من عُدوة المغرب، إضافة إلى هذا فإن النزعة العنصرية بين العرب والبربر كانت على أشدِّها في إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة.

وكانت سياسة باديس بن حبوس في مجملها ذات نزعة عنصرية واضحة للبربر؛ فمن ناحية يتقوَّى بهم ضدَّ ممالك الأندلس، ومن ناحية يتقوَّوْن به ضدَّ عدوان الآخرين عليهم، وهو ما رأيناه في أحداث قَرْمُونة ومَالَقَة وأركش وجَيَّان وغيرها من ممالك البربر الجنوبية والشرقية في الأندلس، وكانت هذه النزعة العنصرية متملِّكة في دم باديس بن حبوس، حتى أعمته عن الصواب في كثير من قراراته؛ ففي سنة (٤٧٥هـ=١٠٦٥م) قام أحد الفرسان ويُسَمَّى ابن يعقوب باغتيال أبي نصر بن أبي نور أمير رُنْدة البربرية بتدبيرٍ من المعتضد بن عباد، فلما سمع باديس بن حبوس بالخبر قام للحادثة وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشقَّ أثوابه... وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه[٢]، وفكر في قتل رعاياه الأندلسيين من العرب في غَرْنَاطَة، وأخذ قراره بقتلهم جميعًا في المسجد الجامع بغَرْنَاطَة يوم الجمعة، وشاور

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧١- ٢٧٣.

(٢) المَلاذُّ جمع مَلَذٍّ: وهو موضع اللذة وكل ما يُشتهى من الأشياء. ابن منظور: لسان العرب، مادة لذذ ٣/ ٥٠٦، المعجم الوسيط ٢/ ٨٢٢.

وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغرانة، مدبِّر دولته الذي لا يقطع أمرًا دونه، فحذَّره الوزير من العواقب الوخيمة لذلك الأمر، إلا أنه لم يستمع لنُصح وزيره، وحشد جنده، ولكنَّ اللهَ خَيَّب تدبيره، فقد سبقه ابن نغرانة الذي أرسل بعض النساء خفية إلى دور الأندلسيين العرب وحذَّرهم من الحضور إلى المسجد يوم الجمعة، وهكذا فشل تدبيره، ثم عدل عن قراره بعد أن اقتنع بنصح وزرائه من صنهاجة(١).

لذلك فالعداوة متبادلة بين العرب في إِشْبِيلِيَة وعلى رأسهم المعتضد وابنه المعتمد (إذ من المعلوم أن بني عباد من لَخْم العربية)، وبين البربر في غَرْنَاطَة وما حولها وعلى رأسهم باديس بن حبوس ووزرائه من صنهاجة، وهذه العداوة الشديدة تُنْذِر بحروب دموية وأكثر شراسة من غيرها؛ إذ هي قومية في المقام الأول، وهكذا استُحِلَّتْ دماء المسلمين بين عرب وبربر، ولم يَعُدْ للإسلام بينهم نصيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وحدث في سنة (٤٦٥هـ=١٠٧٣م) أن تُوُفِّي باديس بن حبوس، وملك من بعد حفيده عبد الله بن بُلُقِّين، وكان صبيًّا صغيرًا لا يملك من أمره شيئًا، وتولَّى أمور دولته الوزير سماجة الصنهاجي، واستبدَّ بالأمر، وكان رجلاً قويًّا حاسمًا، مرهوب العقاب، شديد السطو، كما جعل عبد الله بن بلقين أخاه تميمًا على مَالَقَة(٢)، وقد أدرك المعتمد أن هذه فرصته ليتوسَّع على حساب غَرْنَاطَة، فحشد جنده واتجه إلى مدينة جَيَّان، وانتزعها من يد ابن بلقين سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٤م)، وكانت هذه ضربة قاضية لعبد الله بن بلقين؛ إذ تُعَدُّ جَيَّان أخطر قاعدة عسكرية لمملكة غَرْنَاطَة الشمالية، ثم توجَّه المعتمد بن عباد بقوَّاته إلى غَرْنَاطَة وفرض عليها الحصار، وابتنى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣١٣، ٣١٤، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ٤٣٦-٤٣٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٣، ٢٣٤.

الحصون ليُرهق المدينة بغاراته عليها، ولكنه فشل ورفع الحصار لحصانة المدينة وشدة بأس وزيرها سماجة الصنهاجي[1].

رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه لا قِبَل له بمقاومة جُند المعتمد بن عباد إذا عاود الكرة عليه وأغار على غَرْنَاطَة، وفكَّر ابن بلقين وقدَّر، ثم ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠]! إذْ قاده تفكيره إلى أن بعث وزيره سماجة الصنهاجي إلى مَنْ؟! إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس؛ يستعين به على المعتمد بن عباد، وتعهَّد له بدفع جزية مقدارها عشرون ألف دينار، وبالطبع وافق ألفونسو، وخرج عبد الله بن بلقين بجند غَرْنَاطَة وجند النصارى القشتاليين، وأغار على أراضي إِشْبِيلِيَة، وعاث فيها فسادًا، واستطاع أن يستردَّ حصن قَبْرَة الواقع في جنوب غربي جَيَّان[2].

وحدث في عام (٤٦٧هـ=١٠٧٥م) أن سار ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة ومعه وزيره ومستشاره المستعرب الكونت سنندو (ششنند)؛ ليُطالب بدفع الجزية المفروضة عليهما، ويبدو أن الأمير عبد الله بن بلقين، رفض دفع الجزية؛ معبرًا عن عزَّته، وأنه لا يخش ضرًّا من ألفونسو، إلا أن المعتمد بن عباد لم ينسَ هزيمته عند حصن قَبْرَة، فانتهز الفرصة، وأخذ يُؤَلِّبُ ألفونسو على ابن بلقين، وبعث إليه بوزيره ابن عمار، فوقَّع معه حلفًا واتفاقًا؛ خلاصته أن يتعاون الفريقان مسلمو إِشْبِيلِيَة مع نصارى قشتالة ضد مسلمي غَرْنَاطَة، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأن يُؤَدِّي ابن عباد فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار، وظهر أثر ذلك الحلف على الفور؛ إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غَرْنَاطَة، وبدأ ابن عمار بتنفيذ الخطة أيضًا، فقام

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٢.

(٢) نقلاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٦٣، ١٤٢، ١٤٣.

بإنشاء حصن على مقربة من غَرْنَاطَة، وحاول من خلاله أن يؤثِّر على أهل المدينة بغاراته، ولكنه لم ينل منها مأربًا، وحدث أن انتزع المأمون بن ذي النون قُرْطُبَة منه سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، فاضطر أن يُخْلِيَ الحصن الذي احتلَّته جنود غَرْنَاطَة فيما بعد.

ثم حرَّض ابن عمار ألفونسو مرَّة أخرى على غزو غَرْنَاطَة، ومنَّاه بسهولة افتتاحها وضعف جندها، عندئذ رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه يذهب بنفسه إلى ألفونسو، وأن يتفاهم معه، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهُّد ابن بلقين بأداء الجزية السنوية وقدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يُسَلِّم الحصون الواقعة جنوب غربي جَيَّان، وما أن انتهى الاتفاق حتى باع ألفونسو الحصون لابن عباد جزاء صداقته له[(١)]!

هدأت الأمور نوعًا ما بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة، ومضت عشرة أعوام وفي سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) حدث أن تطوَّرت الأمور في مَالَقَة، وثار تميم بن بلقين أخو الأمير عبد الله بن بلقين، وأعلن استقلاله عن غَرْنَاطَة وتلقَّب بالمنتصر بالله، فتوجَّه إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ولكن خشي الأمير عبد الله أن يحالف أخوه تميمٌ المعتمدَ بن عباد؛ فهادنه وأعطاه حُكم مَالَقَة ونواحيها الغربية، وحدث في الوقت نفسه أن ثار كباب بن تميت حاكم أرشذونة وأنتقيرة، فسار إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ثم تمَّ الصلح وعَقْد المهادنة بين المعتمد بن عباد والأمير عبد الله بن بلقين، وسُوِّيت بين الفريقين سائر وجوه النزاع من حدود وغيرها، وكان ذلك أواخر سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م)[(٢)].

(١) انظر هذه الحوادث في مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بالتبيان ص٦٩، ٧٠، نقلاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٢، ١٤٣.
(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٤، ١٤٥ بتصرف.

وما هي إلاَّ أيام حتى سقطت طُلَيْطِلَة في يد ألفونسو السادس في (صفر ٤٧٨هـ= مايو ١٠٨٥م)، فما كان من الأمير عبد الله وابن عباد إلا أن أرسلا رسلهما إلى يوسف بن تاشفين يستنقذونه مما داهمهم من النصارى، وما حلَّ بأراضي المسلمين بالأندلس! فأين كان هؤلاء عندما استحلُّوا دماءهم بأيديهم، واستعانوا بالنصارى على بعضهم!

ثالثًا : الصراع بين إشبيلية وقرطبة

بدأ الصراع بين إِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة مبكِّرًا منذ أن بدأت أحداث الفتنة في بلاد الأندلس، وسنلاحظ دائمًا أن إِشْبِيلِيَة في ظلِّ بني عباد هي الطامع الذي لا يقنع إلاَّ بامتلاك ما في يد الآخرين، وكانت قُرْطُبَة محلَّ نظر بني عباد منذ أن استقلَّ القاضي أبو القاسم بن عباد بإِشْبِيلِيَة سنة (٤١٤هـ=١٠٢٣م)، وظَلَّت عينه على قُرْطُبَة؛ إذ تُمَثِّل قُرْطُبَة مدينة الأندلس الأولى، ومحلَّ الخلافة المنصرمة، وإليها تهفو نفوس الأندلسيين من كل حدب وصوب، وكان أهل قُرْطُبَة وعلى رأسهم حاكمها الوزير جهور على علم بكل ذلك، وما يُخفيه ابن عباد وغيره من طمع فيها.

وكان من أشهر أعمال القاضي أبي القاسم بن عباد أثناء ولايته -على نحو ما ذكرنا في الفصل السابق- دعوته بظهور الخليفة هشام المؤيد وذلك سنة (٤٢٦هـ=١٠٣٥م)، ولم تكن نية ابن عباد من وراء ذلك إلا دحضًا لدعوى الحموديين بالخلافة؛ فالخليفة الشرعي قد بان وظهر، ومن ناحية أخرى إضفاء للشرعية السياسية في تدبيره وحكمه لإِشْبِيلِيَة؛ فهو يتوسَّع بأمر الخليفة الشرعي للأندلس كلها، الذي لا يملك من أمره شيئًا، وإنما الأمر والتدبير لابن عباد، الذي يُمْلِي عليه ما يُريد، والحقيقة أن هذا لم يكن خافيًا على ملوك الطوائف وخاصة الوزير ابن جهور حاكم قُرْطُبَة.

وبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة للمدعوِّ هشام المؤيد بإِشْبِيلِيَة، أرسل رسله إلى أمراء الأندلس يطلب منهم أخذ البيعة والنزول على حكم الخليفة الشرعي، بيد أنه لم يعترف به أحدٌ، سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة، والموفق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وصاحب طُرْطُوشة(١)، وما يعنينا هنا هو موقف الوزير ابن جهور؛ إذ إن موقفه يهم ابن عباد والوزير نفسه؛ فابن عباد يعلم ثقل قُرْطُبَة في الأندلس، ويعلم ثقل الوزير ابن جهور ومكانته بين ملوك الطوائف، وسيطرته على قُرْطُبَة فاتحة له في السيطرة على الأندلس كلها، وأما الوزير ابن جهور فمع علمه بكذب الدعوة وافترائها، فهو يُريد أن يتخذها ذريعة لدفع دعوى الحموديين، الذين أرهقوه بغاراتهم على قُرْطُبَة محلِّ خلافتهم المزعومة، وامتلاكه لقوَّة ابن عباد سبيل لهذا الدفع.

بيد أن أهل قُرْطُبَة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وأعلنوه إمامًا للجماعة في الأندلس، ورفض ابن جهور في بادئ الأمر، وكادت أن تقوم ثورة ضدَّه في قُرْطُبَة، فأرسل رسله للوقوف على صحَّة ما يدَّعيه ابن عباد، ويبدو أنه باع دينه بعرض من الدنيا، وزوَّر شهادته، وأثبت صحَّة دعوى ابن عباد؛ ليدفع الحموديين عن قُرْطُبَة، وليُرْضِيَ أهل قُرْطُبَة ويدفعهم عنه، وأخذ ابن جهور البيعة لهشام المؤيد المزعوم، وخطب له في مساجد قُرْطُبَة وجامعها.

يبدو أن الوزير ابن جهور تراجع عن بيعته وأعلن كذب هذه الدعوة، وكان ذلك إيذانًا بالحرب بينه وبين ابن عباد، الذي جمع جيشه واتجه صوب قُرْطُبَة لإسقاطها بالقوَّة، وفرض الحصار على قُرْطُبَة أوائل (٤٢٧هـ=١٠٣٦م)، وأمر ابن جهور بسدِّ أبواب المدينة أمامه، ولم يجد القاضي ابن عباد جدوى من الحصار،

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

فجمع جيشه وجرَّ أذيال خيبته أمامه ووراءه إلى إِشْبِيلِيَة[١].

هدأت الأمور نوعًا ما بين إِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة، وانشغل كلٌّ من القاضي ابن عباد والوزير ابن جهور في توطيد مملكتيهما وحروبهما الأخرى، ومرَّت السنوات وتُوُفِّيَ القاضي ابن عباد، وملك من بعده المعتضد سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م)، كما تُوُفِّي الوزير ابن جهور، وملك من بعده ابنه الوزير أبو الوليد محمد بن جهور سنة (٤٣٥هـ=١٠٤٤م)، وسارت الأمور هادئة، ولكن يبدو أن أبا الوليد آثر الراحة، فقدَّم ولده الأصغر عبد الملك على ولده الأكبر عبد الرحمن، وسيطر عبد الملك بن جهور على مقاليد قُرْطُبَة، وكانت بين عبد الملك والمعتضد صداقة ووُدٌّ، ولا يخفى علينا أنها صداقة مصالح، كما لا يخفى علينا أن المعتضد فاغر فاه على قُرْطُبَة يُريد أن ينتزعها، فكانت الصداقة تمهيدًا لما يُريد.

على كل حال سيطر عبد الملك بن جهور على قُرْطُبَة، إلاَّ أنه أساء السيرة، وسار بين الناس بالمعاصي، وعَمَّت الفوضى البلاد، فلما رأى ذلك أوكل أمور قُرْطُبَة سنة ٤٤٠هـ إلى وزيره ابن السقاء؛ فضبط الأمور، وسار بين الناس بالعدل والحقِّ، وعاد الأمن والأمان مرَّة أخرى، وساد الاستقرار، وتقوَّت قُرْطُبَة بعد أن أصابها الضعف، والمعتضد بن عباد يُراقب الأمور عن كثب، وقُرْطُبَة كانت بين قاب قوسين أو أدنى منه؛ فعمد إلى الوقيعة بينه وبين وزيره وأوغر صدره عليه، حتى فتك به بكمين كمنه له، وكانت محنة الوزير ابن السقاء سنة (٤٥٥هـ=١٠٦٣م)[٢].

وهكذا تدخَّل المعتضد بقوَّة في شئون قُرْطُبَة، واستطاع أن يفتك بالوزير القوي ابن السقاء، وبذلك انفرد عبد الملك بالسلطة؛ فتجبَّر وأساء السيرة بين الرعية،

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩، ٧/ ٢٤١، ٢٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥١.

وعَمَّت الفوضى ثانية، وهنا تدخَّل الوزير أبو الوليد بن جهور وعمد إلى تقسيم السلطة بين الولدين، وذلك عام (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)، فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمِّنة للحَلِّ والعقد، وجميع أبواب النفقات، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والتولِّي لعرضهم، والإشراف على أعطياتهم، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم، وجميع ما يخصُّهم، ورَضِيَ الأخوان بذلك، إلا أن عبد الملك تَغَلَّب على أخيه؛ فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واستبدَّ بالأمر دونه، وانصرف الناس عنه[1].

لم تَخْفَ هذه الأحداث على المعتضد لحظة واحدة؛ فهو يُراقبها عن كثب، كما أنها لم تَخْفَ على ملوك الطوائف الآخرين، وخاصَّة المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة، ويمكن أن نقول: إن قُرْطُبَة كانت موضع صراع عنيف وسريع في الوقت نفسه بين إِشْبِيلِيَة وطُلَيْطِلَة؛ إذ إن قُرْطُبَة في المنتصف بينهما وعلى الحدود الجانبية لكلٍّ منهما، فلِمَنْ يا ترى تنتهي به الأحداث فيُحكم قبضته على قُرْطُبَة؟!

هذا ما ستوضحه السطور القادمة..

عَمَّتِ الفوضى أرجاء قُرْطُبَة وانفلتت الأمور من يد عبد الملك بن جهور، وكانت هذه فرصة ذهبية لمن يُريد الانقضاض على قُرْطُبَة، ويبدو أن المأمون بن ذي النون قد أعدَّ لقُرْطُبَة عُدَّتها، وكان هو كذلك يُراقب الأحداث عن كثب، فجهَّز جيشه وأسرع ناحية قُرْطُبَة وأغار عليها سنة (٤٦٢هـ=١٠٧٠م)، ولم يجد عبد الملك بن جهور مَنْ يستغيث به سوى صاحب إِشْبِيلِيَة، وهو حليفه وصديقه المعتمد بن عباد؛ إذ تُوُفِّيَ المعتضد بالله سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وعلى الفور أرسل له المعتمد

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٦، ٦٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٨، ٢٥٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩.

سرية مُكَوَّنة من أربعة آلاف، عليها قائداه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، ووصل الجيش الإشبيلي إلى قُرْطُبَة، ونزلوا في ربضها الشرقي، واستطاعوا أن يَرُدُّوا جيش ابن ذي النون عنها.

ويبدو أن المعتمد بن عباد دبَّر مكيدته مسبقًا، وعزم على الاستيلاء على قُرْطُبَة، وأعطى أوامره لقائديه بذلك، كما يبدو أن الظروف في قُرْطُبَة قد هيَّأت له أمر السيطرة عليها؛ إذ عَمَّت الفوضى وانتشر الفساد، وكره أهل قُرْطُبَة عبد الملك بن جهور، فأرسلوا إلى القائدين ابن مرتين وخلف بن نجاح أن يقبضوا على عبد الملك بن جهور، وأن تكون المدينة في طاعة المعتمد بن عباد، فاجتمعت الخطتين معًا، خطة المعتمد المسبقة وخطة أهل قُرْطُبَة، ودُبِّرَت المكيدة على أحسن وجه؛ إذ تظاهر قائدَا الجيش الإشبيلي بالانصراف والعودة، وذهب القائدان ومن معهما إلى وداع عبد الملك بن جهور بباب المدينة، وهنا اقتحم الجيش الإشبيلي الأبواب وملك المدينة، وسار الجنود في قُرْطُبَة سلبًا ونهبًا وسرقة وفسادًا، ودخلت قُرْطُبَة في طاعة المعتمد بن عباد، وكان ذلك في شعبان (٤٦٢هـ=١٠٧٠م)، وقد اعْتُقِلَ عبد الملك بن جهور وأهله وأخوه عبد الرحمن وأُرسلوا إلى إِشْبِيلِيَة مراعاة للحزم.

وأما الشيخ القعيد أبو الوليد بن جهور فقد نُفِيَ إلى جزيرة شَلْطِيش، وكان مما حُفِظَ عنه قوله: اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا. فمات بعد أربعين يومًا من نكبته وسقوط دولته[١].

ومنذ ذلك التاريخ ارتبط اسم قُرْطُبَة بإِشْبِيلِيَة، وجعل المعتمد بن عباد عليها ابنه المعتمد الحاجب سراج الدولة الملقب بالظافر، ووزيره محمد بن مرتين، وأقام الظافر ملكًا على قُرْطُبَة باسم أبيه، وظلَّ المأمون صاحب طُلَيْطِلَة يتحين الفرص

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٩-٦١١، وابن عذاري: البيان المغرب: ٣/ ٢٦٠، ٢٦١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩-١٥٢.

للسيطرة على قُرْطُبَة، وتمَّ له ذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٤م) إثر مكيدة دبَّرها المأمون مع رجل يُسَمَّى بحَكم بن عُكَّاشة ضد الظافر بن المعتمد؛ حيث دخل ابن عكاشة على الظافر بن المعتمد وقتله وحزَّ رأسه، واستولى على أبواب المدينة برجاله، كما قَتَل ابنَ مرتين وهو غارق في شرابه ولهوه.

ودخل المأمون قُرْطُبَة في موكب عظيم في جمادى الآخرة سنة ٤٦٧هـ، وما لبث المأمون أن اعتلَّ بقُرْطُبَة ومات بها، وحُمِلَ تابوته إلى طُلَيْطِلَة في ذي القعدة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وما لبثت قُرْطُبَة أن عادت إلى حوزة المعتمد بن عباد مرَّة أخرى؛ إذ دخلها بجنده بعد أن راسله أهل قُرْطُبَة، وتغلَّب على ابن عكاشة، وحزَّ رأسه ثأرًا لابنه الظافر، واستخلف المعتمد عليها ابنه الفتح الملقب بالمأمون، وكان ذلك في ذي الحجة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)[1].

رابعًا: الصراع بين طليطلة وسرقسطة:

كانت الخصومة بين طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة شرسة، كما تلطخت بالخيانة وموالاة النصارى على بعضهم، وتمكينهم من أراضي المسلمين، ويمكننا أن نقول: إن هذه الخصومة تُعَدُّ الأسوأ في تاريخ الأندلس، مأساةٌ حقًّا أن يسحق النصارى المسلمين، ويعيثوا في بلادهم تحت إشراف حُكَّام مسلمين، وفي أراضي المسلمين!

إنها أحداثٌ تزرف منها العيون، ويقشعر القلب من ذكرها، ويسيل القلم حسرة من كتابتها!

كان النزاع على أشُدِّه بين المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، وكانت تلك فتنة هوجاء عصفت بالمسلمين،

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٩، ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٦٨-٢٧٢.

وزالت هيبتهم عند النصارى؛ فمعلوم أن سَرَقُسْطَة تمثِّل من الناحية الجغرافية الجانب الشمالي الشرقي لطُلَيْطِلَة، وكانت سلسلة المدن والقلاع والحصون التي تمتدُّ بين الثغر الأعلى (سَرَقُسْطَة)، وبين الثغر الأوسط (طُلَيْطِلَة)، من قلعة أيوب وحتى وادي الحجارة هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين[1].

وعلى الرغم من أن وادي الحجارة من أعمال طُلَيْطِلَة، إلاَّ أن هناك بعضًا من أهلها مالوا إلى سليمان بن هود في سَرَقُسْطَة، وكانت هذه فرصة لابن هود أن ينفث في رُوح الفرقة بين أهلها؛ ليتسنَّى له السيطرة عليها بسهولة، وهو ما حدث بالفعل، فما زالت رُوح الفُرقة تتزايد بين أهلها المشتَّتين، بين طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، حتى بعث سليمان بن هود جيشًا عليه ابنه أحمد وليَّ عهده، ودخل وادي الحجارة بتدبيرٍ من شيعته، وكان ذلك سنة (٤٣٦هـ=١٠٤٤م)، وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة فيها لابن هود، وفرَّ المأمون وتتبَّعه أحمد بن هود بجيشه، وحاصره في مدينة طَلَبِيرَة، الواقعة على نهر التاجة غرب طُلَيْطِلَة، وبعث أحمد لأبيه سليمان بن هود يُعْلِمه بالخبر، فأمره بترك المأمون والرجوع إلى سَرَقُسْطَة، ورفع الحصار عن طَلَبِيرَة، وبذلك نجا المأمون من موت مُؤَكَّد[2]!

كانت هزيمة منكرة بلا شكٍّ للمأمون بن ذي النون، إلاَّ أنه لم ييأس وغلبه الجنوح إلى الغلبة والأنفة، ويا ليت أنفته كانت على نصارى الإسبان! وإنما كانت أنفته على مسلمي سَرَقُسْطَة، الذين استهان بدمائهم، وجعلهم عرضة لجنوده وللنصارى، كما سنرى!

لم يَهُنْ المأمون ولم يَلِنْ له عزم، ولم تأخذه الراحة حتى يأخذ بثأره من سليمان بن

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩٨.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٧، ٢٧٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٧، ١٧٨.

هود، فماذا يفعل المأمون؟ وقد أنهكته الهزيمة وأخذت منه جُلَّ جيشه وعسكره، فَكَّر المأمون بن ذي النون ووجد ضالته في الاستعانة بالنصارى على أخيه المسلم، والتجأ إلى فرناندو الأول ملك قشتالة يستعين به، مقابل أن يدفع له الجزية، فاستجاب فرناندو للطلب، ونِعْمَ ما يطلبه المأمون!

وعلى الفور ولم تمضِ أيام حتى كانت خيل النصارى تعيث فسادًا في بلاد سليمان بن هود؛ قتلاً ونهبًا وسرقة، وليس لهم رادع يردعهم! فأين جيوش سليمان بن هود؟! وأين عنجهيَّته وجبروته؟ أم أن قوَّته على المسلمين! أم أنه: [الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ   فَزْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ(١)

لقد فرَّ سليمان بن هود وتبعه جنوده، وتحصَّنوا بحصونهم، وتركوا رعيتهم لسيوف النصارى!

كان مصابًا عظيمًا للمسلمين في سَرَقُسْطَة؛ إذ كان ذلك الهجوم في وقت الحصاد، فقام النصارى بحصده وحمله، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا الزروع والأراضي، وحملوا ما شاء لهم أن يحملوه إلى بلادهم، وكانت فرصة للمأمون أن يثأر لهزيمته، فأغار على بلاد ابن هود ونهب منها ما شاء.

ولم يكتفِ المأمون بذلك فقط، بل عزم على عقد تحالفات أخرى مع ملوك الطوائف؛ يستعين بهم على ابن هود، وعرض المأمون على المعتضد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة صداقته وتحالفه، واستمرَّت المفاوضات بينهما، وقَبِلَ المعتضد بالله ذلك الحلف وتلك النصرة، على أن يعترف المأمون بالدعوة الهاشمية، ويُبايع للمدعو هشام المؤيد، وتكون له الدعوة في مساجد طُلَيْطِلَة، ووافق المأمون بن ذي النون، مع أن أباه إسماعيل بن ذي النون قد رفضها من قبلُ، ولكنها المصالح!

---

(١) البيت لعمران بن حطان السدوسي.

ويبدو أن المأمون خرج من ذلك الحلف خاسرًا خائبًا؛ إذ انشغل المعتضد عنه بقتال ابن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، فلم ينلْ منه ما يُريد، وعاد بتحالفه بخُفَّيْ حنين![1].

أما ابن هود فإنه وقع في تلك السقطة التي وقع فيها المأمون، وذهب إلى النصارى يستعين بهم -أيضًا- على المأمون، وبعث إلى فرناندو ملك قشتالة بالهدايا والتحف، وأغراه في طُلَيْطِلَة، فاستجاب فرناندو ولبَّى دعوته، وبعث بسراياه فعاثت في أراضي طُلَيْطِلَة فسادًا وتخريبًا، حتى وصلت إلى وادي الحجارة، وقلعة النهر (قلعة هنارس).

لم ييأس المأمون من المعركة والتمس مساعدة غرسية ملك نافار، وهو أخو فرناندو ملك قشتالة وكانت بينهما عداوة، وبعث المأمون إلى غرسية بالأموال والتحف يستنصره على ابن هود، فأغارت قوات غرسية على أراض سَرَقُسْطَة المتاخمة له فيما بين تُطِيلَة ووَشْقَة، وافتتح قلعة قلبرة أو قَلَهُرَّة من ثغر تُطِيلَة سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، والتي فتحها المنصور بن أبي عامر، وعاثت فيها قوات النصارى تخريبًا.

وهكذا استباح النصارى في قشتالة ونافار بلادَ المسلمين في طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، بمساعي ابن هود وابن ذي النون المشئومة الذميمة، وانهارت خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين، فاضطر أهل طُلَيْطِلَة إلى أن يبعثوا كبراءهم إلى سليمان بن هود؛ طلبًا للصلح، وحفظًا لأراضي المسلمين من ظفر النصارى بها، واستحواذهم عليها، وتظاهر كلٌّ من سليمان بن هود والمأمون بالقبول والمصالحة، ثم غدر سليمان بن هود بما كان عاهد عليه أهل طُلَيْطِلَة والمأمون، ويبدو أن كلاًّ منهما لم يكن مستعدًا لقبول الصلح؛ فالعداوة بينهما ملأت القلوب!

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٨، ٢٧٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٨.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج سليمان بن هود بجنوده، ومعه طالعة من حلفائه النصارى متجهًا إلى مدينة سالم من أعمال طُلَيْطِلَة، ولم تصمد حاميتها أمامه، وقتل منهم الكثير، وبسط نفوذه على الحصون التي انتزعها منه المأمون، وكان معه في ذلك كله عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وهو أخو المأمون، وجعل يدُلُّه على عورات المأمون وثغراته، ولما علم المأمون بالحادثة أسرع ليستردَّ المدينة ويُدافع عنها، وانتهز فرناندو حليف ابن هود غياب المأمون، فبعث سراياه فعاثت في أراضي طُلَيْطِلَة خرابًا وتقتيلاً؛ حتى يئس أهلها، وبعثوا إلى فرناندو يطلبون الصلح والمهادنة، فطلب منهم أموالاً كثيرة، واشترط عليهم شروطًا لم يقدروا عليها، وقالوا له: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة واستدعيناهم لكشف ما نحن فيه من المعضلة.

فردَّ عليهم فرناندو (ويا ليته لم يَرُدّ) قائلاً: «أمَّا استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهدِّدوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا لكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أوَّل أمركم؛ فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم بِرداءتكم، فارحلوا إلى عُدوتكم (يقصد عُدوة المغرب)، واتركوا لنا بلادنا؛ فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم»[1].

وهكذا لم يجد أهل طُلَيْطِلَة قبولاً لِمَا عرض عليهم من الصلح، وعلى الجانب الآخر كان غرسية وجنوده حلفاء المأمون يعيثون في أراضي ابن هود فسادًا وتخريبًا، ودامت هذه الفتنة الهوجاء بين هذين الأميرين المشئومين على المسلمين لمدة ثلاث سنوات (٤٣٥-٤٣٨هـ=١٠٤٣-١٠٤٦م)، ولم تنتهِ إلاَّ بموت سليمان المستعين بن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٨٢.

هود صاحب سَرَقُسْطَة؛ إذ تنفَّس المأمون بن ذي النون الصعداء[١].

طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة.. سليمان بن هود والمأمون بن ذي النون.. إنهما نموذج صارخ لتلك الحروب والخصومات التي عاشتها أمَّة الإسلام، وعانت ويلاتها في تلك الفترة المشئومة على المسلمين فترة ملوك الطوائف.

هدأت الأمور نوعًا ما بين المملكتين؛ إذ انشغل أولاد سليمان الخمسة في النزاع على أملاك أبيهم، وقد استطاع المقتدر بالله أحمد بن هود أن يتغلَّب على إخوته، وأن يُكَوِّنَ مملكة من أعظم ممالك الطوائف، بعد أن ضمَّ طُرْطُوشة إلى أملاكه سنة (٤٥٢هـ=١٠٦٠م) [٢]، كما انتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وذلك سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) [٣]؛ وبذلك أضحت سَرَقُسْطَة أكبر ممالك الطوائف مساحة وأعظمها قوَّة.

كما بدأ المأمون يتوسَّع على حساب الممالك الصغيرة الأخرى، واستطاع أن يُكَوِّنَ مملكة قوية مترامية حتى وصلت إلى بَلَنْسِيَة شرقًا، وما لبث المأمون إذ وافته المنية بعد ثلاث وثلاثين عامًا، وذلك بقُرْطُبَة سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وخلفه حفيده يحيى القادر على أملاك طُلَيْطِلَة وأعمالها.

لم يكن يحيى القادر على مقدار الكفاءة السياسية والعسكرية التي كانت عند جدِّه المأمون؛ إذ كان سيئ الرأي، قليل الخبرة والتجارِب، فوقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشرِّ، ظلُّوا وراءه حتى أوغروا صدره من مدبِّر دولته ابن الحديدي، فقتله في أوائل ذي الحجة

(١) انظر تفاصيل ذلك في، ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٧-٢٨٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩٨-١٠١.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٢٨.

(٤٦٨هـ=١٠٧٦م) -على نحو ما فصَّلْنَا- وسرعان ما انقلب عليه أعوان الأمس، وصاروا يُؤَلِّبُون العامَّة عليها، وانهالت عليه الضغوط من كل جانب، وكانت هذه فرصة للمقتدر بن هود أن يُغير على طُلَيْطِلَة وأعمالها، وفعلاً كثَّف المقتدر غاراته واستعان بالنصارى في ذلك، ولم يستطع يحيى القادر بن ذي النون أن يَرُدَّ عليه، وظلَّ الأمر هكذا حتى استطاع المقتدر بن هود أن ينتزع منه مدينة شَنْتَبَرِيَّة[1].

تطوَّرت الأحداث كثيرًا في كلٍّ من طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة؛ إذ تصاعد الخطر النصراني على بلاد المسلمين، وبدأ ألفونسو السادس يُسَدِّد ضرباته القوية على ممالك الطوائف المختلفة، حتى أضعفها وأنهكها؛ مرَّة بالجزية، ومرَّة بالغارات المتتالية، والواقع أن أحوال يحيى القادر في طُلَيْطِلَة كانت تُنذر بالخطر ووقوع النكبة؛ إذ اندلعت الثورة ضدَّه في طُلَيْطِلَة وهرب منها إلى حصن وَبْذَة سنة ٤٧٢هـ، إلا أنه استطاع أن يعود على حراب ألفونسو مرَّة أخرى، والتي أعقبتها زواله وخروجه ذليلاً من طُلَيْطِلَة؛ إذ وقعت النكبة وسقطت في يد ألفونسو في صفر (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، وخرج القادر يحيى إلى بَلَنْسِيَة تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م).

وعاث النصارى قتلاً وتخريبًا في المسلمين وديارهم تحت سمعه وبصره، ولم يُحَرِّك ساكنًا، وأمام هذه التطوُّرات الخطيرة يصل الخبر إلى بَلَنْسِيَة بالعبور المرابطي، فيهرع النصارى في بَلَنْسِيَة إلى ألفونسو لنجدتهم من الاتحاد الأندلسي المرابطي، وتكون معركة الزَّلاَّقة وينتصر المسلمون في (رجب ٤٧٩هـ=أكتوبر ١٠٨٦م)، ويتنفَّس أهل بَلَنْسِيَة الصعداء، بخروج النصارى وانتصار المسلمين، وهكذا انتقلت دولة القادر بن ذي النون من طُلَيْطِلَة إلى بَلَنْسِيَة.

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٧.

وعلى الجانب الآخر تُوُفِّيَ المقتدر أحمد بن هود سنة (٤٧٥هـ=١٠٨١م)، بعد ٣٥ سنة حاكمًا على سَرَقُسْطَة، بيد أن أبناء المقتدر يوسف والمنذر اقتتلا فيما بينهما على عرش أبيهما، واستعان كلٌّ منهما بالنصارى على أخيه، فارتمى يوسف المؤتمن في أحضان السيد القمبيطور، وجيشه من المرتزقة القشتاليين، وارتمى المنذر في أحضان سانشو ملك أراجون ورامون أمير بَرْشُلُونَة، وانتهت الفتنة بتغلُّب يوسف المؤتمن بن هود على مملكة سَرَقُسْطَة، وانحصر سلطان المنذر في لارِدَة وطُرْطُوشة، وبدأت أطماع يوسف تَتَّجه صوب بَلَنْسِيَة، إلا أنه فشل في انتزاعها من يد حاكمها أبي بكر بن عبد العزيز، إلاَّ أنَّ ابن عبد العزيز أحسَّ بالخطر، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بالتقارب بينهما بالمصاهرة؛ إذ زوَّج أبو بكر ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن وذلك سنة ٤٧٧هـ، ومات المؤتمن سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، ولم يُحَقِّق حلمه، وخلفه من بعده ابنه أحمد المستعين.

تطوَّرت الأحداث على هذا النحو في المملكتين، وأسفرت معركة الزَّلاَّقة عن انجلاء الحصار القشتالي عن بَلَنْسِيَة ٤٧٩هـ، وتجدَّدت أطماع المستعين بن هود في بقية أملاك طُلَيْطِلَة، وأخذ يتحيَّن الفرص ليقتنصها ويُحَقِّق حلم آبائه، وجاءته الفرصة إذ إن عمه المنذر كان يرقب هو الآخر الفرصة للاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وحشد جنوده وفرض عليها الحصار سنة (٤٨١هـ=١٠٨٠م)، وهنا هرع القادر بن ذي النون إلى حليفه أحمد المستعين بن هود، الذي لبَّى دعوته مسرعًا وهو ينوي نية الاستيلاء، مستعينًا في ذلك على القمبيطور وجنوده المرتزقة، وما أن اقترب المستعين ومَنْ معه من مرتزقة القمبيطور، حتى أنهى المنذر الحصار وعرض على يحيى صداقته، وهنا ظهرت ألاعيب كلٍّ من القمبيطور والمستعين، وظلَّ كلٌّ منهما يلعب على الآخر، وتفكَّك الحلف بينهما؛ إذ ظهرت النوايا الخفيَّة في سيطرة كلٍّ منهما على بَلَنْسِيَة، وانتهى الأمر أن غدت بَلَنْسِيَة في يد القمبيطور، وكانت مصابًا عظيمًا، ومحنة

جليلة للمسلمين هناك وذلك سنة (٤٨٨هـ=١٠٩٦م)، وبقيت بَلَنْسِيَة في أيدي النصارى حتى استردَّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ[١].

عاد المستعين حاملاً أذيال الخيبة من فشل محاولاته في انتزاع بَلَنْسِيَة، إلى أن قُتل في معركة بلتيرة أو فالتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أراجون في (رجب ٥٠٣هـ=يناير ١١١٠م)، وخلفه ابنه عبد الملك الملقَّب بعماد الدولة، والذي كانت نهاية دولة بني هود على يديه؛ فقد دخل المرابطون سَرَقُسْطَة سنة (٥٠٣هـ=١١١٠م)، وكانت آخر ممالك الطوائف سقوطًا في يد المرابطين، وظلَّت في أيديهم إلى أن سقطت في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في رمضان (٥١٢هـ=١١١٨م)[٢].

وهكذا انتهت الأحداث بين مملكتي طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، والتي كان الاعتماد فيها واضحًا على جند النصارى والمرتزقة، والذي كان له بعيد الأثر في تدهور الأوضاع حتى سقوط المملكتين.

* * *

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣٠٣-٣٠٦، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢٩، ٢٨٧.
(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٤٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣.

الفصل الثالث

المشهد الصليبي.. تطور الحال في الممالك النصرانية

مَرَّت الممالك النصرانية الإسبانية في الشمال خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بنفس الأطوار التي مرَّت بها الأندلس الإسلامية في الجنوب، فمرَّة في طور القوَّة والنشاط، ومرَّة في طور التفرُّق والنزاع، وطور القوة يأتي من وَحْدة تلك الممالك المتنازِعة فيما بينها، وطور الضعف يأتي من التنازع بينها، فكما رأينا الحال في الأندلس عندما تنازعها ملوك الطوائف، وتقاتلوا فيما بينهم؛ حتى إن الأخ يقتل أباه وأخاه وأهله ليستأثر بالحُكم دونهم، كان هذا هو الوضع -كذلك- في الممالك النصرانية.

ولا نعرف أيًّا من الطرفين أخذ بسُنَّة الآخر!

وفيما يلي في هذه السطور نحاول أن نُلقي بعض الضوء على حال تلك الممالك وعَلاقتها بملوك الطوائف، وكيف تَوَحَّدت تلك الممالك وعادت حركة الاسترداد النصرانية على الأندلس المسلمة؟

أولاً: الممالك النصرانية في الشمال:

انقسمت المملكة النصرانية في الشمال في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى ثلاث ممالك؛ هي على النحو التالي:

مملكة نافار أو نبرّة: وهي أكبر الممالك النصرانية، وكان يحكمها سانشو الكبير.

أما مملكة ليون: فكان يحكمها برمودو الثاني (٩٨٢-٩٩٩م)، وخلفه في الحكم ابنه ألفونسو الخامس، وظلَّ بها حتى تُوُفِّيَ سنة ١٠٢٧م، وذلك خلال إحدى غاراته على أراضي المسلمين في شمال البرتغال، وحاصر مدينة بازو، فأصابه سهم مسموم فقتله، فخلفه ابنه برمودو الثالث.

وأما مملكة قشتالة: وكان يحكمها سانشو غرسية حتى سنة ١٠٢١م، ثم خلفه ابنه غرسية بن سانشو.

وكان بين هذه الممالك تنازع وفرقة، وكان كلٌّ منها -تمامًا كما كان يحدث بين ملوك الطوائف- يترقَّب الفرصة المناسبة للانقضاض على مُلْك الآخرين، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ قصد غرسية بن سانشو ملك قشتالة مملكة ليون؛ ليتمَّ عقد زواجه من أخت ملكها برمودو الثالث، فقُتل غِيلة هناك في الكنيسة أثناء مراسم الحفل، وبذلك أصبحت مملكة قشتالة بلا ملك ولا أمير، وكان ذلك سنة ١٠٢٨م، وكان لهذا الحدث أثره الكبير في تغيير الخريطة السياسية في الممالك النصرانية.

كان سانشو الكبير ملك نافار (نبرة)، يرقب الأحداث عن كثب، وكانت تلك فرصته الذهبية؛ إذ كان سانشو زوجًا لأخت غرسية القتيل، وبالتالي فهو الوريث الشرعي لميراث زوجته، فجمع قوته واحتلَّ قشتالة، وضمَّها إلى مملكته، ووضع عليها ابنه فرناندو؛ وبذلك أضحت قشتالة ونافار مملكة واحدة.

أضحت إسبانيا مفترقة بين مملكتين، الأولى يحكمها سانشو وولده فرناندو؛ وهي مملكة قشتالة ونافار، والثانية يحكمها برمودو الثالث؛ وهي مملكة ليون.

كانت عين سانشو الكبير على ليون؛ إذ بها تتوحَّد إسبانيا على يديه ويُصبح هو الملك الأوحد للنصارى الإسبان، وكانت وسيلته في ذلك أن توجَّه فرناندو ملك

قشتالة وعقد زواجه على أخت برمودو الثالث ملك ليون، وبالطبع كان ذلك الزواج زواج مصلحة إلى حين، فكما استطاع سانشو أن يتغلَّب على قشتالة بزواجه من أخت غرسية القتيل، أراد فرناندو أن يُخضع ليون بالطريقة ذاتها، ولكن يبدو أن فرناندو استعجل ثمرته فهاجم مملكة ليون وافتتحها لنفسه، ففرَّ برمودو الثالث ليرقب الفرصة لاسترداد عرشه، وقد حاول ذلك مرارًا ولكنه لقي مصرعه على يد صهره، وبذلك توحَّدت ممالك إسبانيا الثلاثة على يد سانشو الكبير، وكان ذلك سنة ١٠٣٧م.

وكان سانشو قُبيل وفاته قد قسَّم مملكته بين أولاده الأربعة؛ فجعل قشتالة وليون وجِلِّيقِيَّة من نصيب ابنه فرناندو، وخصَّ ابنه الأكبر غرسية بنافار، وجعل لابنه راميرو ما تسّمى بمملكة أراغون، واقتطع لابنه كونزالو منطقة صغيرة هي ولايتي سوبرابي وربا جورسيا، هذا فضلاً عن إمارة بَرْشُلُونَة في شمال شرقي إسبانيا، والتي يحكمها رامون برنجيز الأول.

وكان هذا التقسيم إيذانًا بعودة الفُرقة والتناحر بين الإخوة الأشقاء، وهو ما حدث بالفعل، بعد وفاة سانشو الكبير(١).

ثانيًا: فرناندو وتوحيد الجبهة الصليبية:

اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا النصرانية بين الإخوة الأشقاء، وكانت حربًا دموية وشرسة، استعان أطرافها بالغيلة والخيانة والخديعة.

لم يقتنع راميرو بنصيبه من مملكة أبيه، وطمع في نصيب أخيه غرسية؛ أي: مملكة نافار نفسها، ولم تكن قوَّاته كفيلة بتحقيق أحلامه، فعقد حلفًا مع جاره المسلم ابن هود صاحب سَرَقُسْطَة على أن يُمِدَّه بجنود من عنده، ثم زحف راميرو في قوَّاته

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٧٦-٣٧٨.

المتحدة، إلى نافار ومعه حلفاؤه من المسلمين، وضرب حصاره على قلعة تافالا، وعلى عَجَلٍ جمع غرسية جيوشه، وفي جُنح الظلام انقضَّ بقواته على جيش راميرو، وكانت مقتلة عظيمة ومفاجأة، وقُتل كذلك معظم جيش المسلمين المشارك في المعركة، وكان ذلك سنة ١٠٤٢م.

وعلى الجانب الآخر كان غرسية ملك نافار يرى أنه أحقُّ بقشتالة من أخيه فرناندو؛ فهو أكبر إخوته سنًّا، وتملكت الغيرة قلبه من أخيه الأصغر فرناندو، فدبَّر له حيلة ومكيدة يكون فيها مقتل فرناندو؛ إذ دعا غرسية أخاه فرناندو لزيارته في نافار؛ فهو على فراش الموت، ويحبُّ أن يرى أخاه قبل انقطاع حياته، وفعلاً لبَّى فرناندو دعوة أخيه الأكبر، ولكنه فطن إلى حيلته بفعل عيونه، فعاد مسرعًا، وقلبه يمتلئ حقدًا على أخيه، ولم يكن غرسية على علم بأن فرناندو اكتشف حقيقة أمره ومكيدته، وبعث فرناندو برسالة لأخيه غرسية يدعوه لزيارته بقشتالة، فسار إليه وهو مطمئن النفس من أخيه، وما لبث حتى قبض عليه فرناندو واعتقله، ولكنه استطاع الفرار وهو يُضمر لأخيه الانتقام، فكان لا بد من الحرب!

جمع غرسية حشوده مستعينًا في ذلك بحليفه المقتدر بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، كما جمع فرناندو حشوده من قشتالة وليون، واشتبك الفريقان عند سهل أتابوركا شرقي برغش، وكانت معركة دامية، انقلبت فيها الموازين على غرسية وحلفائه من المسلمين، وقُتل غرسية بضربة قاضية، فانهار جيشه ولاذ بالفرار، وقصر فرناندو مطاردته على جيش المسلمين، فمُزِّقُوا شرَّ ممزَّق، وكانوا بين أسير وقتيل، ووقع اختيار فرناندو على سانشو بن غرسية ملكًا جديدًا على نافار؛ ليكون وريثًا لأبيه[1].

وهكذا توحَّدت ممالك إسبانيا النصرانية مرَّة أخرى؛ إذ أضحت قشتالة وليون

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٧٨-٣٨١.

ونافار وجِلِّيقِيَّة وأراجون تحت قبضة ملك واحد هو فرناندو بن سانشو الكبير.

ثالثا: فرناندو وحرب الاسترداد الأولى

حقًّا إن التاريخ يُعيد نفسه، وما أشبه أحداث الواقع بالتاريخ.. ففي الوقت الذي كانت إسبانيا النصرانية تنزع نحو الوَحْدَة والقوَّة على يد فرناندو، الذي استطاع بالفعل أن يُكَوِّن جبهة نصرانية صليبية مُوَحَّدة، كانت إسبانيا المسلمة أو الأندلس الإسلامية تصطلي بنيران الفُرقة والتنازُع والتشرذم بين أبناء الدين الواحد، فما أن أُلغيت الخلافة الأموية (عِقد الأمَّة ورمز وَحدتها) وذلك في قُرْطُبَة سنة (٤٢٢هـ=١٠٣١م)، حتى أضحت الأندلس فرقًا ممزَّقة وقطعًا متناثرة، وطوائف متنازعة متقاتلة.

وكان هذا التنازع سبيلاً إلى أن يتقوَّى بعضهم على بعض بتكوين التحالفات والتكتلات والاستعانة بغيرهم؛ ليتقوى بهم على جاره المسلم، وربما كان جاره أباه أو أخاه، وكان لا بدَّ لهذا الحليف أن يكون في موضع قوَّة واتحاد؛ لذلك اتجهت أنظار ملوك الطوائف إلى النصارى الصليبيين، الذين يحملون رُوح الحقد والكراهية للمسلمين.

فكان هذا الاتحاد الذي أحدثه فرناندو بين ممالك إسبانيا الصليبية، وحالة التنازع والفرقة بين ملوك الطوائف سبيلاً إلى تغيير ميزان القوى السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بشِقَّيْهَا الإسلامي والنصراني، وكانت هذه القوة النصرانية بداية لما يُسَمَّى بحرب الاسترداد الصليبية ضدَّ الممالك الأندلسية المسلمة.

تمركزت سياسة حرب الاسترداد التي تزعَّمها فرناندو الأول[1] ملك قشتالة على أكثر من جهة، وكان يهدف من هذا الأمر إلى إضعاف قوَّة ملوك الطوائف،

(١) فرناندو الأول ملك قشتالة: يُطلق عليه في المصادر العربية (فرذلند ملك الجلالقة).

وإخضاعهم لسلطانه وسيطرته؛ إمَّا من خلال السيطرة على أراضيهم، أو إضعافهم وإرهاق كاهلهم بدفع الجزية والإتاوات، ولم يُوَلِّ فرناندو نظره وقوَّته إلاَّ للممالك الأقوى بين ملوك الطوائف، وكانت هذه الممالك هي طُلَيْطِلَة وإِشْبِيلِيَة وسَرَقُسْطَة وبَطَلْيُوس وغيرها من الممالك الضعيفة.

فما أن انتهى فرناندو من توحيد جبهته الصليبية بعد تغلُّبه على إخوته، حتى وجَّه أمره وقوته إلى بني الأفطس أصحاب بَطَلْيُوس؛ لإخضاع وضمِّ ممتلكاتهم إلى دولته، ومعلوم أن بَطَلْيُوس تُمثِّل الحدود الشمالية والغربية لدولة الأندلس؛ أي: تشمل دولة البرتغال الحالية بكاملها؛ فهي تضمُّ لَشْبُونَة (lispon)، وشَنْتَرِين (Santarém)، وقُلُمْرِيَة (Coimbra) وغيرها، وفي سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) تأهَّب فرناندو الأول وجمع جيوشه وغزا بلاد بَطَلْيُوس، وعبر بقوَّاته نهري دويرة وتورمس، وهاجم الحدود الشمالية لمملكة بَطَلْيُوس، واستطاع أن يُخضع مدينتي بازو ولاميجو الواقعتين في شمال البرتغال، وعاث فيهما فسادًا وتخريبًا، ثم قام بعملية تصفية وتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين الإسلاميتين؛ إذ طرد المسلمين منها واستوطنها بالنصارى[١].

وبعد أن تمَّت السيطرة لفرناندو طلب من المظفر بن الأفطس دفع الجزية والإتاوة، بيد أن المظفر رفض دفع الجزية له، وهذا ما دفع فرناندو أن يُغِيرَ مرَّة أخرى، فبعث بحملة من عشرة آلاف جندي عاثت تخريبًا وقتلاً، ولم تلقَ مقاومة تُذْكَر من جند ابن الأفطس، وظَلَّت قوَّات النصارى تعيث في أراضي المسلمين فسادًا حتى وصلت مدينة شَنْتَرِين، وكان ابن الأفطس على علم بتحرُّكات النصارى، فسبق النصارى إلى شَنْتَرِين، وعَلِمَ أنه لا قِبَلَ له بجيش النصارى، فعرض عليهم الصلح والهدنة، وانتهت المفاوضات على أن يدفع ابن الأفطس

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٨٥، ٨٦، ٣٨٣.

الجزية السنوية ومقدارها خمسة آلاف دينار[(١)].

يبدو أن فرناندو قنع بخضوع بَطَلْيُوس وأصحابها من بني الأفطس، فوجَّه وجهته الثانية ناحية طُلَيْطِلَة، وقد بيَّنَّا -سابقًا- أن فرناندو كان يبعث سراياه لتعيث فسادًا في أراضي طُلَيْطِلَة، أثناء حلفه مع ابن هود في فترة الصراع المحتدم بين سليمان المستعين بن هود وبين المأمون بن ذي النون، كما أن المأمون كان يستعين بغرسية ملك نافار، وكانت جيوش النصارى تعيث في أراضي المسلمين بتحريض من الأميرين المشئومين.

وأدرك فرناندو بعد توحيد جبهته أن لا قِبَل لملوك الطوائف بردِّه؛ إذ هم منهمكون في حرب بعضهم البعض، ففي سنة (٤٥٤هـ=١٠٦٢م) هاجم فرناندو حدود مملكة طُلَيْطِلَة الشمالية الشرقية؛ فأغار على مدينة سالم ووادي الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس)، وعاث فيها فسادًا وتخريبًا، ولم يكن أمام المأمون إلاَّ أن هرع مسرعًا إلى فرناندو، وجمع معه أطنانًا من الذهب والفضة، وقدم له الهدايا اعترافًا بطاعته، وتعهد بدفع الجزية له[(٢)].

وبعد أن اطمأن فرناندو إلى ولاء المأمون بن ذي النون، خرج بقوَّات كثيفة سنة (٤٥٥هـ=١٠٦٣م) وأغار على مملكة إِشْبِيلِيَة، وأحرق قراها وخرَّب أراضيها، فلم يجد المعتضد بن عباد بُدًّا من أن يحتذي حذو المأمون صاحب طُلَيْطِلَة، وهرع المعتضد مسرعًا إلى فرناندو وقدَّم له الهدايا؛ معلنًا الولاء والطاعة، كما عرض عليه الصلح والمهادنة والسلم فقَبِلَ منه! وطلب منه أن ينقل رفات القديسة خوستا، التي استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودُفِنَتْ بإِشْبِيلِيَة، فوافق المعتضد بن عباد، وحُمِلَتْ رفات القديسة في احتفال فخم، ونقلت إلى ليون[(٣)].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠١، ٣٨٣، ٣٨٤.

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٨٤.

وهكذا استطاع فرناندو أن يُخضع طُلَيْطِلَة وبَطَلْيُوس وإِشْبِيلِيَة تحت قبضته، بإرهاقهم بالجزية والغارات، وكان في كلِّ ذلك يعدُّ عُدَّته وخطته الكبرى للسيطرة على قُلُمْرِيَة من أعمال بَطَلْيُوس، التي فتحها المنصور بن أبي عامر في ٣٧٥هـ، قصد فرناندو قُلُمْرِيَة بجيوشه وفرض عليها الحصار سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)، وكان قائدها في ذلك الوقت رجلاً يُسَمَّى راندة، وقد غادر المدينة بعد أن راسل فرناندو سرًّا، وخرج هو وأهله سالمين، ثم توجَّه إلى المظفر بن الأفطس الذي قتله جزاء خيانته وتعاونه مع الصليبيين، ويبدو أن المسلمين حاولوا المقاومة، ولكن نفدت أقواتهم، ولم تلبث المدينة حتى سقطت بعد ستة أشهر من الحصار، بعد حُكم إسلامي دام أكثر من بضع سبعين سنة[1].

لم يَعُدْ أمام فرناندو إلا أنْ يُخْضِعَ مملكة بني هود، التي تُسَمَّى بالثغر الأعلى سَرَقُسْطَة؛ فهي المملكة الوحيدة التي يماطل أصحابها فرناندو في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم، كما أنه أراد أن يُخْضِعَ بَلَنْسِيَة لسلطانه، فتوجَّه بقوَّاته سنة (٤٥٧هـ=١٠٦٥م) صوب بَلَنْسِيَة مخترقًا في ذلك حدود سَرَقُسْطَة الجنوبية، وأعمل فيها القتل والتخريب، ونهب الزروع والقرى، كما أنه اجتاح سائر البقاع والحصون؛ وبذلك أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية.

ثم اتجه من فوره ناحية بَلَنْسِيَة وفرض عليها الحصار، ولَمَّا طال الحصار ورأى فرناندو أن حصون المدينة منيعة، ووسائل الدفاع لديها قوية، عزم على الحيلة والمكيدة؛ فتظاهر بالانسحاب والمغادرة، فخرج أهل المدينة فرحين بالنصر متتبِّعين فلول المنهزمين، متزينين بزينة النصر والأُبَّهة، وهنا وفي غفلة من أهل بَلَنْسِيَة وأميرها عبد الملك بن عبد العزيز المنصور، ارتدت القوات الصليبية، وأعملت في أهل بَلَنْسِيَة القتل والأَسْرَ، واستسلمت المدينة لفرناندو، ولكنه أحسَّ بالمرض فآثر

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٤.

العودة إلى ليون، ولم تمضِ أيام حتى تُوُفِّيَ سنة (٤٥٧هـ= ديسمبر ١٠٦٥م)[1].

وهكذا استطاع فرناندو أن يبسط قوَّته على إسبانيا الصليبية وإسبانيا الإسلامية بسلطانه المادي بقوته وجيوشه، والمعنوي بالجزية والإتاوات، التي يُرهق بها ملوك الطوائف.

رابعًا: موت فرناندو والصراع بين ورثته

عمد فرناندو قُبَيْلَ وفاته إلى تقسيم مملكته المتحدة على أبنائه الثلاثة وبنتيه، ويبدو أن فرناندو لم يتعلَّم من درس والده سانشو الكبير عندما قسَّم مملكته المتحدة بين أبنائه، وقد ذاق فرناندو لظى الفُرقة التي كانت بينه وبين إخوته! على كل حالٍ اتَّخذ فرناندو قراره بالتقسيم، وجمع الأساقفة والأشراف في سنة ١٠٦٤م، وانتهى إلى تقسيم الدولة على أبنائه الثلاثة: سانشو الابن الأكبر، وألفونسو، وغرسية، وبنتيه: أوراكا، وإلبيرة.

فخصَّ سانشو بقشتالة وحقوق الجزية من مملكة سَرَقُسْطَة.

وخصَّ ألفونسو بليون وحقوق الجزية من مملكة طُلَيْطِلَة.

وخصَّ غرسية بجِلِّيقِيَّة والبرتغال، وحقوق الجزية من مملكة إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس.

وخصَّ أوراكا بمدينة سَمُّورة الحصينة.

وخصَّ إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة.

وكان هذا التقسيم سبيلاً إلى اندلاع الشقاق بين الإخوة الأشقاء، وسبيلاً إلى الفُرقة والتنازع بينهم، وهو ما حدث بالفعل.

---

(١) انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٣٨٦، ٣٨٧.

كانت مملكة نافار في ذلك الوقت تحت يد سانشو بن غرسية، كما كانت مملكة أراغون تحت حكم سانشو بن راميرو، وقد طمع سانشو بن فرناندو في ضمِّ المملكتين إلى أملاكه، وقد شعر مَلِكَا أراغون ونافار بنية ملك قشتالة، فكَوَّنَا حلفًا ضده، واستطاعَا أن يصداه عن مملكتيهما في معركة فيانا عام ١٠٦٧م، وبعد عام هاجم سانشو بن فرناندو ملك قشتالة أراضي ليون، وحاول أخوه ألفونسو ردَّه، ولكنه هُزِم وتنازل لسانشو عن بعض ممتلكاته عام ١٠٦٨م.

ثم أعاد سانشو كَرَّته على ليون، وهُزم في بادئ الأمر، ولكنه استطاع بحيلة ردريجو ياث (الذي يُعرف بالقمبيطور) أن ينتصر على ألفونسو؛ إذ أغار على جيش ليون ليلاً، ودخل سانشو ليون ظافرًا، واعتقل أخاه ألفونسو وسجنه في يوليو عام ١٠٧١م، ولكنه خرج من معتقله بوساطة أخته أوراكا، وحُدِّدت إقامته في دير ساهاجون، وقد دَبَّرت أخته أوراكا له مكيدة، استطاع بها أن يهرب، والتجأ إلى مملكة طُلَيْطِلَة؛ ليكون في رعاية المأمون بن ذي النون، وقد استقبله المأمون أحسن استقبال، وأكرمه وعاش في كنفه أحسن معيشة.

ويبدو أن ألفونسو لم يكن يقضي منفاه في لهو ولعب وعبث، وإنما كان يتنقل بين جنبات طُلَيْطِلَة، تلك المدينة التي يحلم أن يمتلكها يومًا ما؛ ومما يؤيد ذلك قول الأستاذ بيدال: «كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ويتريض في جنبات المدينة الحصينة، ويُفَكِّر من أيِّ الأماكن وبأيِّ نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها»[1]. وقضى ألفونسو تسعة أشهر في منفاه معزَّزًا مكرَّمًا، إلى أن شاءت الأقدار وتطوَّرت الأحداث في قشتالة!

لم يقنع سانشو بما تمّ له من السيطرة على ليون، بل أراد أن ينتزع المُلْكَ من أخيه

---

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٩١.

غرسية ملك جِلِّيقِيَّة والبرتغال، وقد تمَّ له ذلك، وفرَّ غرسية هاربًا ليكون في حمى المعتمد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة وذلك سنة ١٠٧١م.

لم يَبْقَ لسانشو من مُلْكِ أبيه سوى مُلْكِ أختيه في مدينتي سَمُّورة وتورو، وعقد عزمه على أن ينزع منهما ملكهما، واستطاع فعلاً أن يستوليَ على تورو، ولم تصمد أخته إلبيرة أمامه، ثم توجَّه بجيشه إلى سَمُّورة، فصمدت أمامه كثيرًا، ففرض عليها الحصار، وفي ذات يوم وفد إلى معسكره فارس، وطلب مقابلته؛ ليُنْبِئه عن بعض أحوال المدينة المحصورة، وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته فأرداه قتيلاً، وانفضَّ الحصار عن المدينة، بيد أن أخته أوراكا كانت وراء هذه الجريمة، وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٠٧٢م.

وهكذا بقيت المملكة بلا ملك يتولَّى شئونها، ولم يبقى من إخوة القتيل سوى ألفونسو اللاجئ في بلاط طُلَيْطِلَة، وغرسية اللاجئ في بلاط إِشْبِيلِيَة، فإلى مَنْ تئول المملكة الواسعة؟!

خامسًا: ألفونسو ملكًا على عرش ليون:

وهكذا قُتل سانشو جزاء طمعه واعتدائه على حقِّ إخوته، فاجتمع الأشراف على استدعاء ألفونسو من طُلَيْطِلَة؛ ليتولَّى الحُكم مكان أخيه، بشرط أن يُقْسِمَ أنه لم يشترك بأي حال في تدبير مقتل أخيه سانشو، فأرسلت أخته أوراكا إليه تستدعيه وتُعْلِمُه بالأمر، وعلى الفور أعلم ألفونسو المأمونَ بن ذي النون بالنبأ، فما كان من المأمون إلا أن أعرب عن سروره وغبطتُه، ووعده بمساعدته بالمال والخيل، ولم يطلب سوى صداقته، وأن يعده أن يساعده ضد إخوانه من المسلمين، فقطع له ألفونسو عهده، وودَّعه المأمون في موكب عظيم إلى حدود مملكته.

ويا لخيبة المأمون! إذ ماذا كان سيفعل لو علم أن ألفونسو هو مَنْ سيُسْقِط

مملكته، ويُهِينُ حفيده القادر!

على كل حالٍ غَدَا ألفونسو ملكًا على عرش ليون وقشتالة، وهكذا عادت المملكة الصليبية وحدة واحدة، كما كانت على عهد سانشو الكبير وفرناندو الأول.

بيد أن غرسية الأخ الآخر لألفونسو طمع في أملاك أخيه وتَمَلَّكَهُ الحسد، فدبَّر له ألفونسو مكيدة بإيعاز من أختهما أوراكا؛ إذ دعا ألفونسو أخاه غرسية للتفاهم، وما كاد يصل غرسية حتى قُبِضَ عليه، وزُجَّ في السجن إلى أن تُوُفِّيَ سنة ١٠٩٠م، وخَلُص عرش المملكة لألفونسو بلا منازع[١].

***

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٨٩-٣٩٥.

الفصل الرابع

ألفونسو السادس وحرب الاسترداد

كان ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة أقوى ملك نصراني صليبي في ذلك الوقت، ولم ينسَ ألفونسو يومًا عداوة آبائه وأجداده للمسلمين في الأندلس؛ لذلك ليس غريبًا أن يستأنف ألفونسو حرب الاسترداد الصليبية في إسبانيا الإسلامية، بل وتكون أشُدَّها ضراوة وقوَّة وحمية.

وقد اتَّسمت فترة الصراع الإسلامي الصليبي في عهد ألفونسو بالدينية، وكان ذلك بتأييد من البابوية الكنسية؛ لذلك اتَّسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس.

أولاً: الإغارة على ممالك الطوائف

حرب الاسترداد الثانية:

عندما اعتلى ألفونسو عرش قشتالة وليون سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٢م) كان الصراع على أشدِّه بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة، وقد سبق وفصلنا كيف استعانت كلتا المملكتين بألفونسو السادس على بعضهما، حتى أرهقهما بالجزية وبما أثاره من تقتيل وتخريب وإفساد باسم تحالفه مع المملكتين.

كانت العَلاقة بين ألفونسو ومملكة سَرَقُسْطَة تسير من سيئ إلى أسوأ، وحدث

أن تُوُفِّيَ يوسف المؤتمن بن هود في السنة نفسها التي سقطت فيها طليطلة بيد ألفونسو (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، فتوجه إلى سَرَقُسْطَة، وضرب الحصار عليها، إلا أن حملته باءت بالفشل؛ إذ جاءت الأنباء إليه بقدوم المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس، فعاد إلى قشتالة ليُعِدَّ عُدَّته.

أما عن بَلَنْسِيَة فقد كانت تمرُّ بفوضى سياسية تحت حُكم القادر يحيى بن ذي النون، الذي دخلها تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م)، فقد تعرَّضت بَلَنْسِيَة لضغط المنذر بن هود صاحب طُرْطُوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سَرَقُسْطَة، وكانت المدينة تشطر أملاكه، فالتمس المساعدة من كلٍّ مِنْ ألفونسو السادس وأحمد المستعين، الذي هرع إلى القمبيطور، غير أن المصالح تضاربت بين الحليفين، فاضطر المستعين أن يستعين برامون أمير بَرْشُلُونَة، كما استعان القمبيطور بألفونسو السادس، وحدث أن انتصر القمبيطور على رامون، واستولى بذلك على شرقي الأندلس وبَلَنْسِيَة منها، وفرض الجزية عليها، وتعهَّد يحيى بدفع مائة ألف دينار سنويًّا مقابل حمايته له، بيد أن العلاقة ساءت بين القمبيطور وألفونسو السادس، فقبض ألفونسو السادس على زوجة القمبيطور وأولاده، وهاجم بَلَنْسِيَة في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سَرَقُسْطَة؛ لتنظيم الدفاع عنها تجاه خطر المرابطين![1]

وهكذا أضحت ملوك الطوائف كلها تحت نير[2] هجمات النصارى والتي أنهكت قوى ملوك الطوائف وأضعفت قواهم، ونتج عنها أن سقطت طُلَيْطِلَة على نحو ما سنُفَصِّله إن شاء الله.

---

(١) انظر تفاصيل الأحداث في بلنسية عند: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٣٧-٢٥٢، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٢) النير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثور لجرِّ المحراث أو غيره. ابن منظور: لسان العرب، مادة نير ٥/ ٢٤٦، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٦٦.

ثانيًا: أخذ الجزية من المسلمين:

إنَّ أشدَّ وأنكى ما كان من أمر ملوك الطوائف في هذه الفترة أنهم كانوا يدفعون الجزية للنصارى، فكانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس، وهم في ذِلَّة ومهانة؛ كانوا يدفعون الجزية حتى يحفظ لهم ألفونسو السادس أماكنهم وبقاءهم على الحُكم في بلادهم.

كانت سياسة ألفونسو السادس التي استعان بها في إنجاح خطته وسيطرته على ممالك الطوائف تعتمد على شقَّيْنِ، الأول: إرهاقهم بالغارات المتواصلة، والثاني: إرهاقهم بالجزية والإتاوات؛ وبذلك تضعف قوى ملوك الطوائف العسكرية والاقتصادية، فلا يقدرون على المدافعة.

وكأنَّ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]

قد نزل في أهل الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث يَتَعَلَّلون ويتأَوَّلُون في مودَّة وموالاة النصارى بالخوف من دائرة تدور عليهم من قِبَلِ إخوانهم، وهنا يُعَلِّق ﷺ بقوله: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وهو بعينه الذي سيحدث في نهاية هذا العهد كما سنرى، حين يكون النصر فيُسِرُّ هؤلاء في أنفسهم ما كان منهم من موالاة النصارى في الظاهر والباطن، ويندمون حين يفضحهم الله ويُظهر أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، وذلك بعد أن كانوا مستورين لا يدري أحدٌ كيف حالهم.

وإنها لعبرة وعظة يُصَوِّرُها القرآنُ الكريمُ منهجُ ودستورُ الأُمَّة في كل زمان

ومكان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

غير أن الصورة لاح فيها نور من العزَّة والإباء قادم من بَطَلْيُوس، التي أرهقتها غارات ألفونسو، فمع أن كل الممالك وأمراء الطوائف كانوا يدفعون الجزية إلى ألفونسو السادس إلا المتوكل بن الأفطس أمير مملكة بَطَلْيُوس.

وبعد أن أسقط ألفونسو طُلَيْطِلَة سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، وجد نفسه قادرًا على تحدِّي ملوك الطوائف جميعًا، وهنا أرسل ألفونسو السادس للمتوكل بن الأفطس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية، كما كان يدفعها إخوانه من المسلمين في الممالك الإسلامية المجاورة، فرد عليه المتوكل برسالة قوية تثبت ما كان عليه من علم وعزة وإرادة، قال:

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مُدَّعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يُفَرِّق، ويُهَدِّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة، ولو علم أن لله جنودًا أعزَّ بهم ملَّة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٥٤]، بالتقوى يُعرفون وبالتوبة يتضرَّعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، و﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وأمَّا تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم؛ فبالذنوب المركوبة... ولو اتَّفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك؛ لعلمتَ أيَّ مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرَّعه... وبالأمس كانت قطيعة[1] المنصور[2] على

---

(١) القطيعة: المال المفروض على العدو كل عام، وهي نوع من أنواع الجزية، يضمن بها المهادنة من المسلمين.
(٢) المنصور: هو المنصور بن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية.

سلفك، إهداء ابنته إليه[١]، مع الذخائر التي كانت تَفِدُ في كل عام عليه... وأما نحن؛ وإن قلَّت أعدادنا، وعُدِم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلاَّ سيوفًا تشهد بحدِّها رقاب قومك، وجلادًا تبصره في نهارك وليلك، وبالله تعالى وملائكته المسوَّمين، نتقوَّى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]: نصر عليكم فيا لها من نعمة ومِنَّة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هَدَّدْتَ، وفرج يبتر ما مددت، ويقطع بك فيما أعددت»[٢].

فما كان من ألفونسو السادس إلاَّ أن وجم ولم يُفكِّر، ولم يستطع أن يُرسل له جيشًا؛ فقد غزا كل بلاد المسلمين في الأندلس خلا بَطَلْيُوس، لم يتجرَّأ على أن يغزوها، فكان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يقدر أهلُ الأرض جميعُهم على مقاومتهم، فأعزَّ الإسلامُ ورفع من شأن المتوكل بن الأفطس ومَنْ معه من الجنود القليلين حين رجعوا إليه، وبمجرَّد أن لوَّحوا بجهاد لا يرضون فيه إلاَّ بإحدى الحسنيين، نصر أو شهادة.

إلاَّ أن المتوكل صاحب هذه الرسالة، وصاحب العلم والفضل، ختم حياته على أسوأ وأخزى ما يكون الختام؛ إذ هو لما أتى فرجُ الله وتوحَّدت الأندلس استولت عليه شهوة الملك؛ حتى تحالف مع ألفونسو عدوِّه القديم ضد المسلمين، وما أغنى عنه ذلك شيئًا! إذ لقي جزاء خيانته قتلاً في خاتمةٍ ما كان أحسن به أن يتجنبها!

ثالثًا: جرأة مفاجئة:

بعد أن استطاع ألفونسو إسقاط طُلَيْطِلَة في صفر سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، علا وتجبَّر وتسمى بذي الملتين، وراح يستهين بملوك الطوائف، لا يُفَرِّق بين أحد منهم،

---

(١) لما أجبر أجداده على دفع الجزية، فكان ملك نافار جدُّ ألفونسو السادس قد أرسل ابنته هدية إلى المنصور حتى يأمن جانبه، وهي أمُّ عبد الرحمن بن المنصور الذي انتهت بحُكمه الدولة العامرية.

(٢) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، ص٣٦، ٣٧.

وكانت خطوته التالية بعد طُلَيْطِلَة إخضاع إِشْبِيلِيَة لسلطانه، وكان ألفونسو -كما أوضحنا- قد اعتمد في إرهاق إِشْبِيلِيَة على الجزية والغارات المتواصلة، ولكن حدث أمر قلب موازين الأمور في الأندلس..

أرسل ألفونسو سفارة على رأسها وزير يهودي لأخذ الجزية من المعتمد بن عباد، وكان المعتمد قد تأخَّر عن موعد دفع الجزية لانشغاله بغزو ابن صمادح صاحب ألَمِرِيَّة، فغضب ألفونسو وطلب فوق الجزية أن يتسلم بعض الحصون، ثم بالغ في طلباته فطلب أن تلد امرأته جنينها في مسجد قرطبة، وأن تسكن في الزهراء؛ بحجة أن الأطباء أشاروا عليه بنقاء الهواء في الزهراء، كما أن القساوسة أشاروا عليه بهذا الموضع من الجامع، فرفض المعتمد هذه الطلبات، وإذ باليهودي -وهو مجرد رسول- يردُّ على المعتمد بكلام مهين أمام مجلسه ووزرائه[١].

وكعادة النفوس التي قد بقي بها شيء من عوالق الفطرة السوية، أخذت الغيرة المعتمد على الله، وبنخوة كانت مفقودة قام المعتمد على الله فضرب اليهودي وقطع رأسه وصلبه بقُرْطُبَة، واعتقل بقيَّة الوفد.

جُنَّ جنون ألفونسو السادس، وعلى الفور جمع جيشه وأتى بحدِّه وحديده، يُخَرِّب في أراضي إِشْبِيلِيَة، وبعث سراياه فعاثت في أراضي بَاجَة ولَبْلَة، وأحرق كل القرى حول حصن إِشْبِيلِيَة الكبير، ثم عاث في أراض شَذُونة وانحدر غربًا يُخَرِّب ويحرق، ثم فرض الحصار على إِشْبِيلِيَة[٢].

حصار إشبيلية:

فرض ألفونسو حصاره على إِشْبِيلِيَة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) بعد أن خرب أعمالها

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٧٣، ٧٤.

حرقًا ونهبًا، ثم بعث برسالة للمعتمد بن عباد مع رجل يُسَمَّى البرهانس، وهي رسالة مِلْؤُها الوعيد والانتقام، يقول له فيها:

«من الإمبراطور ذي المِلَّتَيْنِ الملك أذفونش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدَّد الله آراءه، وبصَّره مقاصد الرشاد، قد أبصرتَ تَزَلْزُلَ أقطار طُلَيْطِلَة، وحصارها في سالف هذه السِّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطَّلتم بالدَّعة زمانكم، والحَذِر مَنْ أيقظ بالَهَ قبل الوقوع في الحِبَالة[1]، ولولا عهدٍ سَلَفَ بيننا نحفظ ذِمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلاَّ مَنْ يخاف الفَوْت فيما يرومه، وقد حمَّلنا الرسالة إليك السيد البرهانس، وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يُدَبّر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدقُّ ويجلُّ، وفيما يصلح لا فيما يخلُّ، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك»[2].

فلمَّا قدم الرسول أحضر المعتمد بن عباد أكابر القوم ووزراءه وفقهاءه، فلمَّا قرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البرِّ وقال: قد أُبْصِرنا ببصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة اللَّعين قوَّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التِّلاف تحت ذلِّ الخلاف، وما بقي إلاَّ الرجوع إلى الله والجهاد.

ثمَّ أخذ المعتمد رسالة ألفونسو وكتب عليها: [الكامل]

الــذُّلُّ تَأْبَــاهُ الْكِــرَامُ وَدِينُنَــا ... لَـكَ مَـا نَـدِينُ بِـهِ مِـنَ الْبَأْسَـاءِ

سُمْنَاكَ سِلْمًا مَـا أَرَدْتَ وَبَعْـدَ ذَا ... نَغْزُوكَ فِي الإِصْبَاحِ وَالإِمْسَـاءِ

(١) حِبالة: هي ما يصاد بها من أيّ شيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة حبل ١١/ ١٣٤.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٥، والحلل الموشية، ص٣٨، ٣٩.

اللهُ أَعْلَى مِنْ صَلِيبِكَ فَادَّرِعْ لِكَتِيبَةٍ خَطَبَتْكَ فِي الْهَيْجَاءِ
سَوْدَاءَ غَابَتْ شَمْسُهَا فِي غَيْمِهَا فَجَرَتْ مَدَامِعُهَا بِفَيْضِ دِمَاءِ
مَا بَيْنَنَا إِلاَّ النِّزَالُ وَفِتْنَةٌ قَدَحَتْ زِنَادَ الصَّبْرِ فِي الْغَمَّاءِ[١]
فَلَتَقْدُمَنَّ إِذَا لَقِيتَ أَسِنَّةً زُرْقًا تُرَى بِالْوَجْنَةِ الْوَجْنَاءِ[٢]

ثم قال:

«من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطَّاغية الباغية أدفونش الذي لَقَّب نفسه ملك الملوك، وتسمَّى بذي المِلَّتَيْنِ، سلام على مَنِ اتَّبع الهُدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو المِلَّتَيْنِ والمسلمون أحقُّ بهذا الاسم؛ لأنَّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملَّتكم، وإنَّما كانت سِنَةُ سعدٍ اتَّعظ منها مُناديك، وأغفل عن النَّظر السَّديد جميل مُناديك، فركِبنا مركب عجز يشحذ الكيْس، وعاطيناك كئوس دَعَةٍ، قلت في أثنائها: لَيْس. ولم تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنَّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بِصُنْعٍ وافَقَكَ فيه القَدَر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعدَّ بحربٍ، وكذا وكذا... إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك»[٣].

طاول المعتمد على الله في التحصُّن، وفي محاولة لبثِّ الهزيمة النفسية في قلوب

---

(١) الغمَّاء: الشديدة من شدائد الدهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة غمم ١٢/ ٤٤١، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٦٣.

(٢) الوَجْنَة: ما ارتفع من الخدَّين للشِّدْق والمَحْجِر. والوجناء: تامة الخَلْق غليظة لحم الوَجْنةِ صُلْبة شديدة. ابن منظور: لسان العرب، مادة وجن ١٣/ ٤٤٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٤-٢٦، وانظر: الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، والحلل الموشية ص٣٨-٤٢.

المسلمين والفتِّ في عضدهم أرسل ألفونسو السادس رسالة قبيحة أخرى إلى المعتمد على الله بن عباد يقول فيها: «كثُر بطول مقامي في مجلسي الذِّبَّان[1]، واشتدَّ علي الحرَّ فأتحِفْنِي من قصرك بمروحة أُرَوِّح بها عن نفسي، وأطرد بها الذباب عني ».

يُريد وبكل كبرياء وغرور أن يُخبره أن أكثر ما يُضايقه في هذا الحصار هو الذباب أو البعوض، أمَّا أنت وجيشك وأمتك وحصونك فهي أهون عندي منه.

وبنخوة أخرى أخذ المعتمد على الله بن عباد الرسالةَ وقلبها، وكتب على ظهرها ردًّا وأرسله إلى ألفونسو السادس، ولم يكن هذا الردُّ طويلاً، إنه لا يكاد يتعدَّى السطر الواحد فقط، وما أن قرأه ألفونسو السادس حتى تَمَلَّكَهُ الخوف والرعب والفزع وأخذ جيشه، ورجع من حيث أتى..

لم تكن رسالة المعتمد بن عبّاد إلاَّ قوله: قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللَّمْطِيَّة[2] في أيدي الجيوش المرابطية، تُريح منك لا تروح عليك إن شاء الله[3].

لم يكن أمام المعتمد على الله غير أسلوب التهديد هذا؛ فقط لوَّح بالاستعانة بالمرابطين، وقد كان ألفونسو السادس يعلم جيدًا مَنْ هم المرابطون، فهو مطَّلِع على أحوال العالم الخارجي، فما كان منه إلاَّ أن أخذ جيشه وانصرف وفضَّ حصار إِشْبِيلِيَة.

وهنا أيقن المعتمد فداحة جرمه وخطأه في دفع الجزية للنصارى، وإغارته على ممالك المسلمين، وقد أيقن أنه لا قِبَلَ له بألفونسو إلاَّ بالمرابطين، وقد استنكر عليه

---

(١) الذِّبَّان جمع: ذُباب. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذبب ١/ ٣٨٠.

(٢) اللمطية: نسبة إلى لمطة وهي قبيلة بأرض المغرب الأقصى. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٢٣.

(٣) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٨، وصفة جزيرة الأندلس، ص٨٥، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٨، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٢/ ٣٨.

بعضهم، وقالوا له: المُلْكُ عَقِيمٌ[١]، والسيفان لا يجتمعان في غمد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير[٢].

***

(١) الملك عقيم: مَثَلٌ يراد به أن المُلكَ لو نازعه وَلَدُه مُلْكَه لم يلبث أن يُهلكه، فيصير كأنه عقيم لم يُولد له. العسكري: جمهرة الأمثال ٢/ ٢٤٧، والميداني: مجمع الأمثال ٢/ ٣١١.

(٢) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٥، والحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٣٨.

الفصل الخامس

سقوط طليطلة

كـان نتيجة زلـزال عصر الطوائـف هـو سـقوط طليطلـة، ففـي سـنة (٤٧٨هـ= ١٠٨٥م) سـقطت طُلَيْطِلَـة، هـذا الثغـر الإسـلامي الأعـلى في بـلاد الأنـدلس، تلـك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة للقوط قبل دخول المسـلمين في عهـد موسـى بـن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله.

طُلَيْطِلَة التي فتحها طارق بن زياد بستة آلاف؛ فتحها بالرعب قبل مسيرة شـهر منها.

طُلَيْطِلَـة الثغـر الـذي كـان يستقبل فيـه عبـد الـرحمن النـاصر الجزيـة مـن بـلاد النصـارى، ومنـه كـان ينطلـق هـو ومَـنْ تبعـه مـن الحكّـام الأتقيـاء لفـتح بلادهـم في الشمال.

طُلَيْطِلَة المدينة العظيمـة الحصينة، التـي تحوطهـا الجبـال مـن كـل النـواحي عـدا الناحية الجنوبية.

قصة سقوط طليطلة:

تعرَّضت مدينـة طُلَيْطِلَـة لهجـمات كثـيرة مـن النصـارى في عهـد فرنانـدو الأول وابنه ألفونسو السـادس، هـذا إضـافة إلى غـارات ملـوك الطوائـف المجـاورة لهـا إثـر النزاعات المتبادلة بينهم، وكان النصارى على علم بأن طُلَيْطِلَة واسطة العِقد في بـلاد

الأندلس، فلو سقطت فمِنَ المؤكَّد أن تسقط قُرْطُبَة وبَطَلْيُوس وغَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة وهكذا تباعًا.

أولاً: سذاجة المأمون بن ذي النون:

تُرى لو يعلم المأمون بن ذي النون أن ألفونسو هو مَنْ سيُسقط طُلَيْطِلَة، هل كان سيُحسن ضيافته؟!

إنها لسذاجة حقًّا من المأمون، فألفونسو الذي هرب من حرب أهلية مع أخيه سانشو، وأحسن المأمون ضيافته تسعة أشهر كاملة.. وأخذ عليه عهده أن يحفظ طُلَيْطِلَة له ولأبنائه.. وقَبِلَ ألفونسو، وكأنه استخفَّ بعقل ذلك الرجل!

المأمون بن ذي النون يستضيف ابن فرناندو الذي أثقل كاهله وكاهل المسلمين بالجزية والغارات والإتاوات، الآن يستقبل ابنه الذي عمّا قليل سيُسقط طُلَيْطِلَة!

يبدو أن ألفونسو كان أكبر ذكاءً من المأمون؛ إذ كان ألفونسو يتريَّض في جنبات طُلَيْطِلَة ويأكل من خيراتها، ويُخَالِط أهلها، ويعرف كمائنها ونقاط قوَّتها وضعفها، ويتأمل أسوارها، لقد جعل ألفونسو حياته في طُلَيْطِلَة من منفى إلى مهمة استخباراتية سيحتاج إليها بعد حين.

وما هي إلاَّ أشهر قليلة وأصبح ألفونسو ملكًا على قشتالة سنة ١٠٧٢م، وأخذ يُعِدُّ عُدَّته لإسقاط طُلَيْطِلَة.

ثانيًا: فساد القادر بن ذي النون:

مات المأمون بقُرْطُبَة وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وتلقَّب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سيئ الرأي، فاسد الخُلُق، أحاط نفسه ببطانة سوء، فتحكَّمَت فيه نساء القصر، وسار وراء هوى الغانيات والمغنيات، وما لبثت هذه البطانة السيئة حتى أوغروا صدره

على وزيره الرجل القوي ابن الحديدي، الذي قتله في أوائل ذي الحجة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م)[1].

وما لبث القادر أن جنى عاقبة فساده واعتماده على بطانة السوء، وانهالت عليه الثورات والهموم من كل جانب؛ فالمقتدر بن هود صاحب سَرَقُسْطَة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِيَة أعلن الثورة والاستقلال، والنصارى من ناحية ثالثة يُغيرون على أعمال مملكته، وكادت قونقة أن ينتزعها منه سانشو راميرو ملك أراجون، لولا أنه افتداها بمبلغ كبير من المال، وحاول القادر أن يجد عونًا ونصيرًا له أمام تلك المتاعب والهموم، فالتجأ إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، يطلب مساعدته، وبالطبع وافق ألفونسو، ولكن في مقابل ماذا؟!

وافق ألفونسو في مقابل أن يتنازل له القادر بن ذي النون عن بعض الحصون القريبة من الحدود، وقد تَسَلَّم منها بالفعل حصون سرية وفتورية وقنالش، كل ذلك إضافة إلى الأموال الباهظة التي اشترطها عليه، والتي يعجز عنه القادر، إلا أنه وافق لحاجته إليه!

ثالثًا: ثورة أهل طليطلة:

في خضمِّ كل هذه الأحداث كان المتآمرون داخل طُلَيْطِلَة يُمَهِّدُون لثورة انقلابية على القادر وأعوانه، وأمام هذه التنازلات المخزية من القادر، واستشراء الفساد في طُلَيْطِلَة اندلعت ضده الثورة الداخلية ونادت بالإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طُلَيْطِلَة إلى حصن وَبْذَة، وأصبح أهل طُلَيْطِلَة بلا أمير ولا حكومة ولا نظام، فاستقدموا المتوكل بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ=١٠٧٩م).

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٥٠-١٥٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٩، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٧.

رابعًا: ألفونسو يعيد القادر على حراب الصليبيين:

انتقل القادر بن ذي النون من ملجئه في وَبْذَة إلى مدينة قونقة، وأرسل إلى ألفونسو يطلب مساعدته، ويُذَكِّره بسالف الودِّ بينه وبين جدِّه المأمون وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثته، فاستجاب له ألفونسو، وسار معه في سرية من جنوده، فهي فرصة سانحة لألفونسو أن يبسط سلطانه على القادر، إلى أن تحين الفرصة ويبسط سلطانه على المدينة كلها، فعاد القادر مرَّة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوَّات النصارى طُلَيْطِلَة، مما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ من أسلاب القادر ما شاء؛ من أثاث وفراش وآنية، وسلاح وكتب وغيرها، وبعث بها إلى بَطَلْيُوس، ونجحت قوَّات ألفونسو في الدخول إلى طُلَيْطِلَة وإعادة القادر إليها بعد عشرة أشهر من خروجه منها، ودخل القادر طُلَيْطِلَة في حمى النصارى وجنودهم، ويقال: إن ألفونسو حاصر طُلَيْطِلَة والمتوكل بداخلها، واضطر المتوكل أن يغادرها بالفرار، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (٤٧٣هـ=١٠٨٠م)[١].

خامسًا: ألفونسو يحاصر طليطلة:

الواقع أن ألفونسو كان قد أعدَّ عُدَّتَه للقضاء على طُلَيْطِلَة، ووضع خطته العسكرية التي تُمَهِّد لمشروعه الواسع بالسيطرة على ممالك الطوائف كلها، وكان المعتمد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة لَمَّا رأى من استفحال أمر ألفونسو وقوَّته فكر كيف يصنع؛ وبدلاً من أن يسلك مسلك الشرفاء الأعزاء فيُساند طُلَيْطِلَة، أو يسارع فيُكَوِّن حلفًا من ملوك المسلمين، إذا به يخشى على نفسه من أن ينساب تيار الغزو القشتالي إلى مملكته، فرأى أن يعقد مهادنة وصلحًا مع ألفونسو يأمن بها على أراضيه، فبعث وزيره ابن عمار ليتفاوض مع ألفونسو، وتمت المعاهدة والاتفاق على ما يلي:

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٦٣، ١٦٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٨.

- يُؤَدِّي المعتمد للملك القشتالي الجزية سنويًّا.
- يُسمح للمعتمد بغزو أراضي طُلَيْطِلَة الجنوبية على أن يُسَلِّمَ منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي سيرامورينا (جبال الشارات).
- لا يعترض المعتمد على مشروع ألفونسو القاضي بالاستيلاء على طُلَيْطِلَة.

وهكذا ضحَّى المعتمد بمعقل إسلامي مهمٍّ؛ لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ سياسي جسيم يُضاف إلى أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أُمَّته ودينه(١).

وفي شوال (٤٧٤هـ=١٠٨٢م) ضرب ألفونسو الحصار على طُلَيْطِلَة، وشدَّد غاراته عليها، وظلَّ على ذلك أربع سنوات كاملة؛ يُخَرِّب في الزروع والأراضي والقرى، وعاش الناس في ضيق وكرب، وليس بين المسلمين مُجِير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وفي الوقت الذي تُحاصَر فيه طُلَيْطِلَة كان ملوك الطوائف يُقَدِّمُون ميثاق الولاء والمحبَّة له؛ أي: الجزية والإتاوة، ولم يجرؤ أحد منهم على الاعتراض عليه في ذلك إلاَّ المتوكل بن الأفطس الذي أُخْرِج من طُلَيْطِلَة قبل قليل، وفي الوقت نفسه الذي تُحاصَر فيه طُلَيْطِلَة نجد أن ممالك الطوائف الأخرى تتنازع فيما بينها، أو تَرُدُّ غارات النصارى المتواصلة عليها.

سادسًا: وسقطت طليطلة:

هكذا أضحت طُلَيْطِلَة وحيدة بلا مأوى!

وهكذا أضحت طُلَيْطِلَة تنتظر ساعة الحسرة والسقوط.

---

(١) طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٤٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٩.

وهكـذا تُركـت طُلَيْطِلَـة المدينـة المنكوبـة لمصـيرها، وفي خريـف سـنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) اقترب ألفونسو من المدينة، وأحكم الحصار بشدَّة، وضاق الناس ذرعًا، وكان موقف القادر مريبًا، وكأنَّ هناك اتفاقًا بينه وبين النصارى! وحاول أهل المدينة أن يُطيلوا انتظارهم عسى نجدة من المسلمين تنجدهم، ولكن ليس بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت مجير!

ولما طال الحصار واستحكم على المسلمين وضاق بهم، أرسلوا جماعة من زعمائهم إلى ألفونسو تتحدث عن الصلح والمهادنة، فما كان من ألفونسو إلا أن أهانهم، وسخر منهم واستدعى سفراء ملوك الطوائف، وقد كانوا جميعًا يومئذ لديه يخطبون ودَّه، ويُقَدِّمُون إليه الأموال، وهكذا خرج زعماء طُلَيْطِلَة وقد فقدوا أملهم، عادوا خائبين، وأيقنوا سوء المصير[1].

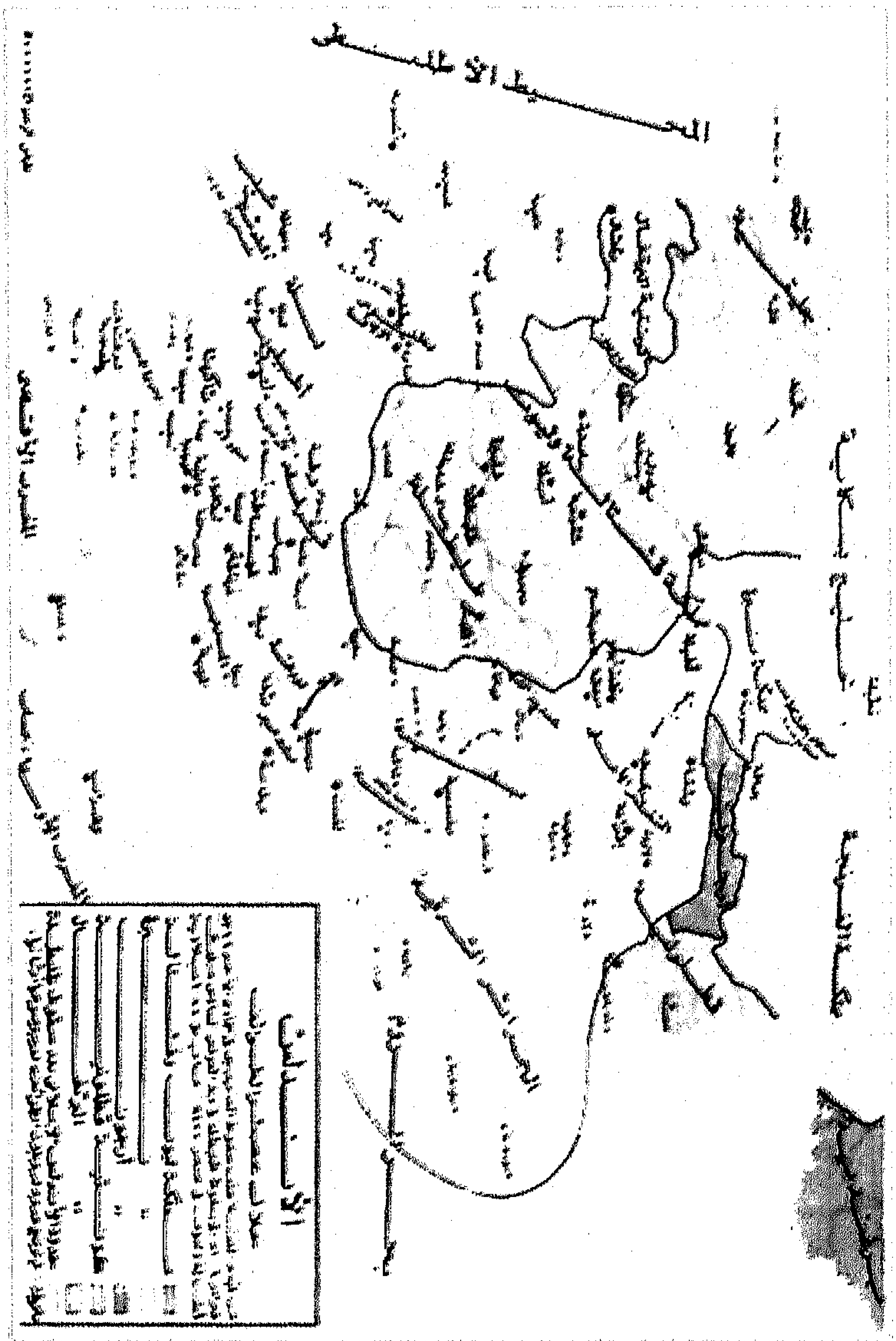
مضى على الحصار إلى الآن تسعة أشهر، وتحطَّمت كل الآمال المرجوَّة في الصلح والهدنة، وهكذا عرضت المدينة التسليم، بعد أن عجزت عن المقاومة، وبعد أن سَلَّمها ملوك الطوائف ثمنًا لدينهم، وشرفهم وعزَّتهم!

وكان من ضمن شروط التسليم:

- أن يُؤَمَّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم.
- أن يُغادرها مَنْ يشاء حاملاً أمواله، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أموله.
- أن يُؤَدُّوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يُؤَدُّونَه لملوكهم من المكوس والضرائب.
- أن يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتَّعوا بالحرية التامَّة في إقامة شعائرهم وشريعتهم.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٦٥-١٦٧، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١١٢، ١١٣.



خريطة رقم (١٢) سقوط طليطلة

- تسليم سائر القلاع والحصون.

وأما بالنسبة للقادر بن ذي النون:

يمكِّنه ملك قشتالة من الاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وبالتالي تخضع له القواعد الشرقية كلها[١].

وكانت هذه العلاقة المشئومة بين القادر بن ذي النون وألفونسو السادس ملك قشتالة سببًا في سقوط طُلَيْطِلَة، وخروج القادر المنكود منها ذليلاً هو وأهله، وما أبلغ تعبير ابن بسام في وصف حال القادر عند خروجه! إذ يقول: «وخرج ابن ذي النون خائبًا مما تمنَّاه، شرقًا بعقبى ما جناهُ، والأرض تَضِجُّ من مُقامه، وتستأذنُ في انتقامه، والسماء تودُّ لو لم تُطْلِعْ نَجْمًا إلاَّ كدَرَتْهُ عليه حَتْفًا مبيدًا، ولم تُنْشِئ عارضًا إلا مَطَرَتْهُ عذابًا فيه شديدًا، واستقرَّ بمحَلَّة أذفنوش (ألفونسو) مخفورَ الذِّمَّة، مُذَالَ الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونَ حُرمِه سِترٌ ولا حجاب، حدَّثني مَنْ رآه يومئذ بتلك الحال وبيده أصطرلابٌ؛ يرصدُ فيه أيّ وقت يَرْحَل، وعلى أي شيء يعوِّل، وأيّ سبيلٍ يتمثَّل، وقد أطافَ به النصارى والمسلمون، أولئكَ يضحكونَ من فِعله، وهؤلاء يتعجَّبونَ من جهله»[٢].

وما أبلغ شماتة ابن الخطيب في القادر وأهله عندما قال: «والطاغيةُ بين يديه يَتَبَخْبَح[٣] بيده عنده، واستقرَّ بها شرَّ استقرار، واقتضاه الطاغيةُ الوَعْد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستُؤصلت الرِّمَم، ونُفِّذ عقابُ الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومُتَعَوِّدي العقوق، ومُقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمَثَل

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١١٣، ١١٤.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٥٦-١٦٩.

(٣) التَّبَخْبُح: التمكن في الحلول والمُقامِ والنفقة. ابن منظور: لسان العرب، مادة بحح ٢/ ٤٠٦، والمعجم الوسيط ١/ ٣٩.

السائر في الآفاق»[١].

وفي صفر (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) دخل ألفونسو السادس ملك قشتالة طُلَيْطِلَة، وهكذا سقطت طُلَيْطِلَة وخرجت من قبضة الإسلام، وغدت عاصمة للنصرانية، وحاضرة لمملكة قشتالة، التي يتربَّع على عرشها ألفونسو السادس.

وبسقوط طُلَيْطِلَة اهتزَّ العالم الإسلامي في الشرق والغرب، يُصَوِّره الشاعر ابن عسَّال بقوله: [البسيط]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ... فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ
الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ بَوَائِقَهُ ... كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطٍ[٢]

وهي صورة عجيبة ينقلها ذلك الشاعر (إعلام ذلك الوقت) المحبَّط، حتى كأنَّه يدعو أهل الأندلس جميعًا بكل طوائفه ودويلاته إلى الهجرة والرحيل إلى بلاد أخرى غير الأندلس؛ لأن الأصل الآن هو الرحيل، أما الدفاع أو مجرَّد البقاء فهو ضرب من الباطل أو هو (الغلط) بعينه، ولقد سانده وعضَّد موقفه هذا أن من الطبيعي إذا ما انسلَّت حبة من العِقد -مثلاً- فإن الباقي لا محالة مفروط، فما الحال إذا كان الذي انسلَّ من العِقد هو أوسطه (طُلَيْطِلَة) أوسط بلاد الأندلس، فذاك أمر ليس بالهزل، بل وكيف يعيشون بجوار هؤلاء (الحيَّات) إن هم رضوا لهم بالبقاء؟! فما من طريق إلا الفرار وشدّ الرِّحَال.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨١.
(٢) الصفدي: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨، والمقري: نفح الطيب ٤/ ٣٥٢. والسَّفَط: وعاء يوضع فيه الطيب. المعجم الوسيط ١/ ٤٣٣.

سابعًا: استدعاء المرابطين:

وعلى إثر سقوط طُلَيْطِلَة، بدأ ألفونسو يُعِدُّ عُدَّته، ويتجهَّز للهجوم على الممالك الأخرى، لا سيما إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس وسَرَقُسْطَة وما حولها، وبدأ ألفونسو يستخدم سياسة الاستهزاء والاستهتار بزعماء الأندلس، وتسمَّى بذي الملتين، وتطوَّر الأمر أن حاصر إِشْبِيلِيَة على نحو ما ذكرنا، حتى كان ما كان من فكرة الاستنجاد بالمرابطين.

إلاَّ أن ما يدلُّك على فساد الحكام في ذلك الوقت هو أن بعضهم رفض فكرة المعتمد، وراسله في أن يعود عن قرار الاستنجاد بالمرابطين، وخوَّفوه من أن نزول المرابطين إلى الجزيرة قد يُغريهم بحكمها بأنفسهم، وحقًّا إن شهوة الملك هذه تُذهب الدين والعقل والمروءة وسائر الصفات الكريمة، فما أكثر الحسرات التي يعانيها القارئ في تاريخ الأندلس وهو يقرأ أخبار هذه الفئة التي سكنتها شهوة الحكم الصوري الضعيف الهش، الذي لا يتماسك أمام العدوِّ، ولا يتوسَّع إلاَّ على حساب دماء المسلمين، ويرضى بالذلِّ ودفع الجزية، ويسكت عن إخوانه المحاصرين والمقتولين، ولا يُبصر أن الدور سيأتي عليه، فلا يرضى حتى بالنجدة تعبر إليه لاحتمال أن تحوز الملك دونه! أيُّ فسادٍ في الدين هذا، بل في العقل، بل في الفطرة السوية؟!

إلاَّ أن الله ألهم المعتمد بهذه العزيمة والإصرار، وقال كلمته الخالدة التي صارت مثلاً: «رَعْيُ الجمال خير من رَعْيِ الخنازير». ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزَّقًا للأذفونش أسيرًا له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعُذَّاله ولوَّامه: يا قوم؛ إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شكٍّ، ولا بُدَّ لي من إحداهما، أما حالة الشكِّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا

يفعل، فهذه حالة شكٍّ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشكِّ فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يُرضي الله وآتي ما يُسخطه؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه»[1].

والحق أن المعتمد -أيضًا- لم يترك من حسنات في سيرته إلاَّ هذه الخطوة، ثم جهاده وصبره في معركة الزلاقة الذي سيأتي بيانه، أما قبل هذا القرار وبعده فهو ليس إلا واحدًا من ملوك الطوائف، سكنته شهوة السلطان؛ حتى أذهبت عنه كل أثر من عقل أو فضيلة، وسنراه كيف سيقاتل المسلمين المرابطين بما لم يفعل مثله مع النصارى.

ولكن لا نسبق الأحداث؛ فأمام الحالة الإيمانية والجهادية العالية التي كان عليها المعتمد بن عباد تحرَّكت النخوة في قلوب الأمراء الآخرين، فقام المتوكِّل بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس وعبد الله بن بلقين صاحب غَرْنَاطَة، فوافقوا المعتمد بن عباد في رأيه، وبذلك اجتمعت الحواضر الكبرى في الأندلس على استدعاء المرابطين، وتقدَّمت الوفود تلو الوفود إلى المغرب العربي؛ يقول الحميري: «وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يَفِدُ عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقُّ نفسه لهم»[2].

فمن هم المرابطون؟ وما صفاتهم؟ ومن يكون يوسف بن تاشفين؟

هذا حديثنا في الباب القادم إن شاء الله.

* * *

---

(١) المقري: نفح الطيب ٤/ ٣٥٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٢٨٨، ٢٨٩.

الباب السابع
عصر المرابطين

في بداية عهد جديد من عهود الأندلس ودورة أخرى من دورات التاريخ بعد هذا الضعف وذاك السقوط، كانت رسالة المعتمد على الله إلى ألفونسو السادس - التي أثارت الرعب والفزع في قلبه بمجرَّد أن قرأها، فأخذ جيشه وعاد إلى قشتالة - كانت تلك الرسالة هي مهد ذلك العهد وبداية تلك الدورة الجديدة.

تُرى مَنْ هم المرابطون؟ إنهم أبطال مجاهدون، لا يهابون الموت، أقاموا دولة إسلامية امتلكت كل مقوماتِ القوَّة، تربَّعت على المغرب العربي وما تحته.

الفصل الأول

نظرة على تاريخ المغرب

قبيلة جُدالة وأصل المرابطين:

في أعماق صحراء موريتانيا، وبالتحديد في الجنوب القاحل، حيث الصحراء الممتدَّة، والجدب المقفر، والحرُّ الشديد، وحيث أناس لا يُتْقِنُون الزراعة ويعيشون على البداوة.. في هذه المناطق كانت تعيش إحدى القبائل الأمازيغية (البربرية) الكبيرة، والتي تُدْعَى قبيلة صنهاجة، كانت هذه القبائل مجوسية تعيش في الصحراء بعيدًا عن أي عمران؛ حتى إن الرجل منهم ربما يُعَمَّر دهرًا طويلاً ويموت دون أن يرى في حياته خبزًا، فضلاً عن أن يتذوَّقه، وظلُّوا هكذا حتى انتشر فيهم الإسلام في القرن الثالث الهجري.

ومع ابتعادهم في أعماق الصحراء في أقصى المغرب فقد استمروا على جهالتهم وبداوتهم فكأن لم يعرفوا الإسلام وتعاليمه وكأنه لم يدخل بلادهم، ثم اجتمعوا كلهم حول مَلِك واحد، ثم مات ملكهم وخلفه حفيده، ثم ابن حفيده الذي ثار عليه الصنهاجيون فقتلوه، واختلف أمرهم، وصاروا طوائف عديدة، ثم اجتمعوا بعد فترة أخرى حول ملك آخر كان من لمتونة (وهي قبيلة كبيرة من صنهاجة)، واسمه ابن تيفاون اللمتوني.

غير أنه لم يُعَمَّر طويلاً، فقد مات في إحدى المعارك، فخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي كان من قبيلة جدالة (وتنطق الجيم مثل الكاف الفارسية أو الجيم القاهرية)، التي هي -أيضًا- قبيلة كبيرة من صنهاجة مثلها مثل لمتونة، فصار

يحيى بن إبراهيم رئيس صنهاجة.

ومن أَعْجَبُ ما يرويه المؤرخون عن الجهل التام بتعاليم الإسلام ذلك الذي ساد الناس في هذا الزمن، أن يُخرج «أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام، فتأتي البنت حاملاً من أخيها، فلا يُنكرون ذلك، وكان من دأبهم الإغارة بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا»[1]، وانتشر بينهم الزنا، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره[2]. وكان الرجل منهم يتزوج ما يشاء من النساء بلا عدد؛ حتى إن يحيى هذا -رئيسهم- كان متزوِّجًا من تسع نسوة، فهم لا يعرفون من الإسلام لا صلاة ولا زكاة ولا شرائع، اللهم إلا الشهادتين فحسب[3].

لقد كانت هذه الأوضاع أشد وطأةً مما نحن عليه الآن، فلننظر كيف يكون القيام، ولنتدبَّر تلك الخطوات المنظَّمة التي سار أصحابها وَفق منهج رسول الله ﷺ في بناء الدولة وإصلاح أحوال الأُمَّة.

يحيى بن إبراهيم يحمل هَمَّ المسلمين:

أراد يحيى الجدالي أن يحج، وكان الحج في هذا الزمان يعني -أيضًا- رحلة في طلب العلم، فاستخلف ابنه إبراهيم وسار إلى الشرق، وفي طريق عودته ذهب إلى القيروان، وقابل هناك أبا عمران موسى بن عيسى الفاسي، وهو شيخ المالكية في مدينة القيروان، وكان المذهب المالكي هو المنتشر في بلاد الشمال الإفريقي وإلى عصرنا الحاضر، كما كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس آنذاك، قابل يحيى بنُ إبراهيم أبا عمران الفاسي، ذلك العالم الكبير الذي يقول عنه الحميدي: فقيه القيروان، إمام في وقته، دخل الأندلس، وله رحلة إلى المشرق وصل فيها إلى العراق،

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣١/ ٨٢.
(٢) علي الصلابي: دولة المرابطين، ص١٥.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٢٤.

وسمع بالقيروان وبمصر وبمكة وكان مكثرًا عالمًا[١]. كما وصفه الحميري في الروض المعطار بالفقيه الإمام المشهور بالعِلْم والصلاح[٢].

ونقل ابن فرحون صاحب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي) أنه كان من أحفظ الناس وأعلمهم؛ جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي ﷺ، ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبع ويُجَوِّده، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم، أخذ عنه الناس من أقطار المغرب والأندلس، واستجازه مَنْ لم يَلْقَه، وله كتاب التعليق على المدونة، كتابٌ جليل لم يُكْمَل، وغير ذلك[٣].

لا نشكُّ في أن يحيى سمع من الفقيه أبي عمران ما أدهشه وأيقظه، وعرَّفه بأن قومه يعيشون في جاهلية كبرى، ولا نشكُّ كذلك في أن يحيى -وهو الزعيم الحريص على أهله وقومه- حمل الهم الكبير لما اكتشفه من حقيقة الحال، وما هو إلا أن أخبر يحيى شيخه أبا عمران بأنه من قوم لا يعرفون شيئًا عن أمور دينهم، فعامَّة الناس لا يعرفون إلاَّ الشهادتين، وقليل من الخاصة مَنْ يُصَلُّون، وأنَّ لا علم لهم من العلوم ولا مذهب لهم من المذاهب؛ لأنهم منقطعون في الصحراء، لا يذهب إليهم إلاَّ بعض التجار الجهَّال، وأن فيهم أقوامًا يرغبون في تَعَلُّم العلم، والتفقُّه في الدين، لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فاختبره الفقيه حتى تأكد من حقيقة هذه الفاجعة[٤].

فعرض الفقيه ذلك على طلابه فأَبَوْا، فأرسله إلى أحد فقهاء بلاد المغرب ويُدعى وجاج بن زلو اللمطي، وكان من طلابه، وكان قد تَفَقَّه وجلس للتدريس، فرحل إليه يحيى الجدالي، فأرسل معه الفقيه وجاج واحدًا من ألمع وأذكى تلاميذه وهو عبد الله بن ياسين.

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ١/ ٣٣٨، باختصار.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٤٣٥.
(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب، ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٢ وما بعدها.

الفصل الثاني

عبد الله بن ياسين وتأسيس دعوة المرابطين

تُرى مَنْ هو هذا الشيخ؟!

كان عبد الله بن ياسين - الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، (ت٤٥١هـ=١٠٥٩م)- من فقهاء المالكية.

كان من حُذَّاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء، من أهل الدين والفضل، والتقى والورع والفقه، والأدب والسياسة، مشاركًا في العلوم[1]، قال الذهبي: «كان عالمًا قوي النفس، ذا رأي وتدبير»[2]. أي ذا شخصية قوية له علم وبصر بالأمور وله قدرة على حسن التصرف. وها هو ذا يَقبل القيام بهذه المهمَّة الكبيرة، التي أحجم عنها أقرانه من تلاميذ الفقيه وجاج، وفضَّل أن يُغَوِّر في الصحراء.

عبد الله بن ياسين ومهمَّة الأنبياء:

اتَّجه الشيخ عبد الله بن ياسين صَوْب الصحراء الكبرى، مخترقًا جنوب الجزائر وشمال موريتانيا حتى وصل إلى الجنوب منها، حيث قبيلة جُدَالة، وحيث الأرض المجدِبة والحرُّ الشديد، وفي أناةٍ شديدة، وبعدما هالَه أمر الناس في ارتكاب المنكرات أمام بعضهم البعض، ولا يُنْكِر عليهم مُنْكِر، بدأ يُعَلِّم الناسَ؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكان الناس في جهل مطبق يصفه القاضي عياض

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١/ ٨٠.

رحمه الله بقوله: كان الدين عندهم قليلاً، وأكثرهم جاهلية، ليس عند أكثرهم غير الشهادتين، ولا يعرف من وظائف الإسلام سواهما[1].

ولكن ثار عليه زعماء القوم وأصحاب المصالح، فهم أكبر مستفيد مما يحدث، فبدأ الناس يجادلونه ويصدُّونه عمَّا يفعل، ولم يستطع يحيى بن إبراهيم الجُدالي زعيم القبيلة أن يحميه.

لم يقنط الشيخ عبد الله بن ياسين، وحاول المرَّة تلو المرَّة، فضربوه وأهانوه، ثم هَدَّدُوه بالطرد من البلاد أو القتل، إلا أن موقف الشيخ لم يَزْدَدْ إلاَّ صلابة، ومرَّت الأيام وهو يدعو ويدعو، حتى طردوه بالفعل، ولسانُ حالهم: دعك عنا، اتركنا وشأننا، ارجع إلى قومك فعَلِّمهم بدلاً منا، دع هذه البلاد تعيش كما تعيش فليس هذا من شأنك. وكأني أراه رأي العين وهو يقف خارج حدود القبيلة وبعد أن طرده الناس، تنحدر دموعه على خدِّه، ويقول مشفقًا على قومه: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

يُريد أن يُغَيِّر ولا يستطيع، أنْفُسٌ تتفلَّتُ منه إلى طريق الغواية والانحراف عن النهج القويم، ولا سبيل إلى تقويمها، حزَّ في نفسه أن يُولَد الناس في هذه البلاد فلا يجدون مَنْ يُعَلِّمهم ويُرْشِدهم، فأراد أن يبقى، ولكن كيف يبقى؟ أيدخل جُدَالة من جديد؟ إذًا سيقتلونه، فلو كان في مقتله صلاح لهم فأهلاً بالموت، لكن هيهات ثم هيهات!

عبد الله بن ياسين ونواة دولة المرابطين:

جلس رحمه الله يُفكِّر ويمعن النظر، فهداه ربُّه عز وجل، فما كان منه إلاَّ أن تعمَّق في الصحراء ناحية الجنوب بعيدًا في أعماق القارة الإفريقية، حتى وصل إلى جزيرة

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٢/ ٦٤.

يُرَجَّح أنها تقع في منحنى نهر (النيجر)، على مقربة من مدينة تنبكتو، فمن هنا بدأ أمر المرابطين[١]، يصف ابن خلدون هذه الجزيرة بقوله: «يحيط بها النيل[٢]، ضَحْضَاحًا[٣] في الصيف، يخاض بالأقدام، وغمرًا[٤] في الشتاء يُعْبَر بالزوارق»[٥].

صنع عبد الله بن ياسين خيمة بسيطة، وكان من الطبيعي أن يكون في جُدَالة بعض الناس- وخاصَّة من الشباب- الذين تحرَّكت قلوبهم وفطرتهم السويَّة لهذا الدين، فحين علموا خبر شيخهم في مقرِّه البعيد هذا، نزلوا إليه من جنوب موريتانيا ولم يتجاوز عددهم في بادئ الأمر سبعة نفر من جدالة، على رأسهم الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[٦]، الذي ترك قومه ومكانته فيهم ونزل مع الفقيه، وتضيف بعض المصادر أن معهم اثنين من كبار قبيلة لمتونة؛ هم: يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر[٧]!

وفي خيمته وبصبر وأناة شديدين أخذ الشيخ عبد الله بن ياسين يُعَلِّمهم الإسلام كما أنزله الله ﷻ على نبيِّه محمد ﷺ، وكيف أنَّ الإسلام نظام شامل متكامل، يُنَظِّم كل أمور الحياة.

بداية المرابطين، وتربية على منهج الرسول الكريم ﷺ:

مع كثرة الخيام وازدياد العدد إلى الخمسين، فالمائة، فالمائة وخمسين، فالمائتين،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٠٢.
(٢) المقصود هنا فرع من نهر النيجر، ولا علاقة له بالنيل الذي في مصر والسودان، وقد كان يُعرف هذا النهر في ذلك الوقت باسم النيل.
(٣) الضحضاح: الماء القليل وقريب القعر يكون في الغدير وغيره. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الضاد ١/ ٣٨٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة ضحح ٢/ ٥٢٤، والمعجم الوسيط ١/ ٥٣٤.
(٤) الغَمْر: الماء الكثير الذي يعلو ويغطي الأماكن. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الغين ٢/ ٧٧٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة غمر ٥/ ٢٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٦١.
(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٣
(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٢٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨.
(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٣.

أصبح من الصعب على الشيخ توصيل علمه إلى الجميع، فقسَّمهم إلى مجموعات صغيرة، وجعل على كلٍّ منها واحدًا من النابغين، وهو منهج رسول الله ﷺ حين كان يجلس ﷺ مع صحابته في مكة يُعَلِّمهم الإسلام، وفي بيعة العقبة الثانية حين قسم الاثنين والسبعين رجلاً من أهل المدينة المنورة إلى اثني عشر قسمًا، وجعل على كل قسم (خمسة نفر) منهم نقيبًا عليهم، ثم أرسلهم مرَّة أخرى إلى المدينة المنورة حتى قامت للمسلمين دولتهم.

وهكذا -أيضًا- كان منهج الشيخ عبد الله بن ياسين، حتى بلغ العدد في سنة (٤٤٠هـ=١٠٤٨م)، بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوحه إلى الجزيرة إلى ألف نفس مسلمة، ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

فبعد أن طُرِد الرجل وأُوذي في الله وضُرِب وهُدِّد بالقتل، إذا به ينزل بمفرده إلى أعماق الصحراء حتى شمال السنغال وحيدًا طريدًا شريدًا، ثم في زمن لم يتعدَّى أربع سنوات يتخرَّج من تحت يديه ألف رجل على أفضل ما يكون من فهم الإسلام وفقه الواقع.

يروي ابن أبي زرع فيصف هذه المرحلة من حياة المرابطين بقوله: «فدخلاها (الجزيرة) ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، فابتنيا بها رابطة، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بأخبارهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الوارد عليهم والتوابون، فأخذ عبد الله بن ياسين يُقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويُرَغِّبهم في ثواب الله تعالى، ويُحَذِّرهم أليم عذابه، حتى تمكَّن حُبُّه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ هو يُعَلِّمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة، وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبًا، فوعظهم وشَوَّقهم إلى الجنة، وخَوَّفهم

من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى جهاد مَنْ خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم: يا معشر المرابطين؛ إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده. فقالوا: أيها الشيخ المبارك؛ مُرْنَا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا. فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخَوِّفُوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أَبَوْا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين. فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وخَوَّفهم عقاب الله، فأقام يُحَذِّرهم سبعة أيام وهمْ في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فسادًا، فلمَّا يئس منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى»[1].

معنى المرابطين:

أصل كلمة الرباط هي ما تُربط به الدابَّة، ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمَّنْ خلفه رباط، فكان الرباط هو ملازمة الجهاد[2]، وروى البخاري بسنده عن سهل بن سعدٍ الساعديِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٥، وما بعدها، والسلاوي: الاستقصا ٢/ ٨.
(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ربط ٧/ ٣٠٢.

وَمَا عَلَيْهَا...» الحديث[١].

ولأن المرابطين أو المجاهدين كانوا يَتَّخِذُون خيامًا على الثغور يحمون فيها ثغور المسلمين، ويُجاهدون في سبيل الله؛ فقد تَسَمَّى الشيخ عبد الله بن ياسين ومَنْ معه ممن كانوا يُرابطون في خيام على نهر السنغال بجماعة المرابطين، وعُرفوا في التاريخ بهذا الاسم.

كما تُطْلِق عليهم بعض المصادر المُلثَّمِينَ، فيُقال: أمير الملثمين، ودولة الملثمين. ويرجع سببُ هذه التسمية كما يذكر ابن خلّكان في (وفيات الأعيان) إلى أنهم: «قوم يتلثَّمُون ولا يكشفون وجوههم؛ فلذلك سَمَّوْهُم الملثَّمين، وذلك سُنَّة لهم يتوارثونها خلفًا عن سلفٍ، وسبب ذلك على ما قيل: أن (حِمْيَرَ) كانت تتلثَّم لشدَّة الحرِّ والبرد، يفعله الخواصُّ منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامَّتُهم. وقيل: كان سببه أن قومًا من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطرقون الحي، فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زيِّ الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت ملثَّمين في زيِّ النساء، فإذا أتاهم العدوُّ ظنُّوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبرُّكًا بما حصل لهم من الظفر بالعدوِّ»[٢].

وقال ابن الأثير في سبب اللثام: وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدوٍّ لهم، فخالفهم العدوُّ إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاَّ المشايخ والصبيان والنساء، فلمَّا تحقَّق المشايخ أنه العدوّ، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثَّمن ويُضَيِّقْنَه حتى لا يُعْرَفْنَ، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدَّم

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥)، والترمذي (١٦٦٤)، وأحمد (٢٢٩٢٣)، والبيهقي (١٧٦٦٥).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١٢٩.

المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدوُّ؛ رأى جمعًا عظيمًا فظنَّه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجًا عن حريمهم. فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدوُّ بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدوِّ فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سُنَّة يُلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يُزيلونه ليلاً ولا نهارًا، ومما قيل في اللثام: [الكامل]

قَوْمٌ لَهُمْ دَرْكُ الْعُلا فِي حِمْيَرٍ وَإِنِ انْتَمَوْا صِنْهَاجَةً فَهُمُ هُمُ
لَمَّا حَوَوْا إِحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمُ فَتَلَثَّمُوا[1]

إنَّ مَنْ يقرأ عن الشيخ عبد الله بن ياسين والمرابطين الذين كانوا معه قراءة عابرة، يظنُّ أنهم جماعة من الناس اعتزلوا قومهم ليعبدوا الله بعيدًا عن ضوضاء العمران ومشاكل الناس فحسب، ولم يكن الأمر كذلك على الإطلاق؛ بل كان هذا الاعتزال جزءًا من خطة كبيرة، يتمُّ تنفيذها خطوة بعد خطوة، بفهم سليم وعمق في التفكير، ودقَّة في التخطيط، وبراعة في التنفيذ.

عندما وصل عدد المرابطين إلى ألف، بعثهم الشيخ ابن ياسين إلى أقوامهم لينذروهم، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات، واتباع أحكام الدين الصحيح، ففعلوا ما أُمروا به، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ومجانبة التقاليد المنافية للدين، فلم يُصْغِ لهم أحد من أقوامهم، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم، وحذَّرهم عقاب الله، ونصحهم باتباع أحكامه، فلم يلقَ منهم سوى الإعراض والتحدي، فعندئذٍ قرر عبد الله وصحبه

(١) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٣٣١، والبيتان نُسِبَا لأبي محمد بن حامد الكاتب، انظر: السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٤.

إعلان الحرب على أولئك المخالفين[١].

وبالفعل بدءوا يستعدُّون لغزو البلاد والقبائل المحيطة بهم، وأرسلوا يُنذرون ويُعذرون، ثم بدأت غزواتهم بالفعل للقبائل والبلاد، ففتحوا الكثير منها، وأخضعوا القبائل المحيطة بهم، وتسامع بهم فقهاء بعض البلاد الأخرى، فأرسلوا إليهم ليُخَلِّصُوهم من حكامهم الطغاة.

يحيى بن عمر اللمتوني والمرابطون:

استشهد أمير المرابطين يحيى بن إبراهيم الجدالي في إحدى الغزوات المرابطية، والأمير يحيى هو الرجل الذي بدأ به أمر المرابطين، وهو أحد السبعة الذين انعزلوا مع الشيخ ابن ياسين في الرباط بعد أن أُخرج من أراضي جدالة في أول الأمر، فعرض عبد الله بن ياسين الزعامة على جوهر الجدالي ولكن جوهرًا زهد فيها وأعرض عنها، فما كان من عبد الله بن ياسين إلا أن اتخذ قرارًا حكيمًا وبعيد النظر حقًّا، ألا وهو صرف الزعامة إلى يحيى بن عمر اللمتوني[٢]، وقد كان هو وأخوه فقط من قبيلة لمتونة -ثاني القبائل الكبرى في المنطقة- مع السبعة من جدالة، الذين انحازوا إلى الرباط مع الشيخ ابن ياسين في أول الأمر.

وفي الحقيقة نحن لا نستبعد أن يكون الشيخ ابن ياسين قد اتفق مع جوهر الجدالي -زعيم جدالة بعد يحيى- على التنازل عن الرئاسة ليحيى بن عمر اللمتوني؛ لِمَا في تولِّيه الرئاسة على قوم غالبيتهم من جدالة[٣] من معانٍ تربوية تقاوم ترسبات العصبيات القديمة، كذلك لما في هذا من مصلحة الدعوة وجذب اللمتونيين، فلقد

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٢٨.

(٣) سبق أن ذكرنا أن لمتونة وجدالة كانتا القبيلتين القويتين والكبريين في هذه المنطقة من المغرب الأقصى، ويمكن تقريب الصورة لدى القارئ باستحضاره ما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام.

كان يحيى وأبو بكر من زعماء لمتونة، لكنهما تركا هذه الزعامة لِما آمنا به من دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين. ولقد كان لا بُدَّ من عرض الأمر أولاً على جدالي فيتركها لئلاَّ يظن الجداليين ظنًّا سيئًا بالطريقة التي جعلت لمتونيًّا زعيمًا عليهم؛ إن آثار التعصب القبلي والعائلي لا تزول في سنوات قليلة، وكان لا بُدَّ من مراعاتها في مثل هذه القرارات الفارقة، ولقد شهد التاريخ أن الشيخ ابن ياسين قد نجح بالفعل في هذا القرار الفارق، وصار يحيى بن عمر اللمتوني زعيمًا للمرابطين.

كان هذا في سنة (٤٤٥هـ=١٠٥٣م)، وبالفعل وبتأثير من هذا القرار وكذلك بازدياد نطاق الجهاد المرابطي، الذي تساقطت أمامه الإمارات والقبائل الصغيرة والمتناثرة، اتسعت دولة المرابطين ودخل في سلطانها الآلاف من الناس.

وفي مثال لحُسن الختام وبعد قليل من دخول قبيلة لَمْتُونة في جماعة المرابطين يستشهد زعيمهم الشيخ يحيى بن عمر اللمتوني في إحدى غزواتهم سنة (٤٤٧هـ=١٠٥٥م)، ثم يتولَّى من بعده أخوه الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني.

وقد دخل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بحماسة شديدة مع الشيخ عبد الله بن ياسين، وبدأ أمرهم يقوى وأعدادهم تزداد، وبدأ المرابطون يصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التي كانوا فيها في شمال السنغال، فبدءوا يتوسعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جُدَالة، فأصبحت جُدَالة ولَمْتُونة -وهما القبيلتان الموجودتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا- جماعة واحدةً تمثِّل جماعة المرابطين.

ثم تنتهي قصة المؤسس الكبير والاسم الخالد الشيخ عبد الله بن ياسين باستشهاده في حرب برغواطة التي كانت -كما يقول المؤرخون- على غير ملة الإسلام، في سنة (٤٥١هـ=١٠٥٩م) بعد أن أمضى أحد عشر عامًا من تربية الرجال على الجهاد.

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وتأسيس دولة المرابطين

أبو بكر بن عمر اللمتوني (٤٨٠هـ=١٠٨٧م) وزعامة دولة المرابطين

بعد الشيخ عبد الله بن ياسين يتولَّى الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني زعامة جماعة المرابطين، وقد جُمعت له الزعامة الدينية والسياسية، فلقد كان من علماء المرابطين، وفي خلال سنتين من زعامته لهذه الجماعة الناشئة يكون قد ظهر في التاريخ ما يُعرف بدويلة المرابطين، وأرضها آنذاك شمال السنغال وجنوب موريتانيا، وهي بعدُ لا تكاد تُرى على خريطة العالم.

وفي سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) بعد سنتين من تولِّي الشيخ أبي بكر بن عمر اللمتوني زعامة المرابطين، يَسْمَع بخلاف قد نشب بين جدالة ولمتونة وأصبح فتنة، ومن المؤرخين من يقول: إن الفتنة كانت بين مسوفة ولمتونة. فتوجَّه أبو بكر بن عمر اللمتوني بقسم من المرابطين ليحلَّ الخلاف بين المتصارعين هناك، تاركًا زعامة المرابطين لابن عمِّه يوسف بن تاشفين.

وبعد أن استطاع أبو بكر بن عمر اللمتوني أن يحلَّ الخلاف ويطفئ نار الفتنة التي اشتعلت، إذا به يتوجه إلى السودان -وهي المناطق الجنوبية للمغرب العربي- ليدعو أهل هذه المناطق إلى الإسلام، ولقد وجد قبائل وثنية لا تعبد الله بالكلية، وجدها تعبد الأشجار والأصنام وغير ذلك، وجد قبائل لم يصل إليها الإسلام قط.

أقبل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بسبعة الآلاف الذين معه يُعَلِّمُونهم

الإسلام ويُعَرِّفُونهم دين الله، وبصيرٍ شديدٍ ظلَّ أبو بكر بن عمر اللمتوني يدعوهم إلى الإسلام، فدخل منهم جمع كثير وقاومه جمع آخر؛ ذلك أن أهل الباطل المستفيدين من وجود الأصنام لا بُدَّ أن يحافظوا على مصالحهم؛ فالتقى معهم في حروب طويلة.

ظلَّ الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني يتوسَّع في دعوته، ويتنقل من قبيلة إلى قبيلة، وفي سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) وبعد خمس عشرة سنة كاملة من تركه جنوب موريتانيا وهو زعيم على دويلة المرابطين، يعود رحمه الله بعد مهمَّة شاقَّة في سبيل الله عز وجل يدعو إلى الله على بصيرة، فيدخل في دين الله مَنْ يدخل، ويحارب مَنْ صدَّ الناس عن دين الله عز وجل حتى يَرُدَّه إلى الدين، أو يَصُدَّه عن صَدِّه.

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعًا ودينًا، وحبًّا للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحارى القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام، وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتيَّة، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس، وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميِّزة[١].

يوسف بن تاشفين (٤٠٠-٥٠٠هـ= ١٠٠٩-١١٠٦م) ومهام صعبة

يصفه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) فيقول: كان ابن تاشفين كثير العفو، مقرّبًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا، يخطب لخليفة العراق[٢].

---

(١) الصلابي: دولة المرابطين، ص٦٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٢٥٣.

ووصفه ابن الأثير في (الكامل) بقوله: كان حليمًا كريمًا، دَيِّنًا خَيِّرًا، يُحِبُّ أهل العلم والدين، ويحكِّمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدُهم خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبُه لها، وظهر ذلك عليه، وكان يُحِبُّ العفو والصفح عن الذنوب العظام(١).

ولم تكن دولة المرابطين التي تركها الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني في يد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استقرت بعد؛ لذا أوصى أبو بكر خليفته على الدولة بقتال بني يفرن وزناتة ومغراوة؛ وهم القوى الثلاث الرئيسة التي تُناوئ المرابطين(٢).

نظر يوسف بن تاشفين في شمال موريتانيا (المنطقة التي تعلوه) وفي جنوب المغرب العربي فرأى من حال البربر -الذين يعيشون في هذه المنطقة وبالتحديد في سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) - أمورًا عجيبة؛ منها:

أولاً: قبيلة غمارة:

هي من قبائل البربر وقد وُجِد فيها -قبل أكثر من مائة عام من ذلك الوقت- رجلاً يُدعى حاميم بن منِّ الله يَدَّعي النبوة، والغريب أنه لم يُنكر نبوة رسول الله ﷺ بل قال: إنه نبي على دين الإسلام. ثم أخذ يُشرِّع للناس شرعًا جديدًا، وهم يَتَّبِعُونه في ذلك، ويظنُّون أن هذا هو الإسلام(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٩٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٣٢، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢.

(٣) ظهر هذا الرجل- وكان اسمه حاميم- سنة ٣١٣هـ، وأرسل إليه عبد الرحمن الناصر رحمه الله مَنْ قتله سنة (٣١٥هـ)، ويذكر المؤرخون أن أتباعه عادوا إلى الإسلام بعد قتله، على أن ابن خلدون يذكر أن قد تنبَّأ بعده رجل آخر من غمارة، ولم يذكر تاريخ ذلك، وأنهم حتى أيام ابن خلدون كانوا يمارسون السحر، وقد ذكروا الكثير من بدع حاميم هذا.

وقد فرض حاميم بن منٍّ الله على قبيلته صلاتين فقط في اليوم والليلة؛ إحداها في الشروق والأخرى في الغروب، وبدأ يُؤَلِّف لهم قرآنًا بالبربرية، ووضع عنهم الوضوء، ووضع عنهم الطُّهر من الجنابة، كما وضع عنهم فريضة الحج، وحرَّم عليهم أكل بيض الطيور، وأحلَّ لهم أكل أنثى الخنزير، وأيضًا حرَّم أكل السمك حتى يُذبح[١]، وإنه لخلطٌ وسَفه بَيِّنٌ خاصة حين يَدَّعِي أنَّه من المسلمين، كما أنه من العجب أن يَتَّبِعَه الناس على هذا الأمر، ويعتقدون أن هذا هو الإسلام[٢].

قبيلة برغواطة:

هي قبيلة أخرى من قبائل البربر في تلك المنطقة، على رأسها كان رجل يُدعى صالح بن طريف بن شمعون[٣]، وقد ادَّعى -ذلك الذي لم يكن بصالح- النبوة، وفرض على الناس خمس صلوات في الصباح وخمسًا في المساء، وفرض عليهم وضوء المسلمين نفسه، بالإضافة إلى غسل السُّرَّة وغسل الخاصرتين، كما حرم عليهم الزواج من بنات أعمامهم، وجوَّز لهم الزواج بأكثر من أربعة، ومع كل هذا فقد كان يَدَّعي أنه من المسلمين[٤].

وكان الأمير على برغواطة أيام ظهور المرابطين أبا حفص عبد الله من أحفاد صالح بن طريف، وقد بدأ المرابطون بحربهم في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين وقد قُتل الشيخ في حروبهم، فلما مات أوصى المرابطين باستكمال حربهم وبألاَّ يَهِنُوا في حربهم أو يجبنوا، وبمجرَّد أن واراه أبو بكر بن عمر عاد لحرب برغواطة، ولم يتركهم الأمير أبو بكر إلاَّ

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٩٩.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٩٨، ٩٩، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢١٦، والسلاوي: الاستقصا، ١/ ١٤٨، ٢٤٩.
(٣) ظهر صالح بن طريف هذا في أيام هشام بن عبد الملك وادعى النبوة كأبيه، وشمعون هذا ليس هو جده الأدنى، وإنما يقولون: إن أباه كان يهوديًّا من حصن برباط بالأندلس، وأنه من ولد شمعون بن يعقوب ﷺ.
(٤) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٢، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٠٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨.

بعد أن هزمهم شرَّ هزيمة.

قبيلة زناتة:

كانت قبيلة زناتة من القبائل السُّنِّيَّة في المنطقة، وقد تفشَّى فيهم الظلم، فكانوا يسلبون وينهبون مَنْ حولهم، والقوي فيهم يأكل الضعيف، ويجمل حالهم قول السلاوي: «استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كلٌّ بما في يده، وعُدم الوازع، وتصرَّفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم»(١).

وكذلك كانت الحروب قد بدأت بين المرابطين والزناتيين من أيام عبد الله بن ياسين، وقد استطاع المرابطون فرض سيطرتهم على الكثير من مناطق زناتة في عهد عبد الله بن ياسين أيام يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر، وظلَّ أبو بكر على حرب زناتة وبطونها، وفرض سيطرته على أراضيهم بعد موت الشيخ ابن ياسين، وقد أوصى أبو بكر يوسفَ باستكمال حربهم، وألاَّ يتوقَّف عن ذلك.

كان من هذا القبيل الكثير والكثير الذي يكاد يكون قد مرق من الدين بالكلية، وقد كانت هناك قبيلة أخرى تعبد الكبش وتتقرَّب به إلى ربِّ العالمين، وبالتحديد في جنوب المغرب، تلك البلاد التي فتحها عقبة بن نافع ثم موسى بن نصير رضي الله عنهما(٢).

يوسف بن تاشفين وصناعة الدولة

شقَّ ذلك الوضع كثيرًا على يوسف بن تاشفين رحمه الله، فأخذ جيشه -الذي كان قد بلغ أربعين ألفًا(٣)- وانطلق إلى الشمال وحاربته كل القبائل الأخرى في المنطقة، حتى حاربته قبيلة زناتة السُّنِّيَّة، وبمرور الأيام بدأ الناس يَتَعَلَّمُون منه الإسلام،

(١) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٢.
(٢) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٩١، نقلاً عن الصلابي: دولة المرابطين، ص٥٩.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٨

ويدخلون في جماعته المجاهدة[١].

وبعد رجوع الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني في سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) وبعد خمس عشرة سنة من الدعوة - كما ذكرنا - في جنوب السنغال وأدغال إفريقيا، يرى يوسفَ بن تاشفين رحمه الله الذي كان قد تركه على شمال السنغال وجنوب موريتانيا فقط في سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) يراه أميرًا على السنغال بكاملها، وموريتانيا بكاملها، والمغرب بكاملها، والجزائر بكاملها، وتونس بكاملها، وعلى جيش يصل إلى مائة ألف فارسٍ غير الرجَّالة، يرفعون راية واحدة ويحملون اسم المرابطين.

وجد أبو بكر بن عمر اللمتوني كذلك أن هناك مدينة قد أُسست على التقوى لم تكن على الأرض مطلقًا قبل أن يغادر، وتلك هي مدينة مَرَّاكُش، والتي أسسها الأمير يوسف بن تاشفين، وكان أول بناء له فيها هو المسجد الذي بناه بالطين والطوب اللبن، تمامًا كما فعل رسول الله ﷺ وكان يحمل بنفسه الطين مع الناس تشبُّهًا -أيضًا- بالرسول ﷺ[٢]، وهو الأمير على مائة ألف فارسٍ[٣].

وكذلك وجد الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني رجلاً قد أسس دولة لم تُعرف في المنطقة منذ سنوات وسنوات، ثم هو بعد ذلك يراه زاهدًا متقشِّفًا ورعًا تقيًّا، عالمًا بدينه، طائعًا لربه، فقام الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بعملٍ لم يحدث إلاَّ في تاريخ المسلمين فقط، حيث قال ليوسف بن تاشفين: أنت أحقُّ بالحكم مني؛ أنت الأمير، فإذا كنتُ قد استخلفتُك لأجلٍ حتى أعود، فإنك تستحقُّ الآن أن تكون أميرًا على هذه البلاد، أنت تستطيع أن تجمع الناس، وتستطيع أن تملك البلاد وتنشر الإسلام أكثر من ذلك، أمّا أنا فقد ذقت حلاوة دخول الناس في الإسلام، فسأعود مرَّة

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٣٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٣.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٥.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٧.

أخرى إلى أدغال إفريقيا أدعو إلى الله هناك.

أبو بكر بن عمر اللمتوني رجل الجهاد والدعوة

نزل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني ﷺ مرَّة أخرى إلى أدغال إفريقيا يدعو من جديد، فأدخل الإسلام في غينيا بيساو جنوب السنغال، وفي سيراليون، وفي ساحل العاج، وفي مالي، وفي بوركينا فاسو، وفي النيجر، وفي غانا، وفي داهومي، وفي توجو، وفي نيجيريا وكان هذا هو الدخول الثاني للإسلام في نيجيريا؛ حيث دخلها قبل ذلك بقرون، وفي الكاميرون، وفي إفريقيا الوسطى، وفي الجابون.

فكانت أكثر من خمس عشرة دولة إفريقية قد دخلها الإسلام على يدِ هذا المجاهد البطل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني ﷺ، هذا الرجل الذي كان إذا دعا إلى الجهاد في سبيل الله - كما يذكر ابن كثير في البداية والنهاية - كان يقوم له خمسمائة ألف مقاتل؛ أي: نصف مليون من المقاتلين الأشداء، غير مَنْ لا يقومون من النساء والأطفال، وغير بقية الشعوب في هذه البلاد من أعداد لا تُحْصَى قد هداها الله على يديه.

وما من شَكٍّ أنه كلما صَلَّى رجل صلاة في النيجر أو في مالي أو في نيجيريا أو في غانا، وكلما فعل أحد منهم من الخير شيئًا أُضيف إلى حسنات الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني ومَنْ معه رحمهم الله.

ويذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، فيقول: «أبو بكر بن عمر أمير الملثَّمِينَ، كان في أرض فرغانة، اتَّفَقَ له من الناموس[1] ما لم يَتَّفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدوٍّ خمسمائة ألف مقاتل، كلٌّ يعتقد طاعته، وكان

(١) الناموس: صاحب سرِّ الخير، وصاحب سر الملِك، أو الرجل الذي يطلعه على سِرِّه وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره، ابن منظور: لسان العرب، مادة نمس ٦/ ٢٤٣.

يُقيمُ الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين، ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحَّة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابَتْه نُشَّابَةٌ في بعض غزواته في حلقه فقتلتْه...»[(١)]. ثم ها هو ذا رحمه الله وبعد حياة طويلة متجرِّدة لله ﷻ يستشهد في إحدى فتوحاته في سنة (٤٨٠هـ=١٠٨٧م).

دولة المرابطين ويوسف بن تاشفين أمير المسلمين وناصر الدين

كانت بداية حديثنا عن تاريخ المرابطين هي سنة (٤٤٠هـ=١٠٤٨م) وكانت البداية برجل واحد فقط هو الشيخ عبد الله بن ياسين، والآن بعد ثمانٍ وثلاثين سنة فقط، وتحديدًا في سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) يُصبح يوسف بن تاشفين رحمه الله زعيم هذه الدولة العظيمة، ويُسَمِّي نفسه: أمير المسلمين وناصر الدين، وحين سُئِل لماذا لا تتسَمَّى بأمير المؤمنين؟ أجاب: «حاشا لله أن نتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة؛ لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم»[(٢)].

كان العباسيون في هذه الفترة لا يملكون سوى بغداد فقط، وكان يوسف بن تاشفين يُريد للمسلمين أن يكونوا تحت راية واحدة، ولم يُرِد رحمه الله أن يشقَّ عصا الخلافة، ولا أن ينقلب على خليفة المسلمين، وكان يتمنَّى أن لو استطاع أن يضمَّ قوَّته إلى قوَّة الخليفة العباسي هناك، ويُصبح رجلاً من رجاله في هذه البلاد؛ فقال مجمِّعًا مؤمِّلاً: وأنا رجلهم في هذا المكان. وهذا هو الفقه الصحيح، والفهم الشامل للإسلام.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ١٦٥.
(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٢٩. وبعض المصادر -كابن أبي زرع في روض القرطاس ولسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام والإحاطة- تذكر أنه اتخذ هذا اللقب بعد نصر الزلاقة في سنة ٤٧٩هـ.

الفصل الرابع

الأندلس تستعين بالمرابطين

في سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) -كما ذكرنا- كانت قد سقطت طُلَيْطلَة، ومنذ سقوطها في ذلك التاريخ لم تَعُدْ إلى المسلمين، ثم حوصرت إِشْبِيلِيَة؛ مع أنها كانت تقع في الجنوب الغربي للأندلس وبعيدة عن مملكة قشتالة النصرانية التي تقع في الشمال، ثم كاد المعتمد على الله بن عباد أن يحدث معه مثلما حدث مع بَرْبُشْتَر أو بَلَنْسِيَة لولا أن مَنَّ الله عليه بفكرة الاستعانة أو التلويح بالاستعانة بالمرابطين.

ويبدو أن فكرة الاستعانة بالمرابطين كانت فكرة شعبية خرجت أول ما خرجت من العلماء والمشايخ، وتلقاها العامة بالقبول والتأييد، ثم صارت مطلبًا عامًّا، ونداء متكررًا يجد الدعم الشعبي، ويوحى به عند الأمراء، ومن الواضح -أيضًا- أنها بدأت من قبل سقوط طليطلة بأعوام، ولو أن ملوك الطوائف امتلكوا مثل هذا الوعي الشعبي لكانوا قد منعوا سقوط طليطلة، وما لحقهم من الذل قبلها وبعدها.

يُورد النويري أنه قد «بلغ مشايخ قُرْطُبَة ما جرى، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الفرنج، ولم يبقَ منها إلاَّ القليل، وإن استمرَّت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت. ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم، فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصَّغَار والذلة، وإعطائهم الجزية إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم، وابن عباد هو الذي حمل الفرنج على المسلمين، حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دبَّرنا رأيًا نعرضه عليك. قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية، ونُعلمهم أنهم إن

وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا، وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى. قال: أخاف أن يُخَرِّبُوا الأندلس كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدءوا بكم، والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتب يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه، أو يرسل إلينا قائدًا من قوَّاده. قال: أمَّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السَّداد. وقَدِمَ المعتمد إلى قُرْطُبَة في أثر ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قُرْطُبَة وما اتفقوا عليه، فقال المعتمد: نِعْمَ ما أشاروا به، وأنت رسولي إليه. فامتنع القاضي واستعفاه، وإنما أراد أن يُقَوِّيَ عزمه على إرساله، فقال: لا أجد لها غيرك.

فسار القاضي وصحبه أبو بكر ابن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجداه بسبتة، فأبلغاه الرسالة، وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش، وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجد به...»[1].

بل نستطيع أن نقول: إن حركة المشايخ والفقهاء قد وصلت إلى يوسف بن تاشفين من قبل هذا، ففي سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وفد جماعة من أهل الأندلس على يوسف بن تاشفين، وشَكَوْا إليه ما حلَّ بهم من أعدائهم، فوعدهم بإمدادهم، وإعانتهم، وصرفهم إلى أوطانهم[2].

كما وردت عليه -أيضًا- الرسائل والكتب من أهل «الأندلس، يبثُّون حالهم، ويُحَرِّكونه إلى نصرهم. وفي سنة اثنتين بعدها ورد عليه عبد الرحمن بن أسباط من ألمَرِيَّة؛ يشرح حال الأندلس»[3].

وكان ممن كتب إليه -قبل ذلك- المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب

(١) النويري: نهاية الأرب، ٢٣/ ٢٦٦، ٢٦٧، وابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٥، ٤٤٦.
(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٤/ ٣٥٠.

بطليوس يستصرخه حين هاجم العدوُّ بلاده، ولما بلغ خطابه هذا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتب إليه يَعِدُه بالجواز، والإمداد على العدو[(١)].

إلاَّ أن يوسف بن تاشفين كانت لديه مشكلتان رئيستان؛ الأولى: أنه لم يُسيطر على سبتة، وهو الميناء المهم الذي يُعَدُّ منفذًا لدخول الأندلس، فقد كان ما يزال يُسيطر عليه البرغواطيين وعليهم زعيمهم سقُّوت البرغواطي. والثانية: أنه ما كان يمكنه العبور إلى الأندلس من دون النزول في أراضي غرناطة أو إشبيلية، فهي أقرب المناطق إلى المغرب؛ لذا فما كان أمام ابن تاشفين إلا أن ينتظر رسالة من المعتمد بن عباد لكي يستطيع أن ينزل إلى الأندلس بأمان ولا يُعتبر محاربًا مهاجمًا لأراضي إشبيلية أو غرناطة.

إلا أن ابن تاشفين -بعد أن وصلته استغاثات الأندلس- وجَّه جهوده إلى فتح سبتة، ففتحها بالفعل، ثم بدأ يستكثر من الأعداد وتجهيز الإمدادات منتظرًا أن تأتيه الرسل من ابن عباد ملك إشبيلية.

ولا شكَّ أن ابن عباد كان يفهم كل هذا ويعلمه؛ ولذلك فإنه لما راسل ابن تاشفين خاطبه خطاب مَنْ يعرف وعوده السابقة للعامة وللمتوكل ابن الأفطس، «منتجزًا وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية»[(٢)].

انتشر في الأندلس الرد الذي كتبه المعتمد إلى ألفونسو والذي يُهَدِّده فيه بالجيوش المرابطية، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين، والاستظهار به على العدوِّ، فاستبشر الناس، وفرحوا بذلك، وفُتحت لهم أبواب الآمال، وأما ملوك طوائف الأندلس فلمَّا تحقَّقوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك، اهتمُّوا منه -أي: صاروا مهمومين مما عزم عليه- ومنهم مَنْ كاتبه، ومنهم

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٦.

مَنْ كَلَّمَه مواجهة، وحَذَّرُوه عاقبة ذلك، وقالوا له: المُلْكُ عَقِيمٌ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير. ومعناه: أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا له يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزَّقًا للأذفونش أسيرًا له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعذَّاله ولُوَّامه: يا قوم؛ إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شكٍّ، ولا بُدَّ لي من إحداهما؛ أما حالة الشكِّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة الشكِّ، وأمَّا حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلأي شيء أدعُ ما يُرضي الله وآتي ما يُسخطه. فحينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[1].

وكان ممن وافق ابن عباد على رأيه المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وكذلك عبد الله بن بلقين صاحب غَرْنَاطَة، فأصبحت (غَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس) الحواضر الإسلامية الضخمة متَّفِقَة على الاستعانة بالمرابطين.

وفور موافقة الأمراء الثلاثة جعلوا منهم سفارة كانت مكونة من قضاة المدن الثلاث: قاضي الجماعة بقرطبة أبو بكر بن أدهم، وقاضي غرناطة أبو جعفر القليعي، وقاضي بطليوس أبو إسحاق بن مُقانا، ثم أضاف المعتمد إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين، وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ما لا بُدَّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية، وعلى هذا، فقد كان الوفد مكوَّنًا من هؤلاء الأربعة فقط[2].

وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يَفِدُ عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٣٩.

مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقُّ نفسه لهم[١].

وفي سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) يستقبل يوسف بن تاشفين الوفد الذي جاء من قِبَل بعض ملوك الطوائف -كما ذكرنا- يطلبون العون والمساعدة في وقف وصدِّ هجمات النصارى عليهم[٢]، فأَعَدَّ العُدَّة رحمه الله وجهَّز السفن، وبينما يعبر مضيق جبل طارق وفي وسطه يهيج البحر، وترتفع الأمواج، وتكاد السفن أن تغرق، وكما كان قائدًا يقف هنا قدوة وإمامًا، خاشعًا ذليلاً، يرفع يديه إلى السماء ويقول:

«اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبْه عليَّ حتى لا أجوزه». فتسكن الريح، ويَعْبُر هو ومَنْ معه[٣]، وعند أول وصول له -والوفود تنتظره ليستقبلوه استقبال الفاتحين- يسجدُ لله شكرًا أنْ مكَّنَهُ من العبور، وأن اختاره ليكون جنديًا من جنوده عز وجل ومجاهدًا في سبيله[٤].

يوسف بن تاشفين وقدوة كانت قد افتُقدتْ وغُيِّبتْ

يدخل يوسف بن تاشفين أرض الأندلس، ويدخل إلى إِشْبِيلِيَة والناس يستقبلونه استقبال الفاتحين، ثم يقصد إلى بطليوس حيث كانت على مقربة من الزلاَّقة التي كان قد نزلها ألفونسو السادس، فتوجَّه إليه أمير المسلمين بجيوشه[٥].

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٩.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٦.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٣٤، وانظر رسالته إلى تميم بن باديس، نقلاً عن محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٤٤٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٢٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٤٤٧، وابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ١٠٠، وابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٦، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٦، والحميري: الروض المعطار، ص٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٣، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦.

واجتمع بالمعتمد بن عباد بإِشْبِيلِيَة، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضًا، وخرج من أهل قُرْطُبَة عسكر كثير، وقصده المطوِّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى ألفونسو فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طُلَيْطلَة[1].

وبدأ يلحق بركب يوسف بن تاشفين المجاهدون المتطوعة من قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، وهكذا حتى وصل الجيش إلى الزَّلاَّقة في شمال البلاد الإسلامية، وعدده يربو على الثلاثين ألف رجل.

ولا نعجب فهذه هي أهمية القدوة وفِعْلِها في المسلمين، وصورتها كما يجب أن تكون، تحرَّكت مكامن الفطرة الطيبة، وعواطف الأُخُوَّة الصادقة، والغَيْرَة على الدين الخاتِم، تلك الأمور التي تُوجَد لدى عموم المسلمين بلا استثناء، وتحتاج فقط إلى مَنْ يُحَرِّكها من سُباتها.

* * *

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦١.

الفصل الخامس

معركة الزّلاّقة

تحرَّك الثلاثون ألف رجل بقيادة يوسف بن تاشفين ليصلوا إلى الزَّلاَّقة، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه موقعة هي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.

كان النصارى قد استعدُّوا لقدوم يوسف بن تاشفين فجمعوا عددًا ضخمًا من المقاتلين، بلغ في بعض التقديرات أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل[1]، على رأسهم ألفونسو السادس بعد أن جاءه العون من الممالك النصرانية فرنسا وإيطاليا وغيرها، وقَدِمَ ألفونسو السادس يحمل الصلبان وصور المسيح، وهو يقول: بهذا الجيش أقاتل الجنَّ والإنس، وأقاتل ملائكة السماء. فهو يعرف تمامًا أنها حرب صليبية ضد الإسلام[2].

الرسائل والحرب الإعلامية

وكان ألفونسو السادس من قبل هذا أرسل إلى ابن تاشفين رسالة كلها غرور واستعلاء، وهذا نصها:

باسمك اللهمَّ فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله

---

(١) تُعَبِّر المصادر التاريخية عن عدد الروم بالعبارات التي تفيد الكثرة والضخامة، وأما مَنْ ذكروا العدد فمنهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل. ومنهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس لابسين الدروع دون غيرهم. وهذه هي رواية صاحب الحلل الموشية الذي يعود ويقول بعد ذلك: إنه قُتل في هذه الغزوة من النصارى ثلاثمائة ألف. ومنهم من يقول: إنهم كانوا خمسين ألف مقاتل. ومنهم من يقول: إن أقل تقدير لهم أنهم كانوا أربعين ألف دارع، ولكل دارع أتباع.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٩، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٢.

وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعدُ: فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأُمَثِّل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، فالآن خَفَّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا، وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام، تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك، ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلَّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثَلَتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملَّتَيْنِ والحُكم على البرَّيْنِ، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة ويُسَهِّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلاَّ خيره، إن شاء الله تعالى(١).

فلما تمَّ عبور جيش المرابطين إلى الأندلس أرسل يوسف بن تاشفين برسالة إلى ألفونسو السادس يقول له فيها: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا،

---

(١) ذكرت بعض المصادر أن هذه الرسالة إنما أرسلها ألفونسو الثامن إلى يعقوب المنصور الموحدي بعد هذا بحوالي قرن من الزمان، إلا أن التحقيق يؤدي إلى أنها مرسلة من ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٦، ٧، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ١٩٨.

وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]. وخيَّره يوسف بن تاشفين بين الإسلام والجزية والحرب[١].

تَسَلَّم ألفونسو السادس الرسالة وما أن قرأها حتى استشاط غضبًا و«جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل مِلَّته منذ ثمانين سنة؟!» ثم أرسل ليوسف بن تاشفين متوعِّدًا ومُهَدِّدًا: فإني اخترت الحرب، فما ردُّك على ذلك؟ وعلى الفور أخذ يوسف بن تاشفين الرسالة، وقلبها وكتب على ظهرها: الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأُذنك، والسلام على مَنِ اتَّبع الهدى. فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به[٢].

قال صاحب (الروض المعطار): «ولما تحقق ابن فرذلند[٣] -ألفونسو السادس- جواز يوسف استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصى عدده، وجعل يُصغي إلى أنباء المسلمين متغيِّظًا على ابن عباد، حانقًا ذلك عليه، متوعِّدًا له، وجواسيس كل فريق تتردَّد بين الجميع، وبعث -ألفونسو السادس- إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاد بعيدة وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أُكَلِّفكم تعبًا، أنا أمضي إليه وألقاكم في بلادكم؛ رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل ودِّه ووزرائه: إني رأيت

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والحلل الموشية، ص٥٣، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٦، ومجهول: الحلل الموشية، ص٥٣.

(٣) فرذلند: هو التعريب لاسم فرناندو، أول من بدأ بحرب الاسترداد وأخذ الجزية من المسلمين، وابنه هو ألفونسو السادس، والذي يعرب اسمه إلى: الفُنش ألفونش وأذفونش.

إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني(١) بين جدرها ربما كانت الدائرة عليَّ؛ فيكتسحون البلاد، ويحصدون مَنْ فيها في غداة واحدة، لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت عليَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاَّ بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي، وجبرٌ لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خِفْتُ أنا أن يكون منهم فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها(٢).

وفي محاولة ماكرة لخديعة المسلمين أرسل ألفونسو السادس يُحَدِّدُ يوم المعركة، فأرسل أن: غدًا الجمعة، ولا نُحِبُّ مقاتلتكم فيه؛ لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلَّتنا، ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فلنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين(٣).

تَسَلَّم يوسف بن تاشفين الرسالة، وكاد ينخدع بها لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر(٤)، ولقد كانت هذه أولى جولاته مع النصارى، إلاَّ أن المعتمد بن عباد فهم الخديعة ونبَّه يوسف بن تاشفين إلى ما قد يكون فيها من الغدر(٥).

تجهيز الجيش ورؤيا ابن رُمَيْلَة

بحذر تامٍّ لم يلتفت يوسف بن تاشفين إلى ما جاء في رسالة ألفونسو السادس، وقام بتعبئة الجيش وتجهيزه يوم الخميس، ووضعه على أتمِّ الاستعداد.

إنها لحظة لم يتذوَّقها الأندلسيون منذ سنوات وسنوات في أرض الأندلس،

---

(١) ناجزه: نازله وقاتله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نجز ٥/ ٤١٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٠٣.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٨، وما بعدها.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والحلل الموشية، ص٥٧.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب ١٩٤، ١٩٥.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٧.

يقوم جيش مسلم ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شكَّ أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، ويأمر يوسف بن تاشفين بقراءة سورة الأنفال، ويأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد، ويمرُّ هو بنفسه رحمه الله على الفصائل ينادي ويقول: طوبى لمن أحرز الشهادة، ومَنْ بقي فله الأجر والغنيمة. وجاء في الروض المعطار: ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعُبَّاد يعظون الناس ويحضُّونهم على الصبر، ويُحذِّرُونهم الفرار[1].

وفي ليلة الجمعة كان ينام مع الجيش شيخ كبير من شيوخ المالكية في قُرْطُبَة، وهو الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رُمَيْلَة القرطبي، والذي قال عنه ابن بشكوال في الصلة: كان معتنيًا بالعلم، وصُحبة الشيوخ، وله شعر حسن في الزهد، وكان كثير الصدقة وفعل المعروف، وكان أبو العباس هذا من أهل العلم والورع والفضل والدين[2].

لم تكن مهمَّة الشيخ يومها هي مجرَّد الجلوس في المسجد، أو إلقاء الدروس، أو تعليم القرآن فقط، فقد كان هذا الشيخ يَفْقَه أمور دينه، ويعلم أن هذا الجهاد هو ذروة سنام هذا الدين، وفي هذه الليلة يرى ابن رُمَيْلَة هذا رسولَ الله ﷺ وهو يقول له: «يَا ابْنَ رُمَيْلَةَ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلاقِينَا».

يستيقظ ابنُ رُمَيْلَة من نومه وهو الذي يعلم أن رؤية الرسول ﷺ في المنام حقٌّ؛ لأن الشيطان لا يتمثَّل به ﷺ؛ ففي البخاري بسنده عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَخَيَّلُ بِي، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.
(٢) ابن بشكوال: الصلة، ١/ ١١٨ (١٤٤).

سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[١].

يقوم الشيخ فرحًا مسرورًا، لا يستطيع أن يملك نفسه، فقد بشَّره رسول الله ﷺ، وسيموت في سبيل الله، فالحُسْنَيَيْن أمام عينيه، نصر للمؤمنين وشهادة تناله، فيا لها من فرحة! ويا له من أجر!

وعلى الفور يذهب ابن رُمَيْلَة رحمه الله في جنح الليل فيُوقظ قادة المسلمين حتى أيقظ المعتمد بن عبَاد، وقصَّ عليهم رؤيا رسول الله ﷺ، ولا شك أن هذه الرؤيا قد هزَّت ابن عباد فأرسل بخبرها إلى يوسف بن تاشفين وكلِّ قوَّاد الجيش، وقاموا من شدَّة فرحهم وفي منتصف الليل وأيقظوا الجيش كله على صوت: رأى ابن رُمَيْلَة رسول الله ﷺ يقول له: «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلاقِينَا»[٢].

مخابرات ابن عباد تراقب الموقع :

وكان المعتمد بن عباد يراقب -فيما يراقب- معسكر المرابطين أيضًا «خوفًا عليهم من مكائد ابن فرذلند؛ إذ هم غرباء لا عِلْمَ لهم بالبلاد، وجعل يتولَّى ذلك بنفسه؛ حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين -المرابطين- كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيفًا بالمحلَّة بعد ترتيب الكراديس -وهي كتائب الخيل- من خيل على أفواه طرق محلاتهم، فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يُخطئ ذلك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم»[٣].

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحقت بقية الطلائع محقِّقين،

---

(١) البخاري: كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، (٦٥٩٣) واللفظ له، ومسلم: كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي» (٢٢٦٦).

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.

بتحرُّك ألفونسو، ثم جاءت الجواسيس من داخل معسكر ألفونسو يقولون: «استرقنا السمع الساعة، فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، وإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة». وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة إلى يوسف يُعَرِّفه بإقبال ألفونسو ويستحثُّ نُصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيًّا حتى جاء يوسف بن تاشفين فعَرَّفه جلية الأمر[1].

الجيش الإسلامي وخطة الإعداد والهجوم

بعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩هـ=٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م، نقض ألفونسو السادس عهده، وبدأ بالهجوم في ذلك اليوم؛ إذ الغدر والخيانة ومخالفة العهود هو الأصل عندهم.

ولقد صُدم الجيش الإسلامي، وفوجئ بالفعل -كما ستؤكد الرسالة التي كتبها يوسف بن تاشفين نفسه فيما بعد- وانحطَّ عليه جيش النصارى بكتائب «تملأ الآفاق»، وبدت الصدمة الأولى صدمة هائلة حقًّا!

كان الجيش الإسلامي قد انقسم إلى ثلاث فرق رئيسة:

الأولى: فرقة الأندلسيين وتضم الجيش الأندلسي وعلى رأسه المعتمد بن عباد ومعه ملوك الأندلس؛ ابن صمادح صاحب ألَمرِيَّة، وعبد الله بن بلقين بن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس.. وغيرهم، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد[2]، كان المعتمد في

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٥.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٤، ٤٥.

القلب والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة[(١)]، وقد اختار المعتمد أن يكون في المقدمة وأول مَنْ يصادم الجيش الصليبي[(٢)].

يُريد بذلك أن يغسل عار السنين السابقة وما رآه من ذل وهوان، أو لعله كان يُريد أن يحوز القدر الأعلى من النصر إن تم؛ فيُنسب الأمر له، والله أعلم بالنوايا.

وقيل في روايات أخرى بأن يوسف بن تاشفين خشي ألا يثبت المعتمد بن عباد، وألا يبذل جهده في الحرب، فكان وضعه في المقدمة بطلب من يوسف بن تاشفين[(٣)].

الثانية: فرقة من جيش المرابطين وعلى رأسهم البطل المرابطي الكبير داود ابن عائشة، وكانت هذه الفرقة خلف الجيش الأندلسي.

الثالثة: جيش المرابطين الرئيسي بقيادة يوسف بن تاشفين يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش، بحيث لا يُرى هذا الجيش، فيُظَنُّ أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأوليان: جيش الأندلسيين وجيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة[(٤)].

وقد أراد يوسف بن تاشفين من وراء ذلك أن تحتدم الموقعة فتُنْهك قوى الطرفين حتى لا يستطيعا القتال، وكما يحدث في سباق الماراثون فيقوم هو ويتدخَّل بجيشه ليَعدل الكِفَّة لصالح صفِّ المسلمين[(٥)].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص٥٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٨.

لم تكن خطَّة يوسف بن تاشفين رحمه الله جديدة في حروب المسلمين؛ فقد كانت هي الخطة نفسها التي استعملها خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعة الولجة في فتوح فارس، وهي -أيضًا- الخطة نفسها التي استعملها النعمان بن مُقَرِّن رضي الله عنه في موقعة نهاوند في فتوح فارس أيضًا، فكان رحمه الله رجلاً يقرأ التاريخ ويعرف رجالاته ويعتبر بهم.

الزَّلاَّقة ومعركة الوجود الإسلامي في الأندلس

لما كان يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩هـ= ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م هجم ألفونسو السادس بجيشه الضخم على الجيش الأول للمسلمين (الجيش الأندلسي)، مال ألفونسو السادس على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد -وجيشه الأندلسي- صبرًا لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعَضَّته الحرب، واشتدَّ البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله، وأُثْخِنَ ابن عباد جراحات وضُرِبَ على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يمنى يديه، وطُعن في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدِّمَ له آخر، وهو يقاسي حياض الموت يضرب يمينًا وشمالاً، وتَذَكَّر في تلك الحال ابنًا له صغيرًا كان مغرمًا به، كان تركه بإِشْبِيلِيَة عليلاً اسمه المعلى وكنيته أبو هاشم، فقال: [المتقارب]

أَبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ ... فَلِلَّهِ صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارُ[1]

ذَكَرْتُ شَخِيصَكَ تَحْتَ الْعَجَاجِ[2] ... فَلَمْ يُثْنِنِي ذِكْرُهُ لِلْفِرَارِ

(١) الأوار: شدَّة الشيء وقوته. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/ ٣٥.

(٢) العجاج: الغبار. الجوهري: الصحاح، باب الجيم فصل العين ١/ ٣٢٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة عجج ٢/ ٣١٨.

ثم ما هو إلا أن انضم إليه القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود بن عائشة، وكان بطلاً شهمًا فنَفَّس بمجيئه عن ابن عباد[1].

إلا أن ألفونسو كان قد قسَّم هو الآخر جيشه إلى قسمين، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة، «فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، وصبر المرابطون صبرًا جميلاً، وداسهم اللعين بكثر جنوده حتى كاد يستأصلهم، وكانت بينهم مضاربة تفلَّلت فيها السيوف، وتكسَّرت الرماح، وسارت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن رذمير نحو ملحة (لعله يقصد محلة) ابن عباد، فداسوها، واستمرَّت الهزيمة على رؤساء الأندلس إلى جهة بطليوس، ولم يثبت منهم غير ابن عباد وجيشه، فإنهم ثبتوا في ناحية يُقاتلون لم ينهزموا، وقاتلوا قتالاً شديدًا، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام...»[2]. وبدا المعسكر الإسلامي مرة أخرى في حالة الهزيمة.

وهنا بدأ تحرك الجيش المرابطي الرئيسي الذي يقوده ابن تاشفين، وذلك بعد أن كانت قد أُنهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى، وبعد طول صبر ينزل يوسف بن تاشفين بالقسم الرئيسي من جيش المرابطين الذين كانوا معه، وهم في كامل قوتهم، فيحاصرون الجيش النصراني.

قسَّم يوسف بن تاشفين الجيش الذي كان معه إلى قسمين: فالأول وقائده سير ابن أبي بكر - في قبائل المغرب وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر- يساعد جيش المسلمين الذي يقوده داود ابن عائشة والمعتمد بن عباد، والقسم الثاني بقيادته هو ومعه باقي قبائل صنهاجة والمرابطين يلتفُّ خلف جيش النصارى، ويقصد

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب ص١٩٤، ١٩٥، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩١، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٦.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧.

مباشرة إلى معسكرهم، «فأضرمها نارًا وأحرقها، وقتل مَنْ كان بها من الأبطال والرجال والفرسان، الذين تركهم ألفونسو بها يحرسونها ويحمونها، وفرَّ الباقون منهزمين نحو ألفونسو، فأقبلت عليهم خيله من محلته فارِّين، وأمير المسلمين يوسف في أثرهم بساقته وطبوله وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة سيوفهم، ويروونها من دمائهم، فقال ألفونسو السادس: ما هذا؟! فأُخبر الخبر بحرق محلته ونهبها، وقتل حماتها، وسبي حريمها، فردَّ وجهه إلى قتاله، وصمم أمير المسلمين نحوه، فانتشبت الحروب بينهما، فكانت بينهما حروب عظيمة لم يُسمع قط بمثلها...»[1].

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم، وأنهم محاصَرون «ارتاعت قلوبهم، وتجلجلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم، وأخبيتهم، فسُقط في أيديهم، فثَنَوْا أعنَّتهم، ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان، واختلطت الملتان، واشتدت الكَرَّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجُّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك، فأمدَّ الله المسلمين بنصره، وقذف الرعب في قلوب المشركين»[2].

وهكذا حوصر جيش النصارى بين الجيش الأندلسي من الأمام، وجيش المرابطين من الخلف، وبالفعل بدأ الاضطراب والتراجع في صفوف النصارى، وقد التفَّ جنود النصارى حول ألفونسو السادس يحمونه، ثم حدثت خلخلة عظيمة في جيشهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧ وما بعدها.
(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٥٩.

يقول الحميري: «فبادر إليه يوسف، وصدمهم بجمعه، فردَّهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عباد، ووجد ريح الظفر، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة نزل معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين فصدقوا الحملة»[1].

تزداد شراسة الموقعة حتى قُبيل المغربِ، ثم ومن بعيدٍ يُشير يوسف بن تاشفين إلى أربعة آلاف فارسٍ من رجال السودان المهرة، وهم حرسه الخاص فيترجلون عن خيولهم، ليقتحموا -فيما يشبه المهمة الخاصة- قلب جيش النصارى وينفذون إلى ملكهم، وبالفعل نفذ أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة[2].

يصف صاحب الحلل الموشية هذه اللحظات من المعركة بقوله: «واشتدت الكَرَّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجُّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك فأمدَّ الله المسلمين بنصره... وفي أثناء ذلك، تلاقى بالطاغية أذفنش غلام أسود بيده خنجر يدعوه البرابر بالأفطس، قطع جرز درعه، وطعنه في فخذه مع مدار سرجه، فكان أذفنش يقول بعد ذلك: التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي. فتخيل له الأفطس أنه منجل لكونه رآه معوجًا»[3].

(١) الحميري: الروض المعطار ص٢٩٠ وما بعدها.

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان، ٧/ ١١٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٧، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ٣٢٥.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص٦١.

ويقول لسان الدين بن الخطيب: «ولم تزل الكَرَّات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سجالاً تداول، والحرب تدور، وأَمَرَ الأميرُ يوسف العبيدَ فترجَّلوا عن الخيل في نحو ألف، ودخلوا المعرك بالمزارق (الرماح القصيرة الخفيفة) لعجز السلاح عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمح بفرسانها، ولصق منهم بالأذفونش عبد قبض على عنانه، وضربه بخنجر...»[1]. وبقي أثر الطعنة مع ألفونسو بقية عمره، فكان يعرج منها[2].

ثم لجأ ألفونسو إلى تل يحتمي به كان قريبًا من معسكره ومعه نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم، وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم... ولما جاء الليل تسلل وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طُلَيْطلَة إلا في دون المائة[3]، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين[4]. وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك[5]. واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل[6].

وبذلك كانت الزَّلاَّقَة دون مبالغة كاليرموك والقادسية.

كان رأي المعتمد بن عباد أن يواصل الجيش مطاردته لألفونسو المنحسب حتى يقضي عليه نهائيًّا، ولكن ابن تاشفين كان يرى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستبسلون في القتال، فيقاتلون قتال مَنْ لا يرى حياته إلا بموت خصمه، وفي هذا ضرر على المسلمين، لا سيما وأن مطاردة ألفونسو وهو على هذا الحال قد تُوقع في طريقه بعض المسلمين المنسحبين، الذين يتواصل عودتهم إلى الجيش مع انقلاب كفة

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٤٣.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.
(٣) المصدر السابق، ص٢٩٠ وما بعدها.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٧.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ١١٧.
(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٨.

المعركة، وهم بالنسبة له أقل قوة وهو أقدر على الإيقاع بهم، فإن انتظروا هذا اليوم فتكامل عدد المسلمين برجوع الذين انسحبوا، هان عليهم أن يقاتلوه في اليوم الثاني، وردَّ عليه ابن عباد بقوله: إن فرَّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه. إلا أن يوسف أصرَّ على الامتناع وقال: الكلب إذا أُرهق لا بُدَّ أن يعضَّ(١).

ونحن إذ نقرأ التاريخ الآن نرى أن ابن عباد كان أصوب رأيًا من ابن تاشفين في هذا الأمر، فلقد استمر ألفونسو يقاتل المسلمين بعدها عشرين سنة ولم يضعف ولم يتوانَ، ويُتوقع أن لو كان قُضي عليه في يوم الزلاقة لكنا نكتب الآن تاريخًا آخر، ولكان المسلمون استطاعوا أن يستعيدوا طُلَيْطلَة مرة أخرى.. إلاَّ أنه لا يسعنا أن نعترف بأننا نقول الرأي الآن بعدما انتهت الأحداث وانقشعت المعارك، وما ندري لو كنا في ذلك الموقف ماذا قد يكون الاختيار.

وما أن تنتهي أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بن تاشفين نبأ مُفزع من بلاده بالمغرب، إنه يحمل مصيبة قد حَلَّت به وبداره، فابنه الأكبر قد مات، فيعجل هذا برجوع ابن تاشفين إلى المغرب(٢).

ابن تاشفين يروي أحداث الزلاقة:

لقد تم العثور على وثيقة مهمة عن المعركة، وثيقة كتبها بطل الزلاقة نفسه، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقد نقلها الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (دولة الإسلام في الأندلس) (٣)، ووصفها بقول: «رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية؛ يصف فيها

(١) الحميري: الروض المعطار ص٢٩٠ وما بعدها، ومجهول: الحلل الموشية ص٥٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٢، والحلل الموشية، ص٦٦، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٩.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤٤٦. (منقولة من المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيري بمكتبة الإسكوريال Fol. 49R. -53V. وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له).

بلاد الغرب، وجوازه للأندلس للجهاد بها، وهزيمته للأذفنش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وفيها مما يهمنا الآن في هذه الوثيقة، هو شرح أمير المسلمين لأدوار المعركة، يقول:

«فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه (ألفونسو السادس)، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله، فسمع بنا، وقصد قصدنا، وورد وردنا، واحتلَّ بفنائها منتظرًا لنا، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام، ودخوله في ملة محمد، أو ضرب الجزية عليه، وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبيَّن لنا في كتابه؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبى وتمرَّد، وكفر ونخر، وعَمِل على الإقبال علينا، وحثَّ في الورود علينا، فلحِقَنَا وبيننا وبينه فراسخ، فلمَّا كان بعد ذلك، برزنا عليه أيامًا، فلم يُجِبْنَا، فبقينا وبقوا، ونحن نخرج الطلائع إليه، ونُتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

فلما كان يوم الجمعة ثانيه، ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق؛ وتقلَّبَتْ تَقَلُّب الحتوف للأحداق؛ قد استلموا الدروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، وبطونهم ملأى من الخمر، يُقَدِّرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كلٌّ مِنَّا سَاهٍ، وجميعنا لاهٍ، فقصد أشدُّهم شوكة، وأصلبُهم عودًا، وأنجدُهم عديدًا، محلةَ المعتمد على الله المؤيد بنصر الله -وَفَّقَهُ الله- عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لا يقدرون عسكرًا إلا عسكره، ولا رجالاً إلا رجاله، ولا عديدًا إلاَّ عديده، وداود من أصحابنا منا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيفًا واحدًا، كهبوط السيل، بسوابق الخيل، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع، استكَّت آذانهم[1]، واضطربت أضلاعهم،

---

(١) استكَّت آذانهم: أي صُمَّت. ابن منظور: لسان العرب، مادة سكك ١٠/ ٤٣٩.

ودهشت أيديهم، وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فَرُّوا يطلبون معقلاً يعصمهم، ولا عاصم إلاَّ الله، ولا هاربًا منه إلاَّ إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرامات، لما عاينوا من الأمور المعضلات، وأسلموه (المعتمد) -أيده الله- وحده في طرف الأخبية، مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد استسلموا للقضاء، فوثبوا (الروم) عليه وثب الأسد على الفرائس، يعظمون الكنايس، فحبسهم حينًا وحده مع مَنْ إليه ممن ذكرناه، وبسطوا منهم الأرض، ولم يبقَ من الكل إلاَّ البعض، ولجأ في الأخبية بعد أن عاين المنية، وتَخَلَّصَه اللهُ بنِيَّتِه في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يَرُدُّ عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهزم، ولا يهابهم فيسأم.

ثم قَصَدَتْ كتيبَتَهُ (كتيبة ألفونسو) سودًا كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داود وأخبيته، فجالوا فيها جولانًا، وقتلوا من الخلق ألوانًا، واستشهد الكل بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من رواء الشعب، كقطع اللهب، بجميع مَنْ معنا، على الخيل المسومة العراب، يتسابقن الطعن والضراب، فلما رأونا، ووقعت أعينهم علينا، ظَنُّوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأَنَّا طُعْم أسيافهم، ولقاء رماحهم، فكَبَّرْنَا وكَبَّر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذي لا بُدَّ منه، ولا محيص لأحد عنه، وقلنا: هذا آخر يومنا من الدنيا، فلتموتوا شهداء.

فحملوا علينا كالسهام، فثَبَّتَ الله أقدامنا، وقوَّى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى وليُّ النصر لنا، فَوَلَّوْا هاربين، وفَرُّوا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دونْ طعنة تلحقه، ولا ضربة تُثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعَنَّاهم بالسمهرية[1] دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى إن هاربهم

(١) السمهرية: الرماح الصُّلبة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سمهر ٤/ ٣٨١.

لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلاً، وفتكت فيهم السيوف على رغم الأنوف، فوالله! لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزَرَقَ[١] الرجالة منا على خيلهم الرماحَ، فشَكُّوهم بها فرمحت بهم.

فما كنت ترى منهم فارسًا إلاَّ وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكلُّ يجرُّ عنانه، كأنه مُعْقَل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربي المصون، السابق اللاحق، المعدُّ للحقائق، وما منا إلاَّ مَنْ له جرناز[٢] فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأرض مجدلين[٣]، موتى معفَّرين[٤]، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم؛ يقطعون رءوسهم، وينقلون بإزاء المحلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لا يُقَدَّر، ومدد لا يُحْزَر، والتجريد فيهم، والأيدي متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أُثخنوا جراحًا بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام، والله! لقد كان الفرسان والرجَّالة يدخلون محلَّتهم، ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم، وهم ينظرون شزرًا نظر التيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جنَّ الليل وأرخى سدوله، وَلَّوْا هاربين، وأسلموا رحائلهم صاغرين، فكم من دلاص[٥] على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد.

---

(١) زرق: أي ضربها بالأسنَّة، انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة زرق ١٠/ ١٣٨.

(٢) هكذا في المصدر.

(٣) المجدَّل: الصريع، أو الملقى بالأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١/ ١٠٣.

(٤) معفَّر: أي تقلَّب في التراب.

(٥) الدِّرع الدِلاص: البرَّاقة، الملساء، اللينة. ابن منظور: لسان العرب، مادة دلص ٧/ ٣٧.

وأمَّا البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرَّة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكلُّون في الانتقال، ولا يسأمون من تشريط الأموال، ولحقوا قورية، ومنها إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[1]، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرائرنا، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين.

لم يستشهد منا إلاَّ الفرقة التي قَدَّر الله عليها بذلك، وقَدَّرنا أن الكل منهم هلك لقلَّة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى، وتراميهم للشهادة، قدَّس الله أرواحهم، وكرَّم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنة ميعادًا بيننا وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شُهدت نجدته في المغرب، وانقلبت خير منقلب. ولحقنا إشبيلية حضرته (المعتمد) عمرت ببقايه، وأقمنا عنده أيامًا، ورفعنا عنه مُوَدِّعين، لا تَوَدُّع قاطع...»[2].

لا نُريد منكم جزاءً ولا شكورًا:

بعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير، لكن يوسف بن تاشفين وفي صورة مشرقة ومشرِّفة من صور الإخلاص والتجرُّد، وفي درس عملي بليغ لأهل الأندلس عامَّة، ولأمرائهم خاصَّة يترك كل هذه الغنائم لأهل الأندلس، ويرجع في زُهدٍ عجيب وورع صادق إلى بلاد المغرب، لسان حاله: ﴿لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

قال المقري في نفح الطيب: وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام؛ حتى جمعت الغنائم، واستُؤْذِن في ذلك السلطان يوسف، فعفَّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس،

---

(١) أم قشعم: الحرب، أو المنية. ابن منظور: لسان العرب، مادة قشعم ١٢/ ٤٨٤.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤٤٨، وما بعدها.

وعَرَّفهم أن مقصدَه الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلمّا رأتْ ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبُّوه وشكروا له ذلك[١].

يعود رحمه الله إلى بلاد المغرب بعد أن جمع ملوك الأندلس وأمَرَهم بالاتفاق، وإطراح التنابذ والتخاصم؛ حتى لا يُضيعوا بحماقاتهم ثمار هذا النصر[٢]، وعاد يوسف بن تاشفين البطل الإسلامي المغوار وعمره آنذاك تسع وسبعون سنة!

كان من الممكن له رحمه الله أن يُرسل قائدًا من قوَّاده إلى أرض الأندلس، ويبقى هو في بلاد المغرب، بعيدًا عن تخطِّي القفار وعبور البحار، وبعيدًا عن ويلات الحروب وإهلاك النفوس، وبعيدًا عن أرض غريبة وأناس أغرب؛ لكنه رحمه الله وهو الشيخ الكبير يتخطَّى تلك الصعاب، ويركب فرسه، ويحمل رُوحه بين يديه، لسان حاله: أذهبُ إلى أرض الجهاد لعلِّي أموتُ في سبيل الله.

شعاره هو: [الوافر]

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ[٣]

لكنه رحمه الله لم يمت هناك، فلا نامت أعين الجبناء.

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس؛ مثل: ابن رميلة صاحب الرؤية المذكورة، وقاضي مَرَّاكُش أبي مروان عبد الملك المصمودي..

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٩.

(٢) انظر: عبد الله بن بلقين: التبيان، ص٣٣٩، نقلاً عن حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص٢٨٢، وسعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص٩٧.

(٣) ديوان المتنبي، ص١٩٥.

وغيرهما، رحمهم الله تعالى[١].

المعتمد على الله بن عباد وشرف الجهاد:

ولما دخل ابن عباد إِشْبِيلِيَة جلس للناس وهُنِّئ بالفتح، وقَرَأت القرَّاء، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه، يقول عبد الجليل بن وهبون: حضرتُ ذلك اليوم وأعددتُ قصيدة أُنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠]. فقلتُ: بُعْدًا لي ولشعري، والله! ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به، وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة وشهر مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة، ولم يزل ملحوظًا معظَّمًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان[٢].

***

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٥٠.

الفصل الثامن

سقوط ممالك الطوائف

ظلَّ الصراع بين المسلمين والنصارى قائمًا بعد الزلاقة، بل لقد كثر عيث النصارى في بلاد المسلمين، وتخريبهم لها، ولم يستطع حكام الطوائف فعل شيء، بل وصلت الأحوال إلى أن سقطت بلنسية -وهي حاضرة الشرق الأندلسي، ومن أبرز حواضر الأندلس كلها- في يد النصارى. كذلك لم تنته الصراعات بين ملوك الطوائف وما نفَّذوا وصية يوسف بن تاشفين لهم بالاتحاد؛ فاستغاث الناس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمرة الثانية، وكذلك فعل المعتمد بن عباد -أيضًا- فمن أجل ذلك كان الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى أرض الأندلس.

ويتكرر ما حدث في العبور الأول إذ يقوم المرابطون بنصرة الأندلسيين وهزيمة النصارى في أكثر من موقعة، إلا أنه وفي أثناء حصار حصن لبيط (Aledo) في سنة (٤٨١هـ=١٠٨٨م)، رأى من خداع أمراء الطوائف وشهد عندئذٍ من تمردهم ونفاقهم، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ما أغضبه وأحفظه عليهم، ثم تكررت هذه الأحوال للمرة الثالثة، فعبر ابن تاشفين مرة ثالثة إلى الأندلس في عام (٤٨٣هـ=١٠٩٠م)، فجهز جيوشه ودخل إلى الأندلس.

والواقع يقول أن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردَّد كثيرًا قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد ذلك وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس ولم يأخذ منها شيئًا، ثم يعود في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف، وتحالف بعضهم مع عدوِّ الإسلام، وكان الجواز الثالث لوضع حدٍّ لمهزلة ملوك الطوائف، لقد آن -

وباسم الإسلام- لهذه الدويلات الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي[١].

منذ أن انتهى من الجهاد في المرة الثانية، ثبت له بقاء حال أمراء الطوائف على ما هم عليه من تفرُّق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلَّف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين. بل لمَّا قام بحصار النصارى -عَقِبَ جوازه الثاني في حصن لبيط- تخلَّف بعض رؤساء الشرق عن معاونته، وقالوا: إنَّ طاعته ليست بواجبة؛ لأنه ليس إمامًا شرعيًّا من قريش. وأبشع من ذلك وأشنع أن رسالة قد وقعت في يد يوسف وُجِّهت من بعض ملوك الطوائف إلى العدو، يُشَجِّعه على المقاومة والصمود، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمرِّدِينَ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر، وأن الخطبة تجري باسمه على أكثر من ألفي منبر، وتُضْرَب السكة باسمه[٢].

ورغم دلائل الولاء هذه للخليفة في بغداد، إلا أن مَنْ لا ولاء لهم ولا انتماء من ملوك الطوائف تمسَّحوا الآن في الشرع، الذي ينتهكونه منذ حكموا حتى أذلوا المسلمين وبلادهم، ووضعوها في يد النصارى، وبذلوا لهم الأموال والهدايا، وتحالفوا معهم على إخوانهم المسلمين.

عندئذٍ اعتزم يوسف بن تاشفين أمره في افتتاح ممالك الطوائف، وأخذ يستولي عليها تباعًا، وأرسل إلى بغداد طلبًا للخليفة ليحصل على كتاب منه بتوليته المغرب والأندلس، وكان يهمه -إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافي- أن يحصل على سند شرعي يُبَرِّر تصرُّفه نحو أولئك الأمراء، فلما وصل الفقيه أبو محمد العربي وولده أبو بكر إلى بغداد، لقي الإمام أبا حامد الغزالي قطب فقهاء المشرق يومئذٍ،

---

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص٦٤، ٦٥.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٤١-٤٤.

وشرح له أحوال الأندلس، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين، وما كان عليه أمراء الطوائف من تفرُّق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلَّف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين. وشرحا له الحال، ثم طلب الفقيه ابن العربي إلى الإمام الغزالي أن يُزَوِّدَه فيما تقدَّم بفتوى تُبَيِّنُ حكم الشرع فيه، وأن يُزَوِّده بكتاب إلى أمير المسلمين، فأفتى الإمام الغزالي بحكم الشرع في موقف ملوك الطوائف، حسبما شرحه ابن العربي للإمام، وعن حقِّ يوسف في الحصول على المرسوم الخلافي بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه، وقد عاد الإمام الغزالي بعد ذلك، فكتب إلى يوسف كتابًا يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف، حسبما رواها له ابن العربي، وإلى ما كانت عليه الأندلس في ظلِّ حكمهم، من التخاذل والذل... ثم يُشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى في شأن ملوك الطوائف، وإلى ما كان ابن العربي بصدده من السعي إلى استصدار المرسوم الخلافي بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب، وتمكين طاعته، وإلى ما كان يبثُّه ابن العربي من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله؛ سواء في العراق أو في المشاهد الكريمة بأرض الحجاز.

وكذلك حصل ابن العربي من العلامة أبي بكر الطرطوشي -حين مروره على ثغر الإسكندرية، وهو في طريق العودة- على خطاب آخر برسم يوسف، ويُسدي الطرطوشي في كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقًا لكتاب الله.

وقد توفي الفقيه ابن العربي بثغر الإسكندرية في فاتحة سنة (٤٩٣هـ)، وعاد ابنه أبو بكر إلى الأندلس في العام نفسه، وهو يحمل الرسالتين- رسالة الغزالي ورسالة الطرطوشي- وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين[١].

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٧، ١٨٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٤١-٤٤.

يوسف بن تاشفين ودولة واحدة على المغرب والأندلس:

لم يكن دخول يوسف بن تاشفين الأندلس أمرًا سهلاً، فقد حاربه الأمراء هناك بما فيهم المعتمد على الله بن عباد، ذلك الرجل الذي لم يجد العزَّة إلاَّ تحت راية يوسف بن تاشفين رحمه الله قبل وبعد الزَّلاَّقَة، قام المعتمد على الله بمحاربته وأنَّى له أن يحارب مثله!

استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف، وانتهت بضمِّ كل ممالك الأندلس إلى دولة المرابطين، واستطاع أن يضمَّها إلى بلاد المسلمين، وقد أصبح يوسف بن تاشفين الآن أميرًا على دولة تملك من شمال الأندلس وبالقرب من فرنسا وحتى وسط إفريقيا، دولة واحدة اسمها دولة المرابطين.

ولقد ظلَّ هذا الشيخ الكبير يحكم حتى سنة (٥٠٠هـ=١١٠٦م)، وكان قد بلغ من الكبر عتيًّا، وتوفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد، وقد وفَّى تمام المائة[1]؛ منها سبع وأربعون سنة في الحكم، وكان تمام ستين سنة على ميلاد دولة المرابطين، تلك التي أصبحت من أقوى دول العالم في ذلك الزمان.

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٤٥، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٦.



خريطة رقم (١٢) دولة المرابطين

الفصل التاسع

الجهاد السياسي والعسكري للمرابطين

حاول المرابطون بعد دخولهم الأندلس تحرير الأراضي الأندلسية، التي أُخذت من المسلمين على مدار السنوات السابقة؛ فحاربوا في أكثر من جبهة، حتى اقتربت حدود دولة المرابطين من فرنسا[١].

كما حاولوا كثيرًا تحرير طُلَيْطلَة، (وكانت كما ذكرنا من قبلُ أنَّها من أكثر وأشدِّ مدن الأندلس حصانة على الإطلاق)؛ لكنهم فشلوا في هذا الأمر، وإن كانوا قد أخذوا معظم القرى والمدن التي حولها.

المرابطون ومواصلة الانتصارات:

بعد موت يوسف بن تاشفين بعام واحد، وفي سنة (٥٠١هـ=١١٠٧م) وبعد ما يقرب من اثنتين وعشرين سنة من الزَّلاَّقَة، تدور واحدة من أضخم المواقع بين المسلمين وبين النصارى، وهي التي سُمِّيَت في التاريخ بموقعة أُقْلِيش، وقد تولَّى القيادة فيها على المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين، وكان هذا في عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي تولى الدولة خلفًا لأبيه، وتولَّى القيادة على الصليبيين سانشو بن ألفونسو السادس، وانتصر المسلمون -أيضًا- انتصارًا ساحقًا في هذه الموقعة، وقُتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفًا من بينهم سانشو بن ألفونسو وقائد

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٤، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٠.

جيش النصارى[١]، وقيل عن هذه المعركة بأنها الزلاقة الثانية[٢].

وسانشو هذا هو ابن ألفونسو السادس من زوجته التي كانت قبل ذلك جارية -واسمها زائدة- أعجبت المأمون بن المعتمد بن عباد الذي كان واليًا على قرطبة، فلما انهزم المأمون وفتح المرابطون قرطبة فرَّت هي ومعها ولداها -حفيدا المعتمد- إلى ألفونسو فتنصرت وتزوجها، وأنجب منها ولده سانشو هذا، فهذه عاقبة الطغاة المستبدين!

كان سانشو في الحادية عشرة من عمره، وأرسله أبوه ألفونسو لإثارة حماسة الجند، بعدما أوهنته الشيخوخة ولم يعد قادرًا على قيادة الجيش بنفسه؛ إذ كان قد بلغ الثمانين في ذلك الوقت.

وتوالت انتصاراتُ المسلمين بعد هذه المعركة؛ ففي عام (٥٠٩هـ=١١١٥م) استطاع المسلمون أن يفتحوا جزر البليار، تلك التي كانت قد سقطت من جديد في عهد ملوك الطوائف، وقد أصبح المسلمون يُسيطرون على جزء كبير من أراضي الأندلس تحت اسم دولة المرابطين[٣].

ولقد مرَّت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

١ - مرحلة التدخُّل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزَّلاَّقَة.

٢ - مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظلَّ وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباغض بينهم، ولم يُفَكِّرُوا في الاندماج في دولة واحدة، بل فَضَّل بعضهم التقرُّب إلى الأعداء للكيد بالآخرين.

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٠.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث ص٢٥٣.
(٣) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٢.

٣ - مرحلة ضمِّ الأندلس إلى المغرب؛ فوضعوا حدًّا لمهزلة ملوك الطوائف[١].

مصير ألفونسو السادس:

حزن ألفونسو على وحيده سانشو حزنًا شديدًا، حتى مات بعدها بعشرين يومًا[٢]، وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩م (ذي الحجة من عام اثنين وخمسمائة[٣])، فحزن القشتاليون قاطبة لوفاته، وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عامًا من حكم قوي مستنير مجد قشتالة إلى قرون، وكان يلقب بـ «نور إسبانيا ودرعها»، وبلغت قشتالة في عهده من القوة ما لم توهنه بعدئذٍ حرب أهلية ولا تقسيم[٤].

ومن أشهر العلماء في عهد علي بن يوسف:

القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨-٥٤٣هـ=١٠٧٦-١١٤٨م):

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي الأندلسي المالكي، وُلِدَ في إِشْبِيلِيَة سنة ٤٦٨هـ، تعلَّم في الأندلس ثم ارتحل مع أبيه، فتعلَّم في بغداد ثم في دمشق ثم في بيت المقدس ثم في مكة ثم في مصر، وفي الإسكندرية مات أبوه فدفن هناك، ثم رجع إلى الأندلس في سنة (٤٩١هـ).

ومن أشهر شيوخه الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، والفقيه أبو بكر الشاشي، والعلامة الأديب أبو زكريا التبريزي، والطرطوشي وجماعة آخرين[٥].

وقد نقل إلى الأندلس علمًا كثيرًا وإسنادًا عاليًا، وتخرج على يديه أئمة كثيرون،

---

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص٧٢، والصلابي: دولة المرابطين، ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٩.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٠.
(٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١/ ١٤٢.
(٥) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٢٩٧.

من أشهرهم القاضي عياض، وأبو جعفر بن الباذش[(١)].

وله مؤلفات كثيرة من أشهرها: العواصم من القواصم، وأحكام القرآن، وأنوار الفجر في التفسير، أتمّه في ثمانين ألف ورقة، والناسخ والمنسوخ، والقبس، شرح موطأ مالك بن أنس، وعارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي[(٢)].

يذكره ابن بشكوال فيقول: «الإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها... كان من أهل التفنُّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدِّمًا في المعارف كلها، متكلِّمًا في أنواعها، نافذًا في جميعها، حريصًا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة ولين الكنف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحُسن العهد، وثبات الوعد، واستقضى ببلده فنفع الله به أهله لصرامته وشدَّته، ونفوذ أحكامه، وكان له في الظالمين سَوْرة مرهوبة، ثم صُرِفَ عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثِّه.

وتوفي رحمه الله بالعدوة ودُفِنَ بمدينة فاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[(٣)].

عياض بن موسى بن عياض القاضي (٤٧٦-٥٤٤هـ= ١٠٨٣-١١٤٩م):

هو القاضي الإمام المجتهد اليحصبي، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل، وُلِدَ بسَبْتَة في النصف من شعبان عام (٤٧٦هـ).

وقد ألف ابنه القاضي أبو عبد الله محمد كتابًا يذكر فيه مآثر أبيه، سماه:

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٠.
(٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ١٩٧، وما بعدها بتصرف.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٨٥٦.

(التعريف بالقاضي عياض)، وقد نَقل عنه الكثير من المؤرخين والعلماء، وكان عمرون (أبو جد القاضي عياض) رجلاً خيارًا من أهل القرآن، وحجَّ إحدى عشرة حجة، وغزا مع المنصور بن أبي عامر غزوات كثيرة، ثم انتقل إلى سَبْتَة ووُلد له ابنه عياض، ثم وُلِدَ لعياض ابنه موسى، ثم ولد لموسى القاضي أبو الفضل عياض.

وكان أبوه حافظًا لكتاب الله، مع الحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، أصوليًّا متكلمًا، فقيهًا حافظًا للمسائل، نحويًّا أديبًا شاعرًا خطيبًا.

رحل القاضي عياض إلى الأندلس، فدرس بقُرْطُبَة ومُرْسِيَة وغيرهما، ثم عاد إلى سَبْتَة، فكان من علمائها وهو ابن ثلاثين سنة أو أكثر بقليل، ثم جلس للشورى، ثم ولي القضاء، فسار في ذلك حسن السيرة مشكور الطريقة، ثم انتقل إلى غَرْنَاطَة في أول صفر سنة ٥٣١هـ، فتولى القضاء بها، ثم قضاء تادَلَة.

وله من المؤلفات كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وإكمال المُعْلِم في شرح مُسلم، والمُسْتَنْبَطَة على الكتب المدوَّنة والمختلطة، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، والإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.. وغيرها كثير.

قال ابن بشكوال: جمع من الحديث كثيرًا، وله عنايةٌ كثيرة به واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنُّن في العلم والذكاء واليقظة والفهم[1].

وقال الفقيه محمد بن حمادة السبتي: جلس القاضي -يعني القاضي عياضًا- للمناظرة وله نحو من ثمانٍ وعشرين سنة، وولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة، كان هَيِّنًا من غير ضعف، صلبًا في الحقِّ... ولم يكن أحدٌ بسَبْتَة في عصره أكثر

(١) ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٦٦٠، ٦٦١.

تواليف منه... وحاز من الرئاسة في بلده والرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلاَّ تواضعًا وخشية لله تعالى[١].

وقال عنه القاضي ابن خلكان في (وفيات الأعيان): كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم[٢].

وقال أبو عبد الله محمد الأمين في كتابه (المجد الطارف والتالد)، يصف مكانة القاضي عياض العلمية، وقدره الرفيع بين علماء الإسلام: «مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة... وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفًا معتبرًا من تواليف أهل الحديث، ولا أصحاب السير والفقهاء إلاَّ وجدته مشحونًا بكلامه، مع أنه لم يرتحل إلى المشرق»[٣].

وقد توفي رحمه الله بمَرَّاكُش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من سنة (٥٤٤هـ)، ودفن في باب إيلان من داخل السور[٤].

***

(١) انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، ٤/ ٦٨.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٨٣.
(٣) انظر: عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، ٢/ ٨٠٤.
(٤) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤/ ٢٢٢-٢٣٠، بتصرف.

الفصل الحادي عشر

المرابطون.. الضعف ثم الانهيار

في سنة (٥١٢هـ=١١١٨م) تحدث في داخل بلاد المغرب وفي عقر دار المرابطين ثورة تؤدي بأثر سلبي إلى هزيمتين متتاليتين لهم في بلاد الأندلس، كانت الأولى هزيمة قُتُنْدَة، والثانية هزيمة القُليعة.

المرابطون الهزيمة والانحدار.. وقفة متأنية:

على إثر قيام ثورة في المغرب في عقر دار المرابطين، وعلى إثر هزيمتين متتاليتين لهم في الأندلس من قِبل النصارى، يحق لنا أن نتساءل: لماذا تقوم الثورة في هذا الوقت في دولة المرابطين؟! ولماذا هذا الانحدار وتلك الهزائم المتتالية؟!

وفي تحليلٍ موضوعيٍّ لهذه الأحداث نعود بالتاريخ إلى بداية نشأة دولة المرابطين وقيامها، فمنذ عام (٤٤٠هـ=١٠٤٨م) ولمدة سبعين عامًا تقريبًا، وحتى عام (٥٠٩هـ= ١١١٥م) حيث الانتصارات المتتالية، وحيث العلو والارتفاع، وحيث الأموال والغنائم، والدنيا التي فُتِحَتْ على المسلمين، والتي وصلوا فيها إلى درجة عالية من العزِّ والسلطان والتمكين، فما المتوقَّع بعد ذلك، وما الأحداث الطبيعية التي من الممكن أن تحدث كما سبق ورأينا؟!

لا شكَّ أن الشيء الطبيعي والمتوقَّع حدوثه هو حصول انكسار من جديد للمسلمين، وحدوث فتنة من هذه الدنيا التي فُتحت على المسلمين، وفتنة من هذه

الأموال التي كثرت في أيديهم.

وقد يتساءل البعض: هل من المعقول بعد انتصارات أبو بكر بن عمر اللمتوني، وانتصارات يوسف بن تاشفين وأعماله، وبعد الزَّلاَّقَة، هل من المعقول بعد كل هذا أن يحدث انكسار للمسلمين؟!

وفي معرض الردِّ على هذا نقول: كيف نتعجَّبُ من حدوث هذا الانكسار الذي حدث بعد وفاة يوسف بن تاشفين، ولا نستغربه وقت أن حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ متجسدًا في الردَّة الكبيرة التي حدثت بين المسلمين؟! وهو -بلا شكٍّ- أعظم تربية وأقوى أثرًا من يوسف بن تاشفين ومَنْ على شاكلته؛ وخاصة إذا كانت هناك شواهد بَيِّنَة لهذا الانكسار وتلك الرجعة.

شواهد الانكسار وعوامل السقوط في دولة المرابطين:

كدورة طبيعية من دورات التاريخ، ومما لا يُعَدُّ أمرًا غريبًا أو غير متوقَّع، كانت هناك شواهد بَيِّنَة لانكسار وتراجع دولة المرابطين عما كانت عليه قبل ذلك؛ نستطيع أن نُجملها فيما يلي:

أولاً: فتنة الدنيا وإن ظلَّ أمر الجهاد قائمًا:

بالرغم من عدم توقُّف الجهاد، وبالرغم من صولات وجولات علي بن يوسف بن تاشفين، التي كانت له مع النصارى وفي أكثر من موقعة، إلاَّ أن المرابطين كانوا قد فُتنوا بالدنيا، وهو يُعَدُّ شيئًا غريبًا جدًّا، وفي تحليل لمنشأ هذا الشاهد وُجد أن سببه خطأ كبير كان قد ارتكبه المسلمون في دولة المرابطين، وهم عنه غافلون، وليتنا نأخذ العظة والعبرة منه؛ فقد جعلوا جُلَّ اهتمامهم التركيز على جانب واحد من جوانب الإسلام، وتركوا أو أهملوا الجوانب الأخرى، كما نرى من إغفال هذه الجوانب في كتب التاريخ؛ فقد انشغل المرابطون -في أرض الأندلس وفي بلاد

المغرب وما حولها من البلاد- بالجهاد في سبيل الله عن إدارة الحُكم وعن السياسة داخل البلاد، شُغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور الداخلية. والإسلام بطبيعته دين متوازن، ونظام شامل لا يُغَلِّب جانبًا على جانب، وقد رأينا مثالاً واضحًا لهذا الأمر في تلك الدولة المتوازنة التي أقامها عبد الرحمن الناصر رحمه الله، في نواحي العلم والجهاد، والاقتصاد والقانون، والعمران والعبادة.. وكل شيء؛ حيث الدولة التي تسدُّ حاجات الروح والجسد، فسادت وتمكَّنَتْ وظلَّت حينًا من الدهر.

ومثلها -أيضًا- كانت بداية دولة المرابطين وإقامة الجماعة المتوازنة على يد الشيخ عبد الله بن ياسين، تلك التي اهتم في قيامها بكل جوانب الحياة وعوامل ومقومات الدولة المتكاملة، التي تعطي كل جانب من مقوِّماتها قدرًا مناسبًا من الجهد والوقت والعمل، فتعلَّمُوا أن يكونوا فرسانًا مجاهدين، ورهبانًا عابدين، كما تعلَّمُوا أن يكونوا سياسيين بارعين، ومتعاونين على منهج صحيح من الإسلام وأصوله، لكن أن يُوَجِّه المسلمون كل طاقاتهم إلى الجهاد في سبيل الله في سَنَة خمسمائة من الهجرة وما بعدها، ثم يتركون أمور السياسة الداخلية وتثقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم، فتلك هي قاصمة الظهر.

ثانيًا: كثرة الذنوب رغم وجود العلماء:

كثرت الذنوب والمعاصي في دولة المرابطين؛ سواء أكان ذلك في الأندلس أو في أرض المغرب، وهذا مع وجود العلماء الكثيرين في ذلك الوقت، وكثرة الذنوب كان أمرًا طبيعيًّا خاصَّة بعد أن فُتحت البلاد وكثرت الأموال؛ وذلك لأن معظم الذنوب تحتاج إلى أموال لاقترافها، وأصحاب النفوس الضعيفة، الذين كانوا يقطنون في دولة المرابطين (في المغرب) وكانوا يفكرون في الذنوب لكن لا يقدرون عليها، أما الآن وقد فُتحت الدنيا عليهم وكثرت الأموال في أيديهم، فتحرَّكت هذه النفوس الضعيفة ناحية الذنوب، وبدأت ترتكب من الذنوب والكبائر ألوانًا وأشكالاً.

ولا شكَّ أنه كان هناك الغني الشاكر، لكن الحق أن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة، والأصل أن الناس جميعًا يُفتنون بالدنيا، ويقعون في الذنوب إذا كثر المال في أيديهم، يقول ﷻ في معرض قصة نوح ﷺ: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. والأراذل هم ضعاف الناس وبسطاء القوم وفقراؤهم، وهم الذين اتبعوا نوحًا ﷺ، واتبعوا الرسل من بعده، واتبعوا كل الدعاة إلى يوم القيامة؛ ومن هنا فإنَّ كثرة الذنوب أمر طبيعي ومتوقَّع كنتيجة مباشرة لكثرة الأموال، لكن أين العلماء الكثيرون المنتشرون في بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي في ذلك الوقت؟!

كيف يُفتن الناس بالدنيا وراية الجهاد خفَّاقة، وكيف تكثر الذنوب رغم وجود العلماء الأجلاَّء؟!

واقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني وذاك الانحدار؛ إذ نراهم وقد انشغلوا بفرعيات الأمور وأغفلوا أساسياتها؛ لقد طرقوا أمورًا وتركوا أمورًا أولى وأهمَّ منها، أخذوا يُؤَلِّفون المؤلفات، ويعقدون المناظرات، ويُقَسِّمون التقسيمات في أمور لا ينبني عليها كثير عمل، ولا كثير جدوى؛ بينما أغفلوا أمورًا ما يصحُّ لهم أبدًا أن يتركوها أو يُغفلوها، يقول عبد الواحد المراكشي: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلاَّ مَنْ عَلِمَ الفروع -أعني فروع مذهب مالك- فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعُمِلَ بمقتضاها، ونُبِذَ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ؛ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل مَنْ ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم مَنْ

ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدَّى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعُّد مَنْ وُجِدَ عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي ﷺ المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدَّم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى مَنْ وُجِدَ عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»[1].

لقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين بالفعل كتب أبي حامد الغزالي، باعتبارها تخالف الإسلام الصحيح، وهو الإمام الذي لقب بحجة الإسلام، وكان سيد فقهاء المشرق، وهو الذي أفتى ليوسف بن تاشفين بحكم الشرع في ملوك الطوائف، فكانت فتواه أقوى ما استند إليه يوسف في إزالة ممالك الطوائف وتوسيع دولة المرابطين!

النتائج التي ترتَّبَتْ على تعمق العلماء في الفروع دون الأصول:

كان اتِّجاه العلماء في ذلك الوقت إلى التعمُّق في الفروع وإهمال الأصول، كمَنْ ترك لُجَّة البحر واتجه إلى القنوات الفرعية، فأنَّى له الوصول؟! وأنَّى لعمله الفائدة المرجوَّة منه؟! فكان -ونتيجة طبيعية لذلك- أن نتج عن هذا القلب الخاطئ، وذاك التعمق في الفروع تلك الأمور الخطيرة التالية:

أولاً: جدال عظيم عقيم بين العلماء والعامة:

وذلك أن العلماء لم يفهموا أو لم يستطيعوا أن يتفهموا حاجة العامة، كما لم تعرف العامة ما يتنطَّع به العلماء، وقد كان نبينا ﷺ -وهو أعلم البشر، وأحكم الخلق- يتكلَّم بالكلمة فيفهمه علماء الصحابة ويفهمه الأعرابي البسيط، كما كان

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٣٦، وما بعدها.

يفهمه الرجل وتفهمه المرأة، والكبير والصغير، كلٌّ على حدٍّ سواء.

ثانيًا: عزلة العلماء عن مجتمعاتهم:

باتجاه العلماء إلى دقائق الأمور من الفروع لم يَعُدْ يشغلهم حال مجتمعاتهم، ولم يعودوا هم يعرفون شيئًا عمَّا يدور فيها، وما يحلُّ بها من مصائب وذنوب، فتوسَّعت الهوَّة كثيرًا بينهم وبين مجتمعاتهم، وحدثت بذلك عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين؛ فكانت الخمور تُباع وتُشترى، بل وتُصنَّع في البلاد ولا يتكلَّم أحد، وكانت الضرائب الباهظة تُفرض على الناس غير الزكاة وبغير وجه حقٍّ، ولا يتكلَّم من العلماء أحد، وكان الظلم من الولاة لأفراد الشعب ولا يتكلم من العلماء أحد، وكانت هناك ملاهي الرقص لا تُستر، بلْ تُعْلِن عن نفسها في سفور ولا يتكلم من العلماء أحد، وإنه لعجب والله! أن تحدث مثل هذه الأمور في هذا الزمن (من بعد سنة خمسمائة من الهجرة) وتلك الدولة المرابطية، فقد كانت النساء تخرج سافرات بلا حجاب، والعلماء لاهون بالحديث عن المرجئة والمعطِّلة، وغيرها من أمور الجدال العقيمة والفُرْقَة المقيتة، ويعتقدون أن مثل هذه الأمور هي التي يجب أن يُشغَل بها المسلمون، وغيرها هي الأقل أهمية من وجهة نظرهم[1].

ثالثًا: أزمة اقتصادية حادة:

كان من بين شواهد الانكسار الأخرى في نهاية دولة المرابطين، وبعد فتنة الدنيا والمال، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، وكثرة الذنوب، وجمود الفكر عند العلماء وانعزالهم عن المجتمع، كان فوق كل هذه الأمور أن حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين؛ ففي سنة (٥٣٢هـ) وقع السيل العظيم بطنجة، حمل الديار

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤١، وانظر وثائق مرابطية نشرها حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد – العدد ٢ (سنة ١٩٥٤م).

والجدر، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب(١). وكذلك فتك الجراد بحقول الأندلس من سنة (٥٢٦هـ) وحتى سنة (٥٣١هـ)، فاشتدت المجاعة وانتشر الوباء في سنة (٥٢٦هـ) بأهل قُرْطُبَة، فكثر الموتى وبلغ مُدُّ القمح ١٥ دينارًا(٢)، وكان قد وقع قبل ذلك بسنة (٥٢٥هـ)، حريق ضخم في سوق الكتانين بقرطبة، واتصالها بسوق البز، كذلك حدث في سنة (٥٣٥هـ) حريق ضخم آخر في سوق مدينة فاس، فاحترقت سوق الثياب والقراقين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون، وأن ذلك كان في أول الليل فتلفت أموال جليلة، وافتقر فيه خلق كثير(٣).

وبعض المصادر تتحدث -أيضًا- عن القحط الذي حلَّ بالبلاد، فيبست الأرض وجفَّ الزرع وهلكت الدواب(٤).

وقد يرى البعض أن هذا من قبيل المصادفة البحتة والعجيبة في الوقت نفسه، لكنها والله! ليست مصادفة؛ بل هي في كتاب الله ﷻ ومن سُنَنِه الثوابت، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦].

وهذا كلام نوح عليه السلام في حديثه لقومه؛ حيث يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٣].

فالله ﷻ يبتلي المؤمنين دائمًا بالقحط وبالأزمات الاقتصادية الحادة عندما يبتعدون عن طريقه، وعن نهجه القويم الذي رسَمَهُ لهم، ومن هنا فلو لوحظ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٩٦.
(٢) ابن القطان المراكشي: نظم الجمان، ص٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢.
(٣) المصدر السابق، ص٢٢٢، ٢٦٨.
(٤) انظر: مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، نقلاً عن الصلابي: دولة المرابطين، ص٢٢٩.

تدهور في الحالة الاقتصادية لأحد البلدان أو المجتمعات، وبدأت الأموال تقلُّ في أيدي الناس، وبدءوا يعملون لساعات وساعات ولا يحصل لهم ما يكفي لسدِّ رمقهم، أو ما يكفي لعيشهم عيشة كريمة، فاعلم أن هناك خللاً في العلاقة بين العباد وربهم ﷻ، وأن هناك ابتعادًا عن منهجه وطريقه المستقيم؛ إذ لو كانوا يُطيعونه لبارك لهم في أقواتهم وأرزاقهم.

وبالطبع سبق وأعقب هذه الأحداث التي وقعت في بلاد المرابطين هزائم متعدِّدَة من قِبل النصارى، فكانت -كما ذكرنا- موقعة قُتُنْدة في سنة (٥١٤هـ=١١٢٠م)، والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة منكرة[1]، ومثلها وبعدها -أيضًا- كانت موقعة القُليعة في سنة (٥٢٣هـ=١١٢٩م)، والتي مُني فيها المسلمون -أيضًا- بالهزيمة المنكرة[2].

* * *

(١) انظر في خبر هذه الموقعة: ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٢٠٦.
(٢) انظر خبر هذه الموقعة: ابن القطان: نظم الجمان، ص١٥٢، وما بعدها.

الباب الثامن
عصر الموحدين

الفصل الأول

محمد بن تومرت وتأسيس دعوة الموحدين

المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣-٥٢٤هـ = ١٠٨٠-١١٣٠م) وبداية الدعوة [illegible]

كانت دولة المرابطين تتَّجه بقوَّة نحو هاوية سحيقة وكارثة محقَّقة، وكان لا بُدَّ أن تتحقَّق سُنَّة الله تعالى بتغيير هؤلاء واستبدالهم بغيرهم، وهذا ما تمَّ بالفعل؛ إذ قام سنة (٥١٢هـ= ١١١٨م) رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية (البربرية) يُدعى محمد بن تومرت بثورة على المرابطين، وكان محمد بن تومرت صاحب منهج في التغيير والإصلاح مختلف بالكلية عن منهج الشيخ عبد الله بن ياسين رحمه الله.

وقد وُلِدَ محمد بن تومرت هذا سنة (٤٧٣ هـ= ١٠٨٠ م) [١]، ونشأ في بيت متدين في قبيلة مصمودة[٢]، وقد نسب هو نفسه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب[٣]، لكن غالبَ الأمر أنه من قبائل الأمازيغ (البربر) في هذه المنطقة، وقد ظلَّ محمد بن تومرت في هذا البيت إلى سنة (٥٠٠هـ= ١١٠٧م)، وكان قد بلغ من العمر آنذاك

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠١، فقد قال: «ثم مات المهدي وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمسًا وخمسين سنة». وعلى هذا فهو إمَّا مولود في ٤٦٩ أو ٤٧٣هـ، وفي مولده اختلاف كبير غير هذا.

(٢) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٦.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٤٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٦، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٣٩: «[illegible]، وأنه الإمام المعصوم المهدي».

سبعًا وعشرين سنة، وكان شغوفًا بالعلم، وكانت عادة الطلاب في ذلك الزمن أن يتجوَّلوا في سائر البلاد الإسلامية؛ ليتعلموا من علماء المسلمين في مختلف الأقطار؛ ولهذا فقد سافر محمد بن تومرت في سنة (٥٠٠هـ= ١١٠٧م) إلى قُرْطُبَة وتلقَّى العلم هناك، ولم يكتفِ بذلك بل عاد وسافر إلى بلاد المشرق، فذهب إلى الإسكندرية ثم إلى مكة، حيث أدَّى فريضة الحجِّ، وهناك تتلمذ على أيدي علماء مكة فترة من الزمان، ثم رحل إلى بغداد وقضى فيها عشر سنوات كاملة؛ يتلقَّى العلم على أيدي علماء بغداد جميعهم، وكانت بغداد تموج آنذاك بتيارات مختلفة من علماء السُّنَّة والشيعة والمعتزلة.. وغيرهم الكثير ممن أخذ وتلقَّى على أيديهم العلم.

وذهب محمد بن تومرت بعد ذلك إلى المشرق، وتَذْكُر بعض المصادر أنه تلقَّى العلم على الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله -إلا أن هذا غير صحيح بيقين(1)- وعاد

---

(١) يقول الأستاذ عبد الله عنان مفندًا هذه المقولة: «ونحن نقف قليلاً عند هذه الرواية، التي يُرَدِّدها كثير من مؤرِّخي المشرق والمغرب؛ إذ متى وأين كان هذا اللقاء؟ وفي أي الظروف؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم سنة ٥٠٠ أو ٥٠١هـ، وقضى فترة في الأندلس، وفي المهدية، وفي الإسكندرية، ثم سافر لقضاء فريضة الحج، وقصد على إثر ذلك إلى بغداد، وإذًا فيكون من المرجَّح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥هـ، وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي (٤٨٤، ٤٨٨هـ=١٠٩١، ١٠٩٥م)، وفي سنة ٤٨٨هـ غادر العاصمة العباسية في رحلته التأملية الشهيرة التي استطالت حتى ٤٩٩هـ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة، وإذًا فيكون من المستحيل ماديًّا أن يكون ابن تومرت -الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠هـ- قد استطاع أن يلتقي بالغزالي في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالي؛ ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة، ثم رحل منها إلى نيسابور، حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في (جمادى الثانية ٥٠٥هـ= ديسمبر سنة ١١١٢م).

ويتضح من ذلك جليًّا بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية، وفضلاً عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة؛ ذلك أنها تُقرن بواقعة أخرى خُلاصتها أن ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالي، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه (إحياء علوم الدين) بالمغرب والأندلس، تغيَّر وجهه، ورفع يده إلى الدعاء، والطلبة يُؤَمِّنُون، فقال: «اللهم مزِّق ملكهم كما مزَّقوه، وأذهب دولتهم كما أحرقوه». وأن ابن تومرت رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده، فاستجاب الإمام، ودعا الله بذلك.

بعدها إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب العربي[١]، ويصف ابنُ خلدون محمدَ بن تومرت بعد عودته تلك في سنة (٥١٢ هـ= ١١١٨م) وكان قد بلغ من العمر تسعًا وثلاثين سنة، فيقول: أصبح محمد بن تومرت «بحرًا متفجرًا من العلم، وشهابًا واريًا من الدين»[٢]. يعني أنه جمع علومًا كثيرة وأفكارًا جمَّة من تيارات إسلامية مختلفة، وأصبح بالفعل من كبار علماء المسلمين في هذه الآونة.

محمد بن تومرت ونهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في طريق عودته من بلاد العراق والشام مكث محمد بن تومرت فترة في الإسكندرية يُكمل فيها تعليمه، وهناك بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن خلال سيرته ورغم أنه -كما ذكرنا- كان عالِمًا كبيرًا، إلاَّ أنه كان شديدًا غاية الشِّدَّة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف، شِدَّة تصل إلى حدِّ التنفير، فكان يَنْفرُ عنه كثير من الناس حينما يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، حتى إنه خرج من الإسكندرية

= وينقض هذه الواقعة من أساسها أن قرار المرابطين بحرق كتاب (الإحياء) قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣هـ في أوائل عهد علي بن يوسف، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرة، وقبيل وفاته بنحو عام، فأين إذًا ومتى كان لقاء ابن تومرت به؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية، أن نصدق تلك القصة التي نُسجت حول حرق كتاب الإحياء؟
هي أسطورة إذًا، نُسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت؛ لتغدو هالة تُحيط بشخصه وسيرته، وتُذكي عناصر الخفاء والقدسية حول شخصه وإمامته، وقد اختير الإمام الغزالي لبطولتها بالذات لتبوُّئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي... ومن ثَمَّ فإنا نجد كثيرًا من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها، فابن الأثير ينفيها بصراحة ويقول لنا: «والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أي: بالغزالي)». ويُبْدِي ابن خلدون ريبة فيها، ويحملها على محمل الزعم، وكذلك يُعاملها لسان الدين بن الخطيب، وكذلك فإن البحث الحديث يُنكرها وينفيها، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني ميللر، والعلامة المستشرق إجناس جولدسيهر... على أن ذلك كله لا يعني أن ابن تومرت لم يتأثَّر في تعاليمه الدينية بآراء الغزالي ونظرياته...». محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ١٦١-١٦٣.

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٥، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧٨.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٦.

مطرودًا منها، طرده واليها بعدما خشي منه، ثم ركب في سفينة متَّجهة إلى بلاد المغرب العربي، وعلى السفينة -أيضًا- ظلَّ محمد بن تومرت على حِدَّته في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فمنع الخمور على ظهر السفينة، وأمر بقراءة القرآن.

واشتدَّ على الناس واختلف معهم كثيرًا، فألقوه في عُرض البحر، وتركوه وساروا إلى بلاد المغرب، وهو يسبح بإزاء السفينة نصف يوم كامل، فلما رأوا ذلك اشفقوا عليه، وأنزلوا مَنْ أخذه من البحر وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب [١]، وفي تونس تنتهي رحلته فينزل إلى بلد تُسَمَّى المهدية، ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق، وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكرًا من آلة الملاهي، أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاءوا إليه وقرءوا عليه كتبًا من أصول الدين [٢].

كان محمد بن تومرت يُرِيد تغيير المنكر كله تغييرًا جذريًّا ودفعة واحدة، والحقُّ أن هذا أمر مخالف لسُنَن الله تعالى؛ فحين بدأ الرسول ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة لم يأمر بهذا التغيير الجذري المفاجئ ولا سعى إليه، بل إن الأمور كانت تتنزل عليه ﷺ من عند الله ﷻ بصورة متدرِّجَة؛ فقد نزل أمر اجتنابُ الربا على درجات متسلسلة، ومراعية للتدرُّج مع الناس، وكذلك كان الأمر في تحريم الخمور وتجريمها، والناس قبل ذلك لم تكن تعرف لكليهما حرمة، حتى في أمر الجهاد والقتال في سبيل الله؛ فلم يتنزل هذا التكليف دفعة واحدة.

تلك الأمور التي فقهها جيدًا عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين تولَّى الخلافة؛ فقد كانت هناك كثير من المنكرات في دمشق وما حولها من البلاد، وكان ابن عمر بن

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٦.
(٢) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧٩.

عبد العزيز رحمه الله شديدًا في الحقِّ، فأراد أن يُغَيِّرَ كل هذه المنكرات مستقويًا بسلطان أبيه، إلاَّ أنه وجد أباه عمر بن عبد العزيز يسير فيها بطريقة متدرِّجة فشقَّ ذلك عليه، فذهب إليه، وقال له: يا أبي؛ أنت تملك الأمور الآن، ولك هيمنة على بلاد المسلمين، فيجب أن تُغَيِّرَ هذا المنكر كله، وتُقيم الإسلام كما ينبغي أن يُقام. فقال له عمر بن عبد العزيز رحمه الله: يا بُنَيَّ؛ لو حملتُ الناس على الحقِّ جملةً واحدة تركوه جملةً واحدة(1).

لكن محمد بن تومرت لم يكن ينحو مثل هذا المنحى، إنما يُريد أن يُغَيِّرَ كل شيء تغييرًا جذريًّا، بل وبأسلوب فظٍّ شديد، وقد قال جَلَّ شأنه يخاطب نبيَّه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. خطابٌ لشخصه ﷺ؛ وهو المؤيَّد بالوحي، وأحكم الخلق، وأعلم البشر جميعًا: إن دعوتَ إلى الله ﷻ بفظاظة وغلظة انفضَّ الناس عنك، فما البال بعموم الناس من دونه؟!

محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي ولقاء الأفكار الثورية

ولما كان ابن تومرت في بجاية قابل رجلاً، كان يُريد هو -أيضًا- ما كان يُريده ابن تومرت في أوَّل رحلته في طلب العلم إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، ذلك الرجل كان يُدعى عبد المؤمن بن عليٍّ، وفي أول لقاء له به سأله عن سبب تركه لبلاده وسياحته في البلاد، فأجابه بأنه يبحث عن العلم والدين، فردَّ عليه محمد بن تومرت بأن بضاعتك وما تبغيه لديَّ، فالتقيا كثيرًا، وقد أخذ محمد بن تومرت يُعَلِّمُه من علمه ما أعجب عبد المؤمن بن علي كثيرًا، وتآخيا في الله، وظلاَّ معًا في طريقهما لم يفترقا حتى مات محمد بن تومرت على نحو ما سيأتي بيانه(2).

---

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٦/ ٤١٩.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٢٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨٠، ومنهم من قال: إنه لقيه بملالة على بعد فرسخ من بجاية. ومنهم من قال: بفنزارة من بلاد متيجة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص١٠٠.

أخذ عبد المؤمن بن علي العلم من محمد بن تومرت مع الطريقة الفظَّة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الاثنان معًا يدعوان إلى الله ﷻ في بلاد المغرب العربي، وقد انضمَّ إليهما خمسة آخرون، وأصبحوا بذلك سبعة أفراد بمحمد بن تومرت نفسه[١]، وعلى هذه الحال وجد محمد بن تومرت ومن معه أن المنكرات قد كثُرت بصورة لافتة في بلاد المرابطين، ووجد أن الخمور قد تفشَّت حتى في مَرَّاكُش، تلك العاصمة التي أسَّسها يوسف بن تاشفين ؒ من قبل، وكانت ثغرًا من ثغور الإسلام، كما رأى الولاةَ وقد بدءوا يظلمون الناس، ويفرضون عليهم الضرائب، ويأكلون أموال اليتامى، ووجد -أيضًا- ذاك السفور والاختلاط قد انتشر وصار شيئًا مألوفًا بين الناس؛ حتى إنه شاهد بنفسه امرأة سافرة وقد خرجت في فوج كبير، وعليه حراسة مما يماثل أفواج الملوك، وحينما سأل عن صاحبة هذا الفوج وتلك المرأة السافرة، علم أنها أخت أمير المسلمين عليٍّ بن يوسف بن تاشفين، فأنكر ذلك عليها إنكارًا شديدًا؛ حتى إن بعض المصادر تثبت أنه وأصحابه كانوا يضربون وجوه مطاياها حتى أوقعوها من عليه[٢].

محمد بن تومرت وفكرته في التغيير

لا بُدَّ من تغيير لهذا الوضع المخزي، كانت هذه هي الفكرة التي اختمرت واستحوذت على رأس محمد بن تومرت؛ فجلس مع أصحابه وعددهم ستة نفرٍ، ثم عرض عليهم فكرته في التغيير، فكان رأيه أن المعاصي والمنكرات قد استشرت في بلاد المرابطين، وأن السيل قد بلغ الزبى، وأن الحلَّ في هذا الأمر هو أن نبدأ بالرأس، ونُقصي الحُكَّام عن الحُكْم، فنبدأ بعليٍّ بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه من الحُكَّام

---

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/ ٤٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٤٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨٣.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٣١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.

والولاة وقادة الجيش، فنخرج عليهم فنُقصيهم عن الحُكم؛ ومِنْ ثَمَّ يكون الأمر في أيدينا، فنستطيع أن نُغَيِّر في البلاد وَفْق ما يقتضيه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فمحمد بن تومرت يُرِيد أن يختصر طريق التربية، ويختصر الطريق الطويل الذي بدأه عبد الله بن ياسين من قبله، والذي سار فيه سنوات وسنوات حتى تمكَّن من الأمور، يُريد إقصاء علي بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه، ثم بعد أن يتملَّك الأمور يبدأ في تعليم الناس من فوق كرسي الحُكم وبسلطان القانون.

وإذا أكملنا السير مع محمد بن تومرت فإن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كان يُقيم شرع الله ﷻ، وكان يجاهد في سبيل الله، إلاَّ أنه كانت تشوبه بعض التجاوزات والمخالفات، مثل التي ذكرناها، وهذه المخالفات لم تكن تُعطي الحق لمحمد بن تومرت ومَنْ معه -أيًّا كانت نياتهم فيما يبدو لنا، وأيًّا كان تقشُّفهم وزهدهم وعلمهم الغزير- أن يخرجوا عليه، بل كان عليهم أن يُقيموا الأمر من جديد، وأن يُعاونوه على العودة إلى طريق الإسلام الصحيح، وكان عليهم تعليم الناس وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة.

ولننظر إلى تغيير رسول الله ﷺ في بداية الدعوة، وحينما خالفه المشركون في مكة؛ فقد كان من الممكن أن يفعل الأمر نفسه الذي فكَّر فيه محمد بن تومرت، كان من الممكن أن يُوصي عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوَّام وطلحة بن عبيد الله أن يقوم كلٌّ منهم فيقتل رجلاً من صناديد قريش، ثم يتولَّى هو الحُكم في مكة، ومِنْ ثَمَّ يُقيم شرع الله ﷻ.

ولأنها ليست سُنَّة الله في التغيير لم يَتَّبِعْها رسول الله ﷺ، بل أخذ يُرَبِّي الناس بالتدريج سَنَةً بعد سَنَةٍ، حتى قضى ثلاث عشرة سنة في مكة على تلك الحال، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وتابع مسيرته في تربية الناس بالتدريج، حتى كانت موقعة

بدر مع الكافرين، وتلتها المواقع الكثيرة التي أصقلت معادن المؤمنين؛ حتى تمكَّن رسول الله ﷺ بعد ذلك من السيطرة على الأمور كلها في جزيرة العرب، واستطاع أن يُنشئ جيلاً من الرجال على طراز فريد من نوعه، استطاعوا من بعده أن يحملوا الرسالة إلى أهل الأرض قاطبة.

بين علي بن يوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت:

هذا هو المنهج الذي سلكه محمد بن تومرت قاصدًا به الإصلاح والتغيير، وهو -بلا أدنى شكٍّ- مخالف تمامًا للنهج القويم، ونهج رسول الله ﷺ في العمل ذاته على نحو ما رأينا.

سمع عليٌّ بن يوسف بن تاشفين بمحمد بن تومرت وبدعوته، وبمنطق سليم فكَّرَ الخليفة في عقد مناظرة بين محمد بن تومرت وبين علماء دولة المرابطين، يكون مقرُّها قصر الخليفة نفسه، فقدم محمد بن تومرت على رأس أتباعه الستة، وأتى علماءُ المرابطين، وكان على رأسهم كبير العلماء وقاضي القضاة مالك بن وهيب، وبدأ الفريقان في المناظرة.

ونظرة أولية إلى فكرة عَقْد مثل هذه المناظرة يُوحي بأن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كان رجلاً ما زال يحمل من الخير الكثير، وإلاَّ فإنه -وعلى أقلِّ تقدير- كان من الممكن أن يفتعل مثل هذه المناظرة ويقوم بعدها بسجن محمد بن تومرت، أو قتله أو فعل أيِّ شيء آخر من هذا القبيل، خاصَّة وهو ذلك الثائر على الحاكم، والذي يُريد قلب وتغيير نظام الحُكم، وهذا ما سيزداد تأكيدًا في نهاية هذه المناظرة في صالح الأمير على نحو ما سيأتي.

وفي هذه المناظرة تفوَّق محمد بن تومرت على علماء دولة المرابطين تفوُّقًا ملحوظًا؛ فقد كان -كما ذكرنا- من كبار العلماء المتشبِّعين بالعلم، وكان كما وصفه ابن خلدون بحرًا متفجِّرًا من العلم وشهابًا في الدين، وهو الذي أمضى عشر سنين

في بغداد يتعلَّم علم المجادلة، وفنون المحاورة على يد العقليين من المعتزلة وغيرهم، فاستطاع محمد بن تومرت أن يحاجَّ علماء دولة المرابطين جميعًا في كل القضايا التي أُثيرت بينه وبينهم، حتى بكى عليُّ بن يوسف بن تاشفين في مجلسه؛ لما رأى من كثرة المعاصي في دولته، وهو لا يدري عنها شيئًا، أو هو يدري عنها لكنه لم يُغَيِّرْها، بكى من الخشية لَمَّا سمع حجج وأقاويل محمد بن تومرت، لكن ذلك لم يشفع له عنده، وظلَّت الحِدَّة واضحة جلية في كلامه وحديثه مع الأمير.

وكان علماء الدولة ووزراؤها يعلمون أنه يُحَرِّض الناس على الخروج على الحاكم، فأَسَرَّ مالك بن وهيب قاضي القضاة في أُذنِ عليِّ بن يوسف بن تاشفين؛ بأنَّ عليه أن يعتقل هذا الرجل، ويُنفق عليه دينارًا كل يوم في السجن، وإلا ستمرُّ عليك الأيام فتُنفق عليه كل خزائنك دون أن تقدر عليه؛ لكن الوزير أشار على علي بن يوسف بن تاشفين بعدم فعل ذلك؛ خاصَّة وأنه جلس في مجلسه وبكى من خشية الله ﷻ حين سمع كلماته، فلا يُعقل أن تأتي بعد ذلك وتعتقله، فتَحْدُث بذلك بلبلة عند عموم الناس، كما أنه بمَنْ معه سبعة نفر فقط، أمَّا أنت فحاكم دولة ضخمة، وهي دولة المرابطين؛ فكيف تخشى من هذا الرجل؟!

ووازن عليُّ بن يوسف بن تاشفين بين رأي مالك بن وهيب قاضي القضاة وبين رأي الوزير، واستقرَّ أخيرًا على ترك محمد بن تومرت؛ خشية أن يأثم إن حبسه دون وجه حقٍّ؛ فالرجل ما زال به خير، وكان من الممكن أن يُصلح أمره إذا حاول معه محمد بن تومرت ومَنْ معه بالتي هي أحسن، لكنه لم يفعل[1].

محمد بن تومرت وجماعة الموحدين

ما أن خرج محمد بن تومرت من مجلس الأمير علي بن يوسف بن تاشفين من

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥١، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٣١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.

مَرَّاكُش حتى نزل على صديق له في بلد مجاور، وذهبوا بعدها إلى قرية في عمق الجبل اسمها تينملل، وهي التي ستكون عاصمة للدولة التي سوف يُؤَسِّسها محمد بن تومرت بعد ذلك[١].

وكان محمد بن تومرت زاهدًا أشدَّ الزهد، وكان لا يحمل في يده إلا عصا وركوة[٢]، ولا يأكل إلا القليل من الطعام، وكان -كما ذكرنا- صاحب علم غزير، فبدأ الناسُ في هذه القرية الصغيرة يلتفُّون حوله ويسمعون لكلامه، وبدأ يُؤَثِّر فيهم بشكل طبيعي؛ لِمَا كانوا عليه من المعاصي والمنكرات، تلك التي انتشرت في بلاد المرابطين، ثم بدأ يُكَوِّن حوله جماعة بدأت صغيرة، وقد سمَّاها جماعة الموحدين[٣]، وهي تسمية خطيرة لما سنعلمه بعد قليل.

يذكر عبد الواحد المراكشي مراحل دعوة ابن تومرت وتربيته الناس في تينملل، فيقول: «من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يُظهر إمرة ولا طلبة ملك، وألَّف لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان، فلمَّا فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه؛ أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء، ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة، وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويُشَوِّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلمَّا قَرَّر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله. ورفع نسبه إلى النبي ﷺ وصرح بدعوى العصمة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٥٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٤٥٥.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والدلو الصغيرة. المعجم الوسيط ١/ ٣٧١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٥١.

لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة؛ حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله ﷺ رسولَ الله. ثم صنَّف لهم تصانيف في العلم منها: كتاب سماه (أعز ما يطلب)، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يُبطن شيئًا من التشيُّع، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شيء»[1].

قويت شوكة محمد بن تومرت، وبمجرَّد أن قويت شوكته ظهرت عليه انحرافات عقائدية خطيرة؛ فقد كان لأخذه العلم من تيارات مختلفة تُمَثِّل سُنَّة وشيعة ومعتزلة، وغيرهم في بلاد الشام وبغداد ومكة ومصر وغيرها من البلاد، كان من جرَّاء ذلك أن ظهر عليه خليط من العقائد المختلفة؛ والتي تمثَّلت فيما يلي:

أولا: ادّعى العصمة:

وعند أهل السُّنَّة والجماعة أن العصمة لم تَثْبُت إلاَّ للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يقولوا بها لغيرهم، حتى لكبار الصحابة الذين خَصَّهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم[2]؛ فابن تومرت بهذا النهج قد وافق الرافضة الاثني عشرية، الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان، كما قالوا: إن الإمام كالنبي، يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سنِّ الطفولة إلى الموت، عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان[3].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥٤، وابن الأثير: الكامل ٩/ ١٩٦.

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج أهل السنة، ٧/ ٥٩.

(٣) انظر: أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، ص١٤٢، والخميني: الحكومة الإسلامية، ص٥٢، ومن المفيد أن نتقل قول الخميني: «وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله».

وهكذا نرى محمد بن تومرت قد اشتطَّ كثيرًا في القول بالعصمة لنفسه، وهذا - بلا شكٍّ- انحراف عقدي خطير؛ لأن الاعتراف بعصمته أو عصمة غيره يُوجب الإيمان بكل ما يقوله، فقد أعطاه ذلك معنى النبوة، وإن لم يُعطه لفظها.

ثانيًا: ادَّعى أن المرابطين من المجسِّمة:

كان المرابطون يُثبتون لله تعالى صفاته كما هي، لكن محمد بن تومرت أخذ فكر المعتزلة في نفي الصفات عن الله ﷻ، وهي قضية جدليَّة طويلة لا نُريد الخوض في تفصيلاتها، وخلاصة الأمر في ذلك أنه لما أثبت أنَّ المرابطين يُثبتون الصفات لله ﷻ، ادَّعى أنهم من المجسمة؛ وتبعًا لهذا الادعاء فقد قال بكفر المرابطين، وادَّعى أن عليَّ بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه من الولاة والعلماء، ومَنْ يعمل تحت حكمهم ومَنْ يَرضى بحُكمهم، هو من الكافرين[1].

وهذا منحى خطير؛ إذ إنه كفَّر حُكَّام الدولة التي كان يعيش فيها، وهي دولة المرابطين التي تشمل بلاد الأندلس والمغرب العربي في ذلك الوقت.

فكان يقول لأتباعه: «واشتغِلُوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه والشريك والنقائص، والآفاق والحدود والجهات، ولا تجعلوه - سبحانه- في مكان أو جهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه، ومَنْ جسمه فقد جعله مخلوقًا، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن»[2]. لقد تبنَّى ابن تومرت منهج المعتزلة في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يُوهم الشبه والمثلية لله سبحانه، حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله تعالى في الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا سَمَّى أصحابه بالموحدين؛ لأنهم في رأيه هم الذين يُوَحِّدُون الله لنفيهم الصفات عنه ﷻ، كما كان يُسَمِّي أتباعه

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٥٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.
(٢) ابن تومرت: أعز ما يُطلب، ص٢٠٤، نقلاً عن الصلابي: دولة الموحدين، ص٤١.

بالمؤمنين، ويقول لهم: «ما على وجه الأرض مَنْ يُؤمن إيمانكم»[1].

ثالثًا: استحلَّ دماء المرابطين:

وتبعًا لهذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلَّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومِنْ ثَمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحرازًا لثواب عظيم[2]، وهنا يَبرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعَلَّم على أيدي بعضهم -كما ذكرنا- أثناء رحلته لطلب العلم.

كان ابن تومرت يهدف إلى هدم دولة المرابطين من جذورها، وبناء دولة الموحدين على أنقاضها مهما كَلَّفه ذلك؛ وقد استباح في سبيل ذلك الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبرِّرَة -من وجهة نظره- لكل وسيلة، فكان لا يتردَّد في قتل مَنْ يشكُّ في إيمانه بما يدَّعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ فقد قام ابن تومرت بما سمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلَّ صَفُّه قويًّا[3].

ومن المعلوم أنَّ من أهمِّ مقاصد الشريعة الإسلامية الحفاظ على النفس، وما فعله هذا الآثِم إنما هو اعتداء بغير حقٍّ على أنفسٍ حرَّم الله إزهاقها، وفي فعله هذا انحراف واضحٌ عن الشرع، وارتكاب متعمَّد للكبائر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص255.
(2) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص260، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 6/ 228.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9/ 199، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 6/ 228.

تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول -سبحانه- في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا... منها: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»(١)(٢).

إن أمر القتل في غاية الخطورة ولا يستحلُّه إلاَّ مَنْ تجرَّد من كل معاني الأخلاق والرحمة ومن كل المعاني الإنسانية.

وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؛ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(٣).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب -بغير حقٍّ- ولكنها -كذلك- جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكُّر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها؛ ومن ثَمَّ قُرنت بالشرك في مواضع كثيرة؛ واتجه بعضهم -ومنهم ابن عباس- إلى أنه لا توبة منها.. ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فرجَا للقاتل التائب المغفرة.. وفسَّر الخلود بأنه الدهر الطويل. والذين تربَّوْا في مدرسة الإسلام الأولى، كانوا يَرَوْنَ

(١) رواه الترمذي: كتاب الديات، باب في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والنسائي (٣٩٨٧)، وصححه الألباني انظر: صحيح الجامع (٥٠٧٧).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٧٦.

(٣) البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة: ٤٥) (٦٤٨٤)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم -قبل إسلامهم- يمشون على الأرض -وقد دخلوا في الإسلام- فيهيج في نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة، ولكنهم لا يُفَكِّرُون في قتلهم، لا يُفَكِّرُون مرَّة واحدة؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشدِّ الحالات وجدًا ولذعًا ومرارة؛ بل إنهم لم يُفَكِّرُوا في إنقاصهم حقًّا واحدًا من حقوقهم، التي يُخَوِّلها لهم الإسلام»[1].

كان لا بُدَّ لنا من هذا الوقفة مع هذا الأمر الخطير؛ أمر الدماء التي استحلَّها هذا الآثم المخادع، أمَّا عملية التمييز التي سبق الإشارة إليها فقد استعان فيها ابن تومرت برجل على شاكلته يُسَمَّى أبو عبد الله بن محسن الونشريشي، وكان يُلَقِّبه بالبشير؛ إمعانًا في خداع الناس وإضلالهم، وقد طلب ابن تومرت من هذا الفاسق أن يُخفي علمه وحفظه للقرآن، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلمَّا كان عام تسعة عشر وخمسمائة (٥١٩ هـ) خرج يومًا، فقال: تعلمون أن البشير -يُريد الونشريشي- رجل أُمِّيٌّ، ولا يثبت على دابَّة، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم، مُطَّلِعًا على أسراركم، وهو آية لكم قد حفظ القرآن، وتعلَّم الركوب، وقال: اقرأ. فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصانًا وساقه، فبُهِتُوا، وعَدُّوها آية لغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشير مُطَّلع على الأنفس مُلْهَم، ونبيكم ﷺ يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»[2]. وقد صَحِبَنَا أقوام أطلعه الله على سِرِّهم، ولا بُدَّ من النظر في أمرهم، وتَيَمُّمِ العدل فيهم،

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢/ ٧٣٦.

(٢) والحديث رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ». البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ﷺ (٣٤٨٦) واللفظ له، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٨).

ثم نودي في جبال المصامدة: مَنْ كان مطيعًا للإمام فليأت. فأقبلوا يهرعون، فكانوا يُعْرَضون على البشير، فيُخرج قومًا على يمينه، ويَعدُّهم من أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول: هؤلاء شاكُّون في الأمر. وكان يُؤْتَى بالرجال منهم، فيقول: هذا تائب رُدُّوه على اليمين تاب البارحة. فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفرُّ منهم أحد، وإذا تجمَّع منهم عدَّة، قتلهم قراباتُهم حتى يقتل الأخ أخاه!»[1].

وأورد ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) هذا الأمر فقال: «وكان الونشريشي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرِّ؛ بحيث لا يعلم أحدٌ ذلك منه، فلمَّا كان سنُّه تسع عشرة، وخاف المهدي -ابن تومرت- من أهل الجبل، خرج يومًا لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانًا حسن الثياب، طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريشي. فقال له المهدي: إن أمرك لعجبٌ! ثم صلَّى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إنَّ هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي فانظروه، وحقِّقُوا أمره. فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدي: ما قِصَّتُك؟ قال: إنني أتاني الليلة مَلَكٌ من السماء، فغسل قلبي، وعَلَّمَنِي الله القرآن والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك. فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيِّ موضع سُئِلَ، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعَجِبَ الناسُ من ذلك، واستعظموهُ، ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نورًا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي.

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٤٦.

فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصَلَّى المهدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله؛ إن أبا عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت. فقال مَنْ بها: صدق. وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلمَّا قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمَّ لئلاَّ يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز. فألقَوْا فيها من الحجارة والتراب ما طَمَّهَا -وبهذا يكون قد قتل الرجال الذين اتَّفق معهم على هذا القول؛ لئلاَّ يُفْتَضح أمره- ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقَى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغرِّ ومَنْ لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُتْرَك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه»[1].

هذا فِعْلُ ابن تومرت بمَنْ معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

ولقد رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيونًا وأتباعًا، كما لا شك في أنه شخصية قوية ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أخبرني مَنْ رآه -ممن أثق إليه- يضرب الناسَ على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل؛ متشبِّهًا في ذلك بالصحابة. ولقد أخبرني بعض مَنْ شهده وقد أتى برجل سكران، فأمر بحدِّه، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَّدْنَا عليه حتى يُخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها. فأَعْرَض عنه، ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتُها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشف على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا،

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٩٨، ١٩٩.

إلى أشياءَ كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر، ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تَخْتَلُّ، وانتقاض دولتهم يتزيد، إلى أن تُوُفِّيَ ابن تومرت... بعد أن أسس الأمور، وأحكم التدبير، ورسم لهم ما هم فاعلوه»[١].

كذلك يروي الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وقد بلغني فيما يُقال: أن ابنَ تُومرت أخفى رجالاً في قبور دَوَارِسَ[٢]، وجاء في جماعة لِيُرِيهم آية، يعني فصاحَ: أيُّها الموتى أجيبوا. فأجابوه: أنتَ المهدي المعصومُ، وأنت وأنت.. ثم إنه خاف من انتشارِ الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا»[٣].

وقفة مع محمد بن تومرت وجماعته الموحِّدة

في جماعته الجديدة كان محمد بن تومرت يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذي يُخَالِفُه في الرأي ليس له من دواء إلاَّ القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظرًا لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق، وأنه هو المهدي المنتظر!

ولا شكَّ في أنْ يعتقدَ صِدْقَه وما يذهب إليه من أقواله تلك كثيرٌ من الناس؛ وذلك -كما ذكرنا- لانشغال علماء الدولة بالأمور الفرعية عن تعليم هؤلاء الناس أصول العقائد وأصول العبادات، فقد أقام العلماء جدارًا عازلاً بينهم وبين العامَّة، الذين لا يعرفون أين الحقُّ وأين الباطل، والذين لا يستطيعون أن يُمَيِّزُوا بين الغثِّ والسمين.

ومن هنا حين رأى مثل هؤلاء الناس رجلاً مثل محمد بن تومرت في شخص

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٠-٢٦٢.

(٢) دوارس جمع دارس: وهو العافي وذهاب الأثر ومتقادم العهد. ابن منظور: لسان العرب، مادة درس ٦/ ٧٩، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧٩.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٥١.

العالم الكبير، وهو يروي من أحاديث رسول الله ﷺ عن فلان وفلان، ثم هو يحفظ كتاب الله، ويعلم سِيَرَ الصالحين والسابقين، ويعلم فقه كذا وكذا، حين رأوا ذلك ما كان منهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا لما يقوله، وما يمليه عليهم عالمهم ومعلمهم، وقد اعتقدوا جميعًا بعصمته، واعتقدوا جميعًا بِحلِّ قتل المرابطين، بل والثواب الجزيل على قتلهم.

ولنا أن نتخيَّل مثل هذا الأمر في حقِّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفَّرون وتُحَلُّ دماؤهم، ويُقَاتَلون من قِبَلِ جماعة الموحِّدِين، ذلك الاسم (الموحِّدين) الذي يُشير بقوَّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بموحدين أو مسلمين.

* * *

الفصل الثاني
عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين

المرابطون والموحدون وقتال الأعداء

حمل محمد بن تومرت على عاتقه وعاتق جماعته -الموحدين- أمر مقاتلة المرابطين وسفك دمهم، يقول ابن خلدون ملخصًا معارك المرابطين والموحدين: «ولما تمَّ له (محمد بن تومرت) خمسون من أصحابه سمَّاهم ايت الخمسين، وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاتة وتينملل، فاجتمعوا إليه، وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت هزيمة الفتح، وكان الإمام (أي: ابن تومرت) يَعِدُهم بذلك، فاستبصروا في أمره (أي تأكدوا من صدق ابن تومرت)، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وتردَّدت عساكر لمتونة إليهم مرَّة بعد أخرى ففضُّوهم... وكانوا يُسَمّون لمتونة الحشم، فاعتزم على غزوهم، وجمع كافَّة أهل دعوته من المصامدة، وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات، فلقيهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف، وإبراهيم بن تاعباشت، فهزمهم الموحدون...»[1].

لقد استطاع ابن تومرت أن يتحصن في تينملل وأن يُخرج منها الجيوش التي تفتك بالدولة المرابطية، ولقد استطاع بطبيعة الحال أن يُوَسِّع الأرض التي حوله

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٨.

والتي ينطلق منها، ولقد التقوا مع المرابطين في مواقع عديدة؛ كان منها تسع مواقع ضخمة، انتهت سبع منها بانتصارهم على المرابطين، وهُزموا في اثنتين.

وأكبر هزائمهم كانت حين استفحل خطرهم فجهز لهم علي بن يوسف بن تاشفين جيشًا كبيرًا، ثم خرج من الموحدين جيش كبير على قيادته عبد المؤمن بن علي، يروي عبد الواحد المراكشي كيف سارت المعركة فيقول: «ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشًا عظيمًا من المصامدة، جُلُّهُم من أهل تينملل مع مَنِ انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدِّلِينَ، الذين تسمَّوْا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم؛ فقد أباحت لكم السُّنَّة قتالهم. وأمَّر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون، وهذا أميركم. فاستحقَّ عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش، فلقيهم المرابطون قريبًا منها بموضع يدعى البحيرة، بجيش ضخم من سراة لمتونة، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فلمَّا تراءى الجمعان، أرسل إليهم المصامدة (من الموحدين) يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت، فردُّوا عليهم أسوأ ردٍّ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت، فردَّ عليه أمير المسلمين يُحَذِّره عاقبة مفارقة الجماعة، ويُذَكِّرُه الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة، فلم يردع ذلك عبد المؤمن؛ بل زاده طمعًا في المرابطين، وَحَقَّق عنده ضعفهم، فالتقت الفئتان، فانهزم المصامدة وقُتِلَ منهم خلق كثير، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه، فلمَّا جاء الخبر لابن تومرت، قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم. قال: لم يُفقد أحد»[1].

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥٩.

وقفة مع تاريخ محمد بن تومرت

الحقيقة أن سيرة هذا الرجل فيها خلط كثير جدًّا، وتفاصيل كثيرة متشابكة في معظم الأحيان، وهي على تشابكها تتنافر وتتجاذب، فلا يدري المرء أي الأحداث أصدق، أو أيها أسبق، وبخاصة أن القدماء الذين كتبوا عن هذا الرجل لم يُؤَرِّخوا بدقَّة له أو للأحداث في عهده، اللهم إلا في القليل جدًّا، وهذا أمر يُعذرون فيه؛ إذ إن الظروف التي أحاطت بالرجل، أو التي أحاط نفسه بها -عن قصد أو غيره- تَحُولُ دون الدقَّة في الإخبار عنه؛ فلقد كان على غرابته ووحدته وصمته، دائم الترحال، ولم يستقرّ إلا في منطقة جبلية وعرة وحصينة؛ بل منهم مَن يقول: إنه استقر حينًا في منطقة وعرة، ثم ارتحل عنها بعد قليل (ثلاث سنوات تقريبًا) لمنطقة أخرى كانت أكثر حصانة منها ووعورة، وأشدَّ قسوة على أهلها ومَنْ راموهم بسوء، وهذا هو الأرجح، ولقد اعتمد على ساكني هذه المناطق في دعوته، ولنا أن نتوقَّع حال مَنْ يسكن هذه المناطق وعقلياتهم، بل يكفينا أن نتذكَّر أنهم ساروا خلفه رغم ادعائه الهدى والعصمة، ورغم ما فعله بهم يوم التمييز، ثم إنه قتل في يوم التمييز كلَّ مَنْ كان يخافه على نفسه ودعوته وأتباعه من أهل الفهم بين هؤلاء القوم، وقتلهم بأيدي أهليهم، بل إن مِن المصادر مَن يذكر أن هؤلاء الذين قُتلوا لم يحاولوا الهرب، وانتظروا حتى قتلهم أهلوهم، وإن كان ثمة مصادر أخرى ذكرت ما يختلف عن هذا؛ فمنهم مَن قال: إنه متى ذُكر أن فلانًا من أهل النار يُكَتَّف ثم يقتل. ومنهم من ذكر أنه كان يُلْقَى من أعلى الجبل في ساعتها، ومنهم.. ومنهم.. المهم أن أهل الفهم مِنْ هؤلاء لم يكونوا علماء، ولكنهم كانوا قومًا قد لا يصدقون كذبه وادعاءه، وينشرون ذلك بفطرتهم، فيُثَبِّطون به العزائم من حوله أو ما شابه؛ لهذا فإن المرء لا يَعْجَبُ إذا وجد أن كتاب (أخبار المهدي ابن تومرت) لأبي بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق -وقد كان من أتباع ابن تومرت المقربين، وسابع مَنْ بايعوه في

تينملل- لم يكن يذكر تواريخ كثير من الأحداث، بل ولا حتى عام حدوثها، حتى معارك ابن تومرت نفسها لم يكن الرجل يذكر تواريخها ولا سنة وقوعها، اللهم إلا ما ذكره على سبيل الإجمال في نهاية كتابه عن أهم ما حدث من سنة ٥١٨هـ إلى سنة ٥٢٧هـ، فهذا رجل كان من كبار أتباع ابن تومرت، ولا يهتم أن يسوق الحدث ومعه تاريخ وقوعه؛ لذلك فإن المؤرخين معذورون في وقوع هذا الخلط.

موقعة البحيرة أو البستان:

كانت موقعة البحيرة أو موقعة البستان سنة (٥٢٤هـ=١١٣٠م)، انتصر فيها المرابطون على الموحدين، وقُتِلَ فيها من الموحدين أربعون ألفًا، وهذه المعركة - البستان أو البحيرة- هي التي سُبقت بحادث التمييز؛ حيث قام ابن تومرت بقتل كلِّ مَنْ يشُكُّ في ولائه له، بل جعل أهلَهم وأقرباءهم هم الذين يقتلونهم، كما سبق الإشارة إلى هذا الأمر.

قال ابن الأثير: «فجهَّز المهدي -ابن تومرت- جيشًا كثيفًا يبلغون أربعين ألفًا، أكثرهم رجَّالة، وجعل عليهم الونشريشي، وسَيَّر معهم عبد المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مَرَّاكُش فحصروها، وضيَّقوا عليها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يومًا، فأرسل أمير المسلمين إلى متولِّي سِجِلْمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشًا كثيرًا وسار، فلما قارب عسكر المهدي خرج أهل مَرَّاكُش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا واشتدَّ القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي، فقُتِلَ الونشريشي أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميرًا عليهم. ولم يزل القتال بينهم عامَّة النهار، وصَلَّى عبد المؤمن صلاة الخوف؛ الظهر والعصر، والحربُ قائمة، ولم تُصَلَّ بالمغرب قبل ذلك، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوَّتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك -والبستان يُسَمَّى عندهم البحيرة؛ فلهذا قيل: وقعة البحيرة، وعام البحيرة- وصاروا يُقاتلون من جهة

واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتِلَ من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل الونشريشي دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يَرَوْه في القتلى، فقالوا: رفعته الملائكة. ولما جنَّهم الليل سار عبد المؤمن ومَنْ سلم من القتلى إلى الجبل»(١).

لم تَفُتَّ هذه الهزيمة في عضد ابن تومرت، ولم يُصبه اليأس، وإن كان أصحابه قد بدءوا يَشُكُّون في مهديَّته المزعومة؛ فلجأ نتيجة لذلك إلى الحيلة والكذب؛ ليبعث الأمل من جديد في نفوس أصحابه، ويُوهمهم بأنهم على الحقِّ، وأن هؤلاء الملثَّمِينَ على الباطل، ولا بُدَّ أن يُهزموا.

يقول المراكشي في المعجب: «ولما رجع القوم إلى ابن تومرت، جعل يُهَوِّن عليهم أمر الهزيمة، ويُقَرِّر عندهم أن قتلاهم شهداء؛ لأنهم ذابُّون عن دين الله، مُظهرون للسُّنَّة؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم، وحرصًا على لقاء عدوِّهم، ومن حينئذٍ جعل المصامدة يشنُّون الغارات على نواحي مَرَّاكُش، ويقطعون عنها موادَّ المعايش وموصول المرافق، ويقتلون ويَسْبُون، ولا يُبْقُون على أحد ممن قَدروا عليه؛ وكثر الداخلون في طاعتهم والمُنْحَاشون إليهم، وابن تومرت في ذلك كله يُكثر التزهُّد والتقلُّل، ويُظهر التشبُّه بالصالحين، والتشدُّد في إقامة الحدود؛ جاريًا في ذلك على السُّنَّة الأُولى»(٢).

لم يلبث ابن تومرت أن تُوُفِّيَ بعد معركة البحيرة هذه، تاركًا أصحابه بعد أن أمَّر عليهم عبد المؤمن، ولما مات كَفَّنه عبد المؤمن بن علي وصَلَّى عليه، ودفنه بمسجده(٣).

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول؛ بسبب هذه الهزيمة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠٠.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٠-٢٦٢.
(٣) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٩.

الشديدة التي نزلت بأتباعه في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح مع ذلك في ترسيخ دعوته في قلوبهم، حتى صَدَّقُوه وآمنوا بمهديَّتِه، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم؛ كما حصل في حادثة التمييز التي تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلت كل قبيلة أبناءها دون أن يُصِيبها التردُّد أو الحيرة.

وصية ابن تومرت والبيعة لعبد المؤمن:

ومن عجيب ما ينقل المراكشي في (المعجب) أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمَّيْنَ بالجماعة، وأهل خمسين، وهم من قبائل متفرِّقة، لا يجمعهم إلا اسم المصامدة، فلمَّا حضروا بين يديه قام -وكان متكئًا- فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أنشأ يترضَّى عن الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم- ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كانت لا تأخذه في الله لومة لائم، وذَكَر مِن حَدِّ عمر ﷺ ابنَه في الخمر، وتصميمه على الحقِّ في أشباهٍ لهذه الفصول، ثم قال: فانقرضت هذه العصابة - نضَّر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرًا عن أُمَّةِ نَبِيِّهَا- وخبطت الناس فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مُداهنًا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم... ثم إنَّ الله - سبحانه وله الحمد - مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخَصَّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيَّض لكم من أَلْفَاكُم ضُلاَّلاً لا تهتدون، وعُمْيًا لا تُبصرون؛ لا تعرفون معروفًا، ولا تُنكرون منكرًا، قد فَشَتْ فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزَيَّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أُنَزِّه لساني عن النطق بها، وأَرْبَأُ بلفظي عن ذِكْرِهَا، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبَصَّركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفُرقة، وأعزَّكم بعد الذِّلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيُورثكم أرضَهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم،

وما ربك بظلام للعبيد؛ فجدِّدوا لله -سبحانه- خالصَ نيَّاتكم، وأَروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به سعيكم، ويتقَبَّلُ أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفُرقة واختلاف الكلمة وشتاتَ الآراء، وكُونُوا يدًا واحدة على عدوِّكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحقَّ على أيديكم، وإلاَّ تفعلوا شَمِلَكم الذلُّ، وعَمَّكم الصَّغَارُ، واحتقرتكم العامَّة، فتَخَطَّفَتْكم الخاصَّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأُمَّة إلاَّ على الذي صلح عليه أمرُ أوَّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميرًا عليكم، هذا بعد أن بَلَوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناهُ في ذلك كله ثَبْتًا في دينه، مُتَبَصِّرًا في أمره، وإني لأرجو ألاَّ يُخلف الظنَّ فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعًا مطيعًا لربه، فإن بدَّل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أَمْرِه ففي الموحِّدين -أعزَّهم الله- بركةٌ وخير كثير، والأَمْرُ أمرُ الله يُقَلِّده من شاء من عباده.

فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت، ومسح وجوههم وصدورهم واحدًا واحدًا؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله؛ ثم تُوُفِّيَ ابن تومرت بعد عهده هذا بيسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن[1].

أول خلفاء دولة الموحدين

وفي سنة (٥٤١هـ=١١٤٦م) بزغ نجم دولة الموحدين، وكان أوَّل حُكَّامها عبد المؤمن بن عليٍّ (٤٨٧-٥٥٨هـ=١٠٩٤-١١٦٣م) صاحب محمد بن تومرت، والرجل الثاني بعد ابن تومرت المؤسِّس الحقيقي والفعلي لجماعة الموحدين.

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٢-٢٦٤.

وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي، نسبته إلى كومية (من قبائل الأمازيغ البربر). ولو أنه -أيضًا- كان ينسب نفسه إلى العرب من مضر[1]. وُلِدَ في مدينة تاجرت بالمغرب قرب تِلِمْسَان، ونشأ فيها طالب علم، وأبوه صانع فخَّار[2].

ويصف عبد الواحد المراكشي عبدَ المؤمن بن عليٍّ فيقول: وكان أبيض ذا جسمٍ عممٍ، تعلوه حمرة، شديدَ سواد الشعر، معتدل القامة، وضيءَ الوجه، جَهْوَرِيَّ الصوتِ، فصيح الألفاظ، جَزْل المنطق، وكان محبَّبًا إلى النفوس، لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه بديهة؛ وبلغني أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه: [البسيط]

تَكَامَلَتْ فِيكَ أَخْلاقٌ خُصِصْتَ بِهَا ... فَكُلُّنَا بِكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ

فَالسِّنُّ ضَاحِكَةٌ وَالْكَفُّ مَانِحَةٌ ... وَالصَّدْرُ مُنْشَرِحٌ وَالْوَجْهُ مُنْبَسِطُ[3]

وذكر الذهبي في كتابه العبر، وابن العماد في شذرات الذهب أنه كان ملكًا عادلاً، سائسًا، عظيم الهيبة، عالي الهمة، متين الديانة، كثير المحاسن، قليل المِثْل، وكان يقرأ كلَّ يوم سُبُعًا من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير -وهذا يعني أنَّ لبس الحرير كان عادة وإلفًا في زمانه- وكان يصوم الاثنين والخميس، ويهتمُّ بالجهاد والنظر في المُلْك كأنما خُلق له. ثم بعد هذه الأوصاف نجد هذه العبارة التي تحمل كثيرًا من علامات الاستفهام حيث يقول: وكان سفَّاكًا لدماء مَنْ خالفه[4]!

وقال عنه الزركلي في الأعلام: وكان عاقلاً حازمًا شجاعًا مُوَفَّقًا، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهتمام بشئون الدين، محبًّا للغزو

---

(1) انظر: تاريخ ابن خلدون، 6/ 126، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص265، السلاوي: الاستقصا 2/ 99.

(2) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص265، والسلاوي: الاستقصا، 2/ 99.

(3) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص266.

(4) ابن العماد: شذرات الذهب، 4/ 183، والذهبي: العبر 3/ 29.

والفتوح، خضع له المَغْرِبَان (الأقصى والأوسط)، واستولى على إِشْبِيلِيَة، وقُرْطُبَة، وغَرْنَاطَة، والجزائر، والمهدية، وطَرَابُلُس الغرب، وسائر بلاد إفريقية، وأنشأ الأساطيل، وضرب الخراج على قبائل المغرب، وهو أول مَنْ فعل ذلك هنالك[(١)].

ومثل هذه الأوصاف ذكرها ابن كثير -أيضًا- في البداية والنهاية، بقوله: «وكان مَنْ لا يحافظ على الصلوات في زمانه يُقتل، وكان إذا أَذَّن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد... ولكن كان سفاكًا للدماء، حتى على الذنب الصغير»[(٢)]. وهذه بالطبع هي تعاليم محمد بن تومرت.

وإضافة إلى هذا المنهج العقيم وتلك الصفة السابقة -التساهل في أمر الدماء- فقد كان محمد بن تومرت حين يعلم أن أتباعه ينظرون إلى الغنائم، التي حصَّلوها من دولة المرابطين في حربهم معهم، كان يأخذها كلها فيحرقها[(٣)].. وكان يُعَذِّر بالضرب مَنْ يفوته قيام الليل من جماعته؛ فنشأت جماعة من الطائعين الزاهدين العابدين، لكن على غير نهج رسول الله ﷺ الذي لم يكن يحرق الغنائم، أو يضرب المتباطئين أو المتثاقلين عن قيام الليل، أو يَتَّبع مثل هذا المنهج وتلك الرهبنة المتشدِّدَة.

وعلى كلٍّ فقد كان عبد المؤمن بن علي -على ما يبدو- غير مقتنع بفكرتَي العصمة والمهديَّة، اللتين ادَّعاهما محمد بن تومرت واقتنع بهما أتباعه من بعده؛ ويدفعنا إلى ذلك أن رجلاً بعلم وعقل عبد المؤمن لا شك علم -على الأقل بعد وفاة ابن تومرت- أنه ليس المهدي الذي ذكرت الأحاديث أنه يملأ الأرض عدلاً، ثم يتبعه نزول المسيح ابن مريم وما إلى ذلك من الحوادث، لكنه على الجانب الآخر

(١) الزركلي: الأعلام، ٤/ ١٧٠.
(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦.
(٣) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٦/ ١٢٠.

فإن عبد المؤمن بن عليٍّ لم ينفِ مثل هذه الأفكار الضالَّة صراحة؛ وذلك لأن غالبَ شيوخ الموحِّدين كانوا على هذا الفكر وذلك الاعتقاد، فخاف -على ما يظهر- إن هو أعلن أن أفكار محمد بن تومرت هذه مخالفة للشرع، أن ينفرط العِقد ويحدث التفكُّك في هذه الفترة الحرجة من دولة الموحدين.

مشاهد من حياة عبد المؤمن بن علي:

نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الواحد المراكشي قوله: أخبرني غير واحد ممن أرضى نقله، أنه (عبد المؤمن) لما نزل مدينة سلا - مدينة بأقصى المغرب ...- عبر النهر، وضُربت له خيمة على الشاطئ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة... فخرَّ ساجدًا، ثم رفع وقد بلَّ الدمع لحيته... فقال: أعرف ثلاثة أشخاص وَرَدُوا هذه المدينَة لا شيء لهم إلاَّ رغيف واحد، فراموا عُبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب، وبَذَلُوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم، فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة. فقال لهم أحدهم وكان شابًّا جلدًا: خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة... فجعل الشاب يسبح، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يده عليه ليستريح، فيضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه؛ فما بلغ البرَّ إلاَّ بعد جهد شديد. فما شكَّ السامعون للحكاية أنه هو العابر سباحة، وأن الاثنين المذكورين هما: ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي[1].

وكان لعبد المؤمن من الولد ستة عشر ذكرًا؛ وهم: محمد وهو أكبر ولده، ووليُّ عهده، وهو الذي خُلع بعد ذلك، وعلي، وعمر، ويوسف، وعثمان، وسليمان، ويحيى، وإسماعيل، والحسن، والحسين، وعبد الله، وعبد الرحمن، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب[2].

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٩٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٣٧٣.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٦.

الصراع المرير والسقوط المدوي:

عاد عبد المؤمن بن علي إلى تينملل بعد موقعة البحيرة -التي سبقت الإشارة إليها- ثم مات ابن تومرت بعد ذلك بقليل، فبُويع من بعده عبد المؤمن بن علي، وأقام في تينملل فترة يتألَّف القلوب، ويُحسن إلى الناس، وكان جوادًا مقدامًا في الحروب، ثابتًا في الشدائد.

وفي سنة (٥٢٨هـ) جهَّز عبد المؤمن جيشًا كبيرًا، وقاده إلى مدينة تادَلة، ودارت بينه وبين أهلها حرب، انتهت بانتصار عبد المؤمن بن علي، ودخول المدينَة عَنْوة، وسار بعدها في الجبال يفتح المدن التي تليها.

وفي سنة (٥٣١هـ) تُوُفِّيَ وليُّ العهد سير بن علي بن يوسف، فاستدعى علي بن يوسف ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميرًا عليها، وجعله وليَّ عهده، ثم قلَّده أبوه بعد ذلك قيادة جيش قوي، وأرسله لمحاربة عبد المؤمن، فسار بالجيش في الصحراء قبالة جيش عبد المؤمن، الذي كان يسير في الجبال، وكانت تَحْدُث بينهما مناوشات من وقت لآخر، ولكن لم تَحْدُث بينهما حروب أو معارك كبيرة.

وفي شتاء سنة (٥٣٣هـ) وصل عبد المؤمن إلى جبل كرناطة، فنزل في أرض صلبة بين شجر، ونزل تاشفين مقابل عبد المؤمن في سهل لا نبات فيه، وفي أثناء ذلك توالى هطول الأمطار أيامًا، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورها، ويعجز الرجل عن المشي فيها، وَسَدَّت المياهُ الطرق؛ حتى انقطعت عن تاشفين وجيشه الإمدادات، فكانوا إذا أرادوا نارًا لم يجدوا إلاَّ رماحهم لِيُوقدوا بها النار، وأنهكهم الجوع والبرد وسوء الحال.

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يُبَالون بشيء،

والإمدادات مُتَّصلة إليهم، فاستغلَّ ذلك عبد المؤمن وأرسل جيشًا في ذلك الوقت إلى وجرة من أعمال تِلِمْسَان، وقَدَّم عليهم أبا عبد الله محمد بن رقو، وهو من أهل الخمسين، فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى بن فانوا (والي تِلِمْسَان من قِبَل المرابطين)، فخرج في جيش من المرابطين، فالتقوا بموضع يُعْرَفُ بخندق الخمر، فهزمهم جيش عبد المؤمن، وقُتِلَ محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا، فتوجَّه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غمارة، فأطاعته قبائلها، وأقام عندهم مدَّة.

وظلَّ يسير بجيشه في الجبال، وتاشفين يُحاذيه في الصحارى، حتى تُوُفِّيَ أمير المسلمين علي بن يوسف بمَرَّاكُش، وخلفه ابنه تاشفين سنة (٥٣٥هـ)، فزاد طمع عبد المؤمن في البلاد، إلاَّ أنه ظلَّ مع ذلك معتصمًا بالجبال، ولم ينزل إلى الصحراء.

وفي سنة (٥٣٨هـ) توجَّه عبد المؤمن بجيشه إلى تِلِمْسَان للاستيلاء عليها، فسارع تاشفين لنجدتها، وعسكر الفريقان هناك دون حرب، اللهم إلا مناوشات بسيطة، وظلاَّ كذلك حتى سنة (٥٣٩هـ)، حتى رحل عبد المؤمن إلى جبل تَاجَرَة، ووجَّه جيشًا مع عمر الهِنْتَاتي إلى مدينة وهران، فهاجمها بغتة، واستولى عليها، فسمع بذلك تاشفين فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاشفين بظاهر وهران على البحر في شهر رمضان من السنة نفسها، وفي هذا الشهر قُتل تاشفين هناك، وصُلِبَتْ جُثَّتُه.

وقيل في سبب موته: إنه قصد حصنًا هناك على رابية، وله فيه بستان كبير، فيه من كلِّ الثمار، فاتفق أن عمر الهِنْتَاتي، أرسل سرية إلى ذلك الحصن، ولم يعلموا أن تاشفين فيه، فأشعلوا النار في بابه، فأراد تاشفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور، فسقط في النار، فأُخذ تاشفين فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال بسبب إصابته، ثم صلبوه، وقُتِلَ كُلُّ مَنْ معه، وتفرَّق عسكره ولم يَعُدْ لهم جماعة، فتولَّى بعده أخوه إسحاق بن علي بن يوسف.

ولما قُتِلَ تاشفين أرسل عمر الهِنْتَاتي إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تاجَرَة في يومه بجميع جنوده، وتفرَّق عسكر تاشفين، واحتمى بعضهم بمدينة وهران، فلمَّا وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يُحصى، ثم سار عبد المؤمن إلى تاهَرْت وأقادير؛ فامتنعت أقادير وغَلَّقت أبوابها، وتأهَّب أهلها للقتال.

وأمَّا تاهَرْت فكان فيها يحيى ابن الصحراوية، فهرب منها بجنوده إلى مدينة فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فسارع إليه أهلها للدخول في طاعته، ولكنه لم يقبل منهم، وقتل أكثرهم، ودخلها ورتَّب أمرها، ورحل عنها تاركًا جيشًا يُحَاصِر أقادير.

وسار إلى مدينة فاس سنة (٥٤٠هـ) فحاصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى ابن الصحراوية، وعسكره الذين فَرُّوا من تاهَرْت، فلما طال حصار المدينَة عمد عبد المؤمن إلى نهر يدخلها، فسَدَّه فترة، حتى إذا اجتمع الكثير من الماء فتح المجرى فجأة، فهدم سورها، وكُلَّ ما بجوار النهر من مبانٍ وإنشاءات، فلما أراد دخولها خرج إليه أهلها، وقاتلوه خارجها؛ فلم يتمكَّن من دخولها.

ثم عاد والي فاس وأعيانها فكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له بابًا من أبوبها، فدخلها جيشه في أواخر (٥٤٠هـ)، وهرب يحيى ابن الصحراوية، وسار إلى طَنْجَة، ورتَّب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنُودِيَ في أهلها: مَنْ ترك عنده سلاحًا وعُدَّة قتال حلَّ دمه. فحمل كلُّ مَنْ في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذه منهم.

ولما فرغ عبد المؤمن من فاس وتلك النواحي، سار إلى مَرَّاكُش وهي عاصمة المرابطين، وكانت من أكبر المدن وأعظمها، وكان يحكمها حينئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكان صبيًّا صغيرًا، فوصل مَرَّاكُش سنة (٥٤١هـ)، وعسكر على جبل صغير في غرب المدينَة، وبنى عليه مدينة له ولجنوده، وبنى بها جامعًا،

وبنى له بناءً عاليًا يُشرف منه على المدينَة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وحاصرها أحد عشر شهرًا، قاتَلَ المدينةَ فيها قتالاً كثيرًا، كان المرابطون يخرجون فيه من المدينَةِ لقتال الموحدين، وأرهق الحصار عبد المؤمن، وقلَّ الطعام عنده، فعزم على أن ينصب كمينًا لأهل مَرَّاكُش ليُضعفهم به.

فأمر جنوده فزحفوا يومًا إلى مَرَّاكُش، فخرج إليهم جنود المرابطين كالعادة، فدارت بين الفريقين معركة شديدة، ثم انهزم الموحدون وفروا أمام المرابطين، فتبعهم المرابطون إلى المدينَة التي بناها عبد المؤمن له ولجنوده على الجبل، ودارت بين الفريقين معارك شديدة، وهُدمت أجزاء كبيرة من سور مدينة عبد المؤمن، وكان عبد المؤمن يُشاهد المعركة من أعلى البناء الموجود على الجبل، وكان قد اتَّفق مع رجاله أن ينهزموا أمام المرابطين، حتى إذا لحق بهم المرابطون أمر بضرب الطبول؛ فتخرج مجموعة أخرى من رجاله كانت مختبئة، لتُحيط بالمرابطين حتى تقضي عليهم، فلما اشتدَّت المعركة صاح الموحدون بعبد المؤمن ليأمر بضرب الطبول، فقال لهم: اصبروا حتى يخرج كل طامع في البلد، فلما خرج أكثر أهل مَرَّاكُش، أمر بضرب الطبول، فخرج الكمين عليهم، فقاتلوهم ودارت الدائرة على المرابطين، وقتلوا مقتلة عظيمة.

وبهذا ضعفت قوات المرابطين داخل مَرَّاكُش ضعفًا شديدًا، وكان إسحاق بن علي صبيًّا صغيرًا، وكان يُدير دولتَه مشايخُ المرابطين، فحدث أن أحدهم واسمه عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمنًا، وأطلعه على عوراتهم وضعفهم، فزاد طمع عبد المؤمن فيهم، وشدَّد عليهم الحصار، ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج، حتى فنيت أقواتهم، وأكلوا دوابَّهم، ومات من العامَّة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمَرَّاكُش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاءوا إليهم نجدة، فلما طال عليهم الأمر راسل الفرنج عبد المؤمن يسألونه الأمان،

فأجابهم إليه، ففتحوا له بابًا من أبواب البلد يقال له: باب أغمات. فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينَةَ عَنْوَة، وقتلوا مَنْ وَجَدُوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع مَنْ معه من أمراء المرابطين، فقُتِلُوا.

وكان إسحاق هذا صغيرًا؛ فلما قُبِضَ عليه، وخاف أن يُقْتَل أخذ يبكي ويدعو لعبد المؤمن ويتوسَّل إليه، فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان مُقَيَّدًا إلى جانبه فبصق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف الله، ولا يدين بدين. فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه -وكان من شجعان المرابطين، المعروفين بالإقدام- وقُدِّم إسحاق على صغر سنه، فضُربت عنقه سنة (٥٤٢هـ)، وكان آخر ملوك المرابطين، وكانت مدَّة ملكهم سبعين سنة، وَلِيَ منهم أربعة: يوسف، وعلي، وتاشفين، وإسحاق.

ولما فتح عبد المؤمن مَرَّاكُش أقام بها، وجعلها عاصمة لدولة الموحدين، وكان عبد المؤمن لما دخل مَرَّاكُش قد أكثر القتل في أهلها؛ فاختفى كثيرٌ من أهلها، فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنُودِيَ بأمان مَنْ بَقِيَ من أهلها فخرجوا، فأراد أصحابُه قتلهم فمنعهم، وقال: هؤلاء صُنَّاع وأهل الأسواق مَنْ ننتفع به. فتُركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبنى بالقصر جامعًا كبيرًا، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[1].

وقال عبد الواحد المراكشي في المعجب: ولم يزل عبد المؤمن -بعد وفاة ابن تومرت- يطوي الممالك مملكة مملكة، ويَدُوخ البلاد[2] إلى أن ذَلَّت له البلاد وأطاعته العباد[3].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠١، وما بعدها بتصرف.
(٢) داخَ البلادَ يَدُوخُها: قهرها واستولى على أهلها. ابن منظور: لسان العرب، مادة دوخ ٣/ ١٦.
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٧٠.

وبنظـرة إجمالية فإن عَـدَدَ مَـنْ قُتِـلَ مـن المسـلمين في المواقـع التـي دارت بـين المرابطين والموحدين تجاوز عشرات الآلاف، وذلك في نحو ثمانٍ وعشرين سنة؛ من سنة (٥١٢هـ= ١١١٨م) وحتى قيام دولة الموحدين في سنة (٥٤١هـ= ١١٤٦م)، وقامت دولة الموحدين كما قامت دولة المرابطين من قبل، لكن على أشلاء الآلاف من المسلمين، وكان هذا هو الطريق الذي سلكه محمد بن تومرت ومَنْ معه، وكان هذا نهجهم في التغيير.

تداعيات سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين:

متابعةً للأحداث بصورة متسلسلة فقد كان لسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في عام (٥٤١هـ= ١١٤٦م) ومقتل ما يربو على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس؛ نتيجة الحروب بينهما - كان لهذه الأحداث العظام تداعيات خطيرة على كلِّ بلاد المغرب العربي والأندلس، وما يهمُّنَا هنا هو ما حدث في الأندلس، فكان كما يلي:

أولاً: بعد قيام دولة الموحدين بعام واحد وفي سنة (٥٤٢هـ= ١١٤٧م) سقطت أَلَمِرِيَّة في أيدي النصارى، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط في جنوب الأندلس؛ أي: هي بعيدة جدًّا عن ممالك النصارى، لكنها سقطت عن طريق البحر بمساعدة فرنسا.. وفي أَلَمِرِيَّة استُشْهِدَ آلافٌ من المسلمين، وسُبِيَتْ أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة[1]، وفي هذا يقول المقري التلمساني: «وأُحْصِيَ عدد من سُبِيَ من أبكارها فكان أربعة عشر ألفًا»[2].

ثانيًا: بعد ذلك -أيضًا- بعام واحد وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) سقطت

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٤٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٧٩، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٣.

طُرْطُوشة ثم لارِدَة في أيدي النصارى، وهما في مملكة سَرَقُسْطَة التي تقع في الشمال الشرقي، والتي كان قد حَرَّرها المرابطون قبل ذلك(١).

ثالثًا: وفي العام نفسه -أيضًا- توسَّعت مملكة البرتغال في الجنوب، وكانت من أشدِّ الممالك ضراوة وحربًا على المسلمين(٢).

رابعًا: بدأ النصارى يتخطَّوْن حدود الأندلس ويُهاجمون بلاد المغرب العربي، فاحْتُلَّت تونس في السنة ذاتها -أيضًا- من قِبل النصارى، وهي خارج بلاد الأندلس(٣).

ولقد كانت مثل هذه التداعيات شيئًا متوقَّعًا نتيجة الفتنة الكبيرة، والحروب التي دارت بين المسلمين في بلاد المغرب العربي.

***

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٥٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٥٢٦، ٥٢٧، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١/ ٢٥٧.

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٥٠، وتاريخ ابن خلدون، ٥/ ٢٠٣.

الفصل الثالث

عصر القوة في دولة الموحدين

أعمال عبد المؤمن بن عليٍّ في المغرب:

كان عبد المؤمن بن علي -كما ذكرنا- صاحب شخصية قوية، وصاحب فكر سياسي عالٍ؛ فبدأ وبطريقة عملية منظمة وشديدة في تأسيس وبناء دولته الفتيَّة الناشئة؛ فعمل على ما يلي:

أولاً: أنشأ الكثير من المدارس والمساجد، واهتم غاية الاهتمام بالتعليم والتثقيف، وكان -كما يقول عبد الواحد المراكشي- «مُؤْثِرًا لأهل العلم محبًّا لهم، محسنًا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون[1] عنده والجوار بحضرته، ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وقسَّم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر، هذا بعد أن تسمَّى المصامدة بالموحدين؛ لتسمية ابن تومرت لهم بذلك؛ لأجل خوضهم في علم الاعتقاد، الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه»[2].

ثانيًا: عمل عبد المؤمن بن عليٍّ على إقران الخدمة العسكريَّة بالعلوم التثقيفية،

(١) الكَونُ عندي: أي الحضور إليه، وأن يكون عنده.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٥.

وأنشأ معسكرًا بقصره لتدريس وتعليم وتخريج رجال السياسة والحُكم، وكان يمتحن الطلاب بنفسه، فأنشأ جيلاً فريدًا من قوَّاد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين، وكان يُدَرِّبهم على كل فنون الحرب؛ حتى إنه أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يتقاتلون في الماء، وكيف تكون الحروب البحرية، وكان -أيضًا- يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه[١].

ثالثًا: أقام مصانع ومخازن ضخمة وكثيرة للأسلحة؛ ليستعدَّ بذلك لحرب الصليبيين في الأندلس[٢].

لكن هذا لم يكن ليغضَّ الطرف عن كون عبد المؤمن بن عليٍّ ذا فرديَّة في نظام الحُكم والإدارة؛ أي أنه كان -بِلُغَة العصر- حاكمًا ديكتاتوريًّا، فرديَّ الرأي لا يأخذ بالشورى، ولقد كان سَفَّاكًا للدماء، حتى أحصى له مؤرخ العهد الشهير بـ «البيذق» أكثر من ثلاثين ألف قتيل بدأ بها عهده لنشر الرعب وتثبيت أقدام الدولة بالسيف[٣].

بل لما سُرق من تاجر بعض ماله، جمع عبد المؤمن أشياخ القبيلة التي وقع فيها السرقة، فأخرج للتاجر ماله منهم، ثم أمر بقتل الجميع «فأقبلوا يتضرَّعون ويبكون، وقالوا: تؤاخذ -سيدنا- الصلحاء بالمفسدين؟ فقال: يُخرج كلُّ طائفة منكم مَنْ فيها من المفسدين. فصار الرجل يُخرج ولده، وأخاه، وابن عمه، إلى أن اجتمع نحو مائة نفسٍ، فأمر أهلهم أن يَتَوَلَّوْا قتلهم، ففعلوا. فخرجتُ (والكلام للتاجر) من المغرب إلى صقلِّية خوفًا على نفسي من أهل المقتولين»[٤].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٠.
(٢) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٣.
(٣) البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص٦٩.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٨/ ٢٥٩.

وكان يتمثل ببيت الشعر الذي يقول: [البسيط]

وَحَكِّمِ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعَاقِبَةٍ ... وَخَلِّهَا سِيرَةً تَبْقَى عَلَى الْحِقَبِ

فَمَا تُنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنْزِلَةٌ ... وَلا تُرَدُّ صُدُورُ الْخَيْلِ بِالْكُتُبِ(١)

هذا كله في بلاد المغرب العربي، ولم تكن بلاد الأندلس قد دخلت بعدُ في حسابات عبد المؤمن بن عليٍّ في ذلك الوقت، إلا ما كان منه في إرسال الجيوش إليها؛ لتحوزها بعد انتصاره على المرابطين، وكان ذلك بعد استيلائه على مراكش، وفي بعض المصادر بعد استيلائه على فاس وتلمسان؛ إلا أنه أولى اهتمامه أكثر للمغرب؛ لأنه كان يعمل على أن يستقرَّ له الأمر أولاً في بلاد المغرب العربي حيث أنصار المرابطين في كل مكان، فلقد كانت المغرب حاضرة الدولة.

عبد المؤمن بن علي في الأندلس

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين، تبعهم الموحدون في الأندلس، واستولوا على المدن الأندلسية التي كانت في يد المرابطين، وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) وبعد استيلاء الموحدين على كثير من البلاد الأندلسية، قدم القاضي ابن العربي إلى بلاد المغرب، وبايع عبد المؤمن بن علي، وطلب النجدة لأهل الأندلس، وإن مبايعة القاضي ابن العربي لعبد المؤمن بن علي قد تُعطي إشارة إلى أن عبد المؤمن بن علي لم يكن يعتقد أو يدعو إلى أفكار ضالَّة كما في الدعوة إلى العصمة أو المهديَّة، أو غيرها مما كان يَدِينُ به محمد بن تومرت وبعضُ من أتباعه(٢).

قَبِلَ عبد المؤمن بن علي الدعوة من القاضي ابن العربي، وجَهَّزَ جيوشه، وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوَّات الصليبية، حتى ضمَّ معظم بلاد

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٩٧.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٤، والحلل الموشية، ص١٤٧، والسلاوي: الاستقصا، ١١٧/٢.

الأندلس الإسلامية، التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولة الموحدين، وكان ممن قاتله هناك بعض أنصار دولة المرابطين، إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك في سنة (٥٤٥هـ= ١١٥٠م)[١].

وفي سنة (٥٥٢هـ= ١١٥٧م) استطاع أن يستعيد أَلْمَرِيَّة[٢]، وفي سنة (٥٥٥هـ= ١١٦٠م) استعاد تونس من يد النصارى، وبعدها بقليل - ولأول مرة - استطاع أن يضمَّ ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي لم تكن ضمن حدود دولة المرابطين[٣].

وبهذا يكون قد وصل بحدود دولة الموحدين إلى ما كانت عليه دولة المرابطين، إضافة إلى ليبيا، وقد اقتربت حدود دولته من مصر كثيرًا، وكان يُفَكِّر في أن يُوَحِّد كل أطراف الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تكون لدولة الموحدين.

يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٣٣-٥٨٠هـ= ١١٣٨-١١٨٤م) وحُكم الموحدين

في عام (٥٥٨هـ= ١١٦٣م) تُوُفِّيَ عبد المؤمن بن علي في رباط سلا في طريقه للجهاد في الأندلس، ونُقل إلى تينملل فدُفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت، وخلفه على الحُكم ابنه محمد، ثم خُلع لفسقه وسوء خُلقه، وولي الأمر يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وكان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وقد كان مجاهدًا شهمًا كريمًا، إلاَّ أنه لم يكن في كفاءة أبيه القتالية[٤].

وقد وصفه الزركلي في الأعلام فقال: وكان حازمًا شجاعًا، عارفًا بسياسة رعيته، له علم بالفقه، كثيرَ الميل إلى الحكمة والفلسفة، استقدم إليه بعض علماء الأقطار؛ وفي جملتهم أبو الوليد بن رشد... وهو باني مسجد إِشْبِيلِيَة، أتمَّه سنة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤١٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٢٢.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٧.
(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٠٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٤.

(٥٦٧هـ)، وإليه تُنسب الدنانير (اليوسفية) في المغرب، وكانت علامته في المكاتبات وعلامة مَنْ بعده: «الحمد لله وحده»[1].

وقد ظلَّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي يحكم دولة الموحدين اثنين وعشرين عامًا مُتَّصلة، منذ سنة (٥٥٨هـ= ١١٦٣م) وحتى سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٥م)، وقد نَظَّم الأمور وأحكمها في كل بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي، وكانت له أعمال جهادية ضخمة ضدَّ النصارى، لكنه كان يعيبه شيء خطير؛ وهو أنه كان متفرِّد الرأي لا يأخذ بالشورى، وهذا -بالطبع- كان من تعليم وتربية أبيه عبد المؤمن بن علي صاحب محمد بن تومرت كما ذكرنا.

وقد مات يوسف بن عبد المؤمن بن علي وهو في جهاد الصليبيين عند مدينة شنترين بغرب الأندلس نتيجة خطأ إداري قاتل، يرويه الذهبي هكذا: «وفي سنة تسع وسبعين تجهَّز للغزو، واستنفر أهل السهل والجبل والعرب، فعبر بهم الأندلس فنزل إشبيلية، ثم قصد مدينة شَنْتَرِين -أعادها الله إلى المسلمين- وهي بغرب الأندلس، أخذها ابن الريق -لعنه الله- فنازلها أبو يعقوب وضايقها، وقطع أشجارها، وحاصرها مدَّة، ثم خاف المسلمون البرد وزيادة النهر، فأشاروا على أبي يعقوب بالرجوع فوافقهم، وقال: غدًا نرحل. فكان أوَّل مَنْ قوَّض خباءَه أبو الحسن علي ابن القاضي عبد الله المالقيّ، وكان خطيبهم، فلمَّا رآه الناس قوَّضوا أخبيتهم ثقةً به لمكانه، فعبر تلك العشيَّة أكثرُ العسكر النهر، وتقدَّموا خوف الزحام، وبات الناس يعبرون الليل كلَّه، وأبو يعقوب لا علم له بذلك، فلما رأى الروم عبور العساكر، وأخبرهم عيونهم بالأمر، انتهزوا الفرصة وخرجوا وحملوا على الناس، فانهزموا أمامهم حتى بلغوا إلى مخيَّم أبي يعقوب، فقُتِلَ على باب المخيَّم خَلْق من أعيان الجند، وخُلِصَ إلى أمير المؤمنين، فطُعن تحت سُرَّته طعنة مات منها بعد أيام

(١) الزركلي: الأعلام، ٨/ ٢٤١.

يسيرة، وتدارك الناس، فانهزم الروم إلى البلد، وقد قضوا ما قضوا، وعبر الموحِّدون بأبي يعقوب جريحًا في محفَّة... ولم يسيروا بأبي يعقوب إلاَّ ليلتين أو ثلاثًا حتى مات»[1].

من أشهر علماء الأندلس في عهده

ابن العوّام الإشبيلي (ت٥٨٠هـ=١١٨٥م):

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد، الشهير بابن العوام الإشبيلي، وقد عاش في فترة قلقلة في بلاد الأندلس؛ هي فترة غروب الحضارة الإسلامية عنها، وعاش في إِشْبِيلِيَة في منطقة الوادي الكبير المزدهر بنباتاته المتنوِّعة، والمعروف بخصبه وازدهار الفنون الزراعية بين أهله.

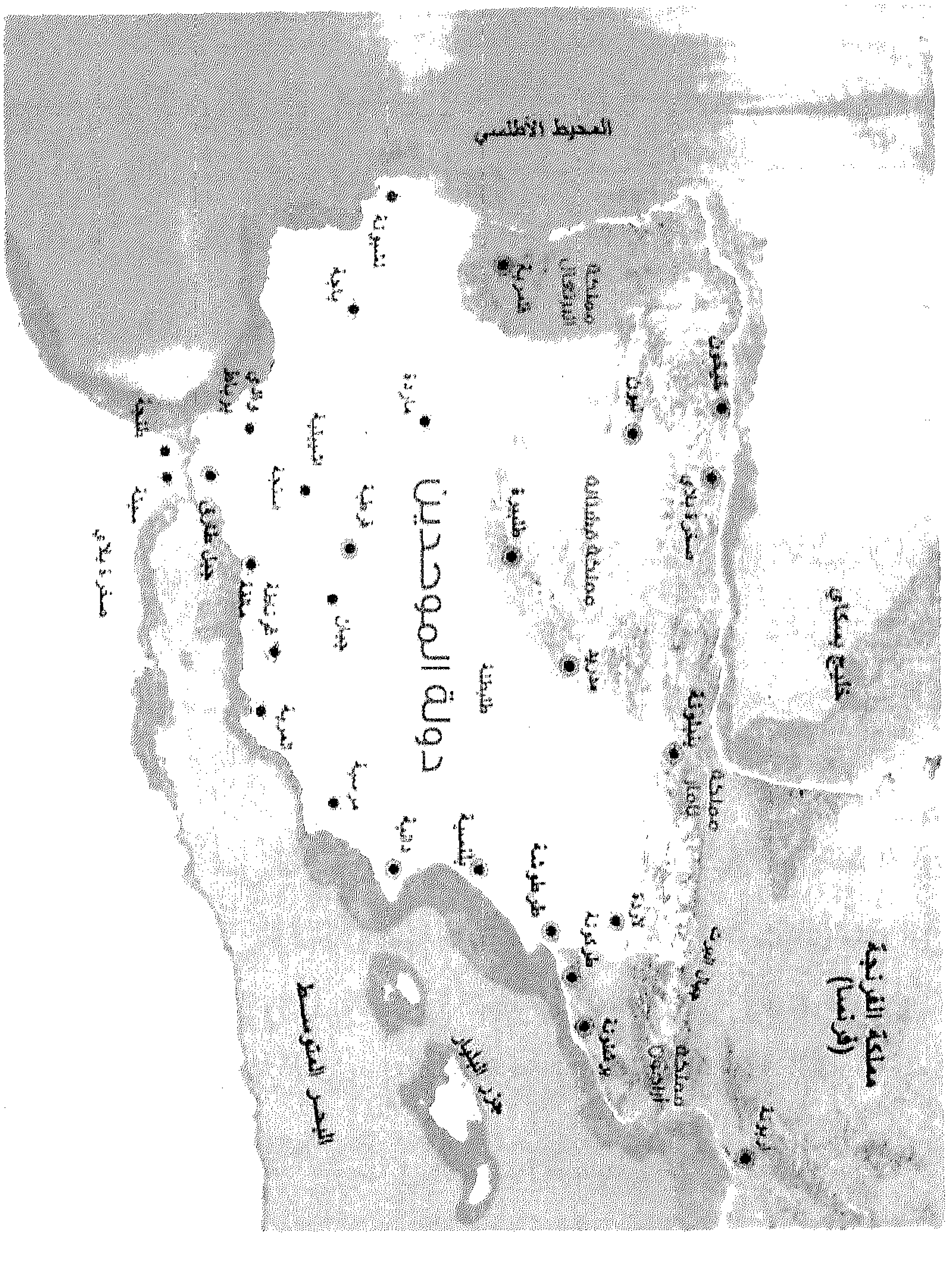
اهتمَّ ابن العوام بالفلاحة فأتقنها، وصنفها علمًا كاملاً، ولولا ابن العوام ومَنْ أتقن (علم الفلاحة) من علماء الأندلس المسلمين، لما وصل هذا العلم برُقِيِّه إلى أوربا بدءًا من القرن الثاني عشر الميلادي، وفي هذا العلم خاصة استفاد العلماء المسلمون وغيرهم من نتاج ابن العوام المتميز في التربة والأسمدة والحرث والسقي... وقد نُقِلَ إلى اللغات الأجنبية مبكرًا، ونتيجة لكثرة تجاربه وجُرأته عرف العرب -كما عرف الأوربيون فيما بعدُ- خواصَّ التربة، وكيفية تركيب السماد، وأساليب الغرس والزراعة والسقي.

ولابن العوام كتاب في الفلاحة عظيم الشأن، ليس لاحتوائه على فنون الزراعة فقط؛ بل لكونه تتبَّع في الأندلس نظريات جديدة في الكيمياء والطبيعة، واختصر فيه علوم القدماء في الزراعة، وما زال هذا الكتاب -برغم أهميته النظرية والتطبيقية- لم يُحَقَّقْ بعدُ تحقيقًا جيدًا[2].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٠/ ٣٢٣، وانظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٣٢.

(٢) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، ٥/ ١٨٤، بتصرف.



خريطة رقم (١٤) دولة الموحدين

وأَلَّف ابن العوام -أيضًا- رسالة في (تربية الكَرْم)، وقد عُثر له على مخطوط بعنوان: (عيون الحقائق وإيضاح الطرائق)، وقد توفي رحمه الله سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٥م)[١].

ابن طفيل (٤٩٤-٥٨١هـ= ١١٠٠-١١٨٥م):

هو الفيلسوف الشهير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي من أهل وادي آش جنوب الأندلس، وهو صاحب المؤلف الفلسفي الشهير: رسالة حي بن يقظان.

قال عنه لسان الدين بن الخطيب: كان عالمًا صدرًا، حكيمًا فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا بالحكمة المشرقية، محقِّقًا، متصوفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهًا، بارع الأدب؛ ناظمًا، ناثرًا، مشاركًا في جملة من الفنون[٢].

وقال عنه المراكشي في (المعجب): صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونَبْذِ ما سواه، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظِّمًا لأمر النُّبُوَّات ظاهرًا وباطنًا، هذا مع اتساعٍ في العلوم الإسلامية، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته[٣].

وقد أخذ ابن طفيل على عاتقه جمع العلماء وجلبهم من البلاد والأقطار إلى بلاط يوسف بن عبد المؤمن، وكان يحضُّه على إكرامهم والتنويه بهم، وكان ممن جلبهم إليه الفيلسوف الكبير والفقيه المالكي المعروف أبو الوليد بن رشد، فمن هنا عُرِف ابن رشد وبلغ ما بلغ[٤].

وله شعر «غاية في الجودة»[٥]؛ ومنه في الزهد: [البسيط]

---

(١) انظر: الزركلي: الأعلام، ٨/ ١٦٥، بتصرف.

(٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٤٧٩.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣١٢.

(٤) المصدر السابق، ص٣١٤.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١/ ٤٦٣.

يَا بَاكِيًا فُرْقَةَ الأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ[(١)] هَلاَّ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟!
نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طِينٍ إِلَى أَجَلٍ فَانْحَازَ عُلْوًا وَخَلَّى الطِّينَ لِلْكَفَنِ
يَا شَدَّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدَ مَا اعْتَلَقَا أَظُنُّهَا هُدْنَةً كَانَتْ عَلَى دَخَنٍ[(٢)]
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رِضَا اللهِ اجْتِمَاعُهُمَا فَيَا لَهَا صَفْقَةً تَمَّتْ عَلَى غَبَنٍ[(٣)]

عاش ابن طفيل ٨٧ سنة، وتُوُفِّيَ بمَرَّاكُش سنة (٥٨١هـ= ١١٨٥م)، وحضر الخليفة يعقوب المنصور جنازته[(٤)].

أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٥٤-٥٩٥هـ=١١٦٠-١١٩٩م) والعصر الذهبي لدولة الموحدين:

بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بن علي تولَّى من بعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقد لُقب بالمنصور، وكان له ابن يُدعى يوسف، فعُرف بأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

يُعَرِّفه ابن خلكان فيقول: أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي، صاحب بلادِ المغرب... كان صافي السمرة جدًّا، إلى الطول ما هو، جميل الوجه، أَفْوَه أَعْيَنَ شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جَهْوَرِيَّ الصوت، جَزْلَ الألفاظ، من أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثًا، وأكثرهم إصابة بالظنِّ، مجربًا للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات

---

(١) الشحط: البُعْد. ابن منظور: لسان العرب، مادة شحط ٧/ ٣٢٧.
(٢) هُدْنة على دَخَن: أي سكون لِعلَّة لا للصلح، وشبهها بدخان الحطب الرَّطْب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصَّلاح الظاهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة دخن ١٣/ ١٤٩.
(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣١٣، ٣١٤.
(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١/ ٤٦٣.

الأمور، ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه وعقدوا له الولاية، ودَعَوْهُ أمير المؤمنين كأبيه وجدِّه، ولَقَّبُوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتَّب قواعدُ بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرَّر المقاتلين في مراكزها، ومهَّد مصالحها في مدة شهرين، وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في مملكته، فأجاب قومٌ وامتنع آخرون[1].

وقد تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي حُكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة متصلة؛ من سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٤م) وحتى سنة (٥٩٥هـ= ١١٩٩م)، وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة الموحدين، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامَّة، وقد عُدَّ عصره في دولة الموحدين بالعصر الذهبي.

ونستطيع أن نتناول سيرته في الأندلس من خلال هذين العنصرين:

أولاً: المنصور الموحدي الرجل الإنسان:

مثل عبد الرحمن الداخل ومِنْ بعده عبد الرحمن الناصر، وغيرهم ممن فعلوا ما لم يفعله الشيوخ والكبار، تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي وكان عمره ستًا وعشرين سنة فقط[2]، وقد قام بالأمر على أحسن ما يكون، ورفع راية الجهاد،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣، ٤.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٧٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢١٧، وفي روايات أخرى أن سنه كانت اثنتين وثلاثين سنة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٣٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٢، وتاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢١٣.

ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أن يُغَيِّر كثيرًا من أسلوب السابقين له؛ فكانت سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم؛ حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق(١)، وكان يَؤُمُّ الناس في الصلوات الخمس(٢)، وكان زاهدًا؛ يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته؛ فاستقامت الأحوال في البلاد، وعظمت الفتوحات.

بَلَغَتْ أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي الجليلة في دولته أوجها، فحارب الخمور(٣)، وأحرق كتب الفلاسفة، واهتمَّ بالطب والهندسة(٤)، وألغى المناظرات العقيمة، التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين(٥)، وزاد كثيرًا في العطاء للعلماء، «وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل مَنْ يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة»(٦)، ومال هو إلى مذهب ابن حزم الظاهري؛ وأحرق الكثير من كتب الفروع، وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كتب السُّنَّة الصحيحة(٧).

---

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢٢٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٩٩.

(٢) ثم انقطع عن ذلك بعد أن «أبطأ يومًا عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت، وقعد الناس ينتظرونه، فخرج عليهم فصلى، ثم أوسعهم لومًا وتأنيبًا، وقال: ما أرى صلاتكم إلاَّ لنا، وإلاَّ فما منعكم عن أن تُقَدِّموا رجلاً منكم فيصلِّي بكم، أليس قد قَدَّم أصحاب رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب، أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتَّبَعُون، والهداة المهتدون. فكان ذلك سببًا لقطعه الإمامة». انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦١، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢١٩.

(٣) انظر: ابن عذاري، قسم الموحدين، ص١٧٣.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٧.

(٥) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٤.

(٦) المصدر السابق، ص٣٥٤.

(٧) المصدر السابق، ص٣٥٥.

وفي دولته اهتمَّ -أيضًا- أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بالعمران، وقد أكمل إنشاء مدينة الرباط التي كان قد اختطها ورسم حدودها أبوه يوسف، وسمَّاها رباط الفتح[1]، وأقام فيها المستشفى الكبير الذي يصفه عبد الواحد المراكشي مبهورًا بقوله: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخيَّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادةً على أربع بِرَكٍ في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكَتَّان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام، وما يُنْفَقُ عليه خاصة خارجًا عما جَلَب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدَّ فيه للمرضى ثيابَ ليلٍ ونهار... من جهاز الصيفَ والشتاء، فإذا نَقَهَ المريض فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله وتُرِكَ وسببه، ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كلُّ مَنْ مرض بمَرَّاكُش من غريب حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتٍ أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القُوَمَةُ عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله»[2].

وكان -أيضًا- يجمع الزكاة بنفسه ويُفَرِّقُها على أهلها، وكان كريمًا كثير الإنفاق؛ حتى إنه وزَّع في يوم عيدٍ أكثر من سبعين ألف شاة على الفقراء[3].

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٤١، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٧.

المنصور الموحدي يتبرأ من أباطيل ابن تومرت:

ويتبدى هذا في خطاب ابنه المأمون[1] لما أبطل القول بالمهدية، وأزال رسومها فكان مما قال: «وقد كان سيدنا المنصور رحمه الله هَمَّ أن يصدع بما به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أمله، ولا أَجَّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويَّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يدٍ يأخذ كتابه...»[2].

وكان مجلسه رحمه الله عامرًا بالعلماء وأهل الخير والصالحين، وقد ذكر الذهبي رحمه الله في السِّيَرَ أنه كان يُجيد حفظ القرآن والحديث، ويتكلَّم في الفقه ويناظر، وكان فصيحًا مهيبًا، يرتدي زي الزهَّاد والعلماء، ومع ذلك عليه جلالة الملوك[3].

وعدم اعتراف المنصور الموحدي بأفكار ابن تومرت المخالفة للكتاب والسُّنَّة يجعله من أهل السُّنَّة والجماعة، ومن الفئة الصالحة المصلحة، التي يُحقِّق الله بها النصر والتمكين لدينه والعزَّة والمنعة لأهله -تعالى- وقد أورد المراكشي ما يُفيد براءة المنصور الموحدي من أفكار ابن تومرت الضالَّة، فقال: أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة، قال: قال لي أمير

---

(١) أعلن المأمون -الخليفة الموحدي فيما بعد- وهو ابن المنصور بطلان المهدية في عام ٦٢٦ هـ، وأصدر مرسومه يقول فيه: «ولتعلموا أنَّا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحقَّ، وأن لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم، وما سُمِّيَ مهديًّا إلا أنه تَكَلَّم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها، والله يُعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة؛ فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتُبَتُّ، وتُمْحَى ولا تثبت، وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه هَمَّ أن يصدع بما به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أمله، ولا أَجَّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويَّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يدٍ يأخذ كتابه...». أمر بقطع ذِكْرِ إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، ومحا اسمه من المخاطبات ومن النقش في السِّكَّة، وقطع النداء بعد الصلاة... وما أشبه ذلك مما كان العمل عليه من أول دولة الموحدين.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٦.

المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس؛ اشهد لي بين يدي الله ﷻ أَنِّي لا أقول بالعصمة. - يعني: عصمة ابن تومرت - قال (أبو العباس): وقال لي يومًا وقد استأذنتُه في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس؛ أين الإمام؟ أين الإمام[1]؟

ويقول أيضًا: أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جَيَّان من جزيرة الأندلس يُسَمَّى أبا بكر بن هانئ مشهور البيت هناك، لقيته وقد عَلَتْ سِنُّه، فرويت عنه قال لي: لما رجع أمير المؤمنين - يعني: المنصور الموحدي - من غزوة الأرك، وهي التي أوقع فيها بالأذفنش وأصحابه، خرجنا نتلقَّاه فقدَّمني أهل البلد لتكليمه، فرفعت إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته، فلما فرغتُ من جوابه سألني كيف حالي في نفسي، فتشكَّرتُ له، ودعوتُ بطول بقائه، ثم قال لي: ما قرأتَ من العلم؟ قلتُ: قرأت تواليف الإمام. - أعني: ابن تومرت - فنظر إليَّ نظرة المغضب، وقال: ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن تقول: قرأتُ كتاب الله، وقرأتُ شيئًا من السُّنَّة. ثم بعد هذا قُلْ ما شئتَ[2].

وكان يقعد للناس عامَّة، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم، فقضى بينهما، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضربًا خفيفًا؛ تأديبًا لهما، وقال لهما: أما كان في البلد حُكَّام قد نُصبوا لمثل هذا. فكان هذا -أيضًا- مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا يُنفذها غيره.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين؛ يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم، وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم، فإذا أثنوا خيرًا؛ قال: اعلموا أنكم مسئولون

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٩.

عن هذه الشهادة يوم القيامة، فلا يقولنَّ امرؤ منكم إلا حقًّا. وربما تلا في بعض المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥][(١)].

المنصور الموحدي وبلاد الأندلس:

إضافة إلى أعماله السابقة في دولة الموحدين -بصفة عامَّة- فقد وَطَّد أبو يوسف يعقوب المنصور الأوضاع كثيرًا في بلاد الأندلس، وقَوَّى الثغور هناك، وكان يُقاتل فيها بنفسه، وقد كانت أشدُّ الممالك ضراوة عليه مملكة البرتغال، ثم مِنْ بعدها مملكة قشتالة، وقد كان له في الأندلس ما يلي:

مواجهة بني غانية:

وبنو غانية: هم أبناء محمد بن علي من قبيلة مسوفة، وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل محمدَ بن علي وأخاه يحيى إلى الأندلس قبل ظهور ابن تومرت، و«غانية» هو اسم أمِّ هذين الرجلين (يحيى ومحمد ابني علي)، دُعيا به جريًا على عادة أهل هذه البلاد من نسبة الرجال في أحايين كثيرة لأمهم[(٢)]، وبعدما مات يحيى أخو محمد بن علي (ابن غانية) وظهرت دعوة الموحدين، وبدأت تنتشر على حساب دولة المرابطين، انتقل محمد ابن غانية إلى جزر البليار، وأقام فيها دولة له ولأبنائه من بعده، وساعده على ذلك قيام ابن مردنيش في شرق الأندلس؛ وهذا ما حمى جانب بني غانية من سطوة الموحدين، فلما دان شرق الأندلس للموحدين، بدأ إسحاق بن محمد ابن غانية، يُلاطف الموحدين، ويُرسل لهم من وقت لآخر بهدايا من غنائمه وسبيه من النصارى، وكان الموحدون -في أول الأمر- لا يعبئون بهذه الجزر، ولكنهم مع مرور الوقت سَعَوْا لإدخالها في طاعتهم، فأرسلوا إلى إسحاق بذلك،

(١) المصدر السابق، ص٣٦١-٣٦٣.
(٢) وقد رأينا هذا في أسماء كبار قادة المرابطين كداود ابن عائشة.

فماطل قدر استطاعته، ثم استُشهد في إحدى غزواته قبل أن يَرُدَّ عليهم، فخلفه ابنه عليٌّ على الحُكم، ثم مات بعد قليل يوسف بن عبد المؤمن في غزوة شنترين، فقويت نفوس بني غانية، وأعلنوا صراحة رفضهم الدخول في طاعة الموحدين، ثم زادوا فسعوا لاستغلال موت الأمير الموحدي على هذا النحو، واتصلوا ببعض أعيان بجاية (في شمال دولة الجزائر الآن)، واتفقوا معهم على نصرتهم، ثم خرجوا بأساطيلهم في أوائل عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي سنة (٥٨٠هـ) واستولوا عليها، وبدأ بينهم وبين الموحدين في الأندلس وإفريقيا صراع طويل.

وفي سنة (٥٨٥هـ= ١١٨٩م) حاربهم المنصور أبو يعقوب، واستطاع أن يسيطر على جزيرتين من جزر البليار الثلاث، ثم واجه تمردهم كذلك في المغرب، وكان من جرَّاء ذلك أن ضعفت كثيرًا قوَّة الموحدين في الأندلس.

استغلَّ ملك البرتغال انشغال أبي يوسف يعقوب المنصور في هذه المواجهات، واستغلَّ الضعف الذي كان نتيجة طبيعية لذلك، واستعان بجيوش ألمانيا وإنجلترا البرِّيَّة والبحريَّة، ثم حاصر إحدى مدن المسلمين هناك، واستطاع أن يحتلَّها ويُخْرِجَ المسلمين منها، وقد فعل فيها من الموبقات ما فعل، ثم استطاع أن يُوَاصل تقدُّمَه إلى غرب مدينة إِشْبِيلِيَة في جنوب الأندلس[1]، وهنا أضحى الوضع في غاية الخطورة.

سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تُعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور -ثالث الخلفاء الموحدين- العصرَ الذهبي للدولة الموحدية، والذروة التي وصل إليها التطوُّر السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الموحدية، ولقد كان العصر الذهبي قصيرًا، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف، غزيرة الثروة

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد الموحدين، ص٧٩.

والموارد مثل دولة الموحدين؛ فإن خلفاء الموحدين حكموا بلادًا تُضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوَّتهم، وكان تحت إمارتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك، لم يتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي؛ فقد كانت جيوش الموحدين تعجُّ بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن استمالتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أُضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين، الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يَخْلُ الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة. ورغم وجود هذه القوَّات، إلاَّ أن هذه القوة العسكرية الموحدية كانت دائمًا مُفَكَّكة، تنقصها القيادة الحازمة، التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتُوَجِّه الأعمال وَفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازمًا موهوبًا في شئون الإدارة والقيادة، وكان شديد الإيمان؛ فانتقل إيمانه إلى رجاله، وأصبحت جيوش الموحدين في أيامه قوَّة ضاربة كبرى[1].

* * *

(١) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٢٣، ٢٢٤.

الفصل الرابع

معركة الأرك الخالدة

بعد القضاء على ثورات بني غانية أخذ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي يُفكِّر في كيفية إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وإيقاف أطماع النصارى في بلاد الأندلس، علم أوَّلاً أن أشدَّ قوَّتين عليه هما قوَّة قشتالة وقوة البرتغال، لكنه استقبل رسالة من ملك قشتالة يسعى فيها إلى الصلح والمهادنة، بل ويعرض عليه أن يُحالفه ضدَّ مَنْ يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملَّة ملك قشتالة، وذكر أبو يوسف في رسالته أنه بعد أن روَّى في الأمر واستخار عزم على إجابة مطلب ملك قشتالة فقَبِلَ مسالمته، بما لا يتعارض مع عزَّة الإسلام والمسلمين[1].

وفي سنة (٥٨٥هـ)، جاء عدوانُ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز؛ يروي عبد الواحد المراكشي فيقول: «قَصَدَ بطرو بن الريق[2] - لعنه الله- مدينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس[3] والشواني[4]،

---

(١) ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية: الرسالة الرابعة والثلاثون، ص٢٢٢.

(٢) أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز كما كان يسميه العرب وقتها.

(٣) البطس: مفردها بطسة، وهي من أنواع المراكب البحرية الكبيرة، عرفها العرب المسلمون منذ بداية العصر الإسلامي، واستعملوها في الحروب البحرية والأعمال التجارية، عدد أشرعتها أربعون شراعًا، تحمل على متنها ما يزيد عن ألفين وخمسمائة شخص. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٨١.

(٤) الشواني: جمع شونة، وهي طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية عرفها اليونان والرومان واستعملها العرب في العصر الإسلامي، تسير بالشراع، يصل عدد مجاديفها إلى ١٠٠، وهي مزودة بأبراج خاصة، وتحمل على متنها حوالي ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٢٨٧.

وكان قد وَجَّه إليهم يستدعيهم إلى أن يُعِينُوه على أن يجعل لهم سبي البلد، وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها، وسبوا أهلها، وملك ابن الريق -لعنه الله- البلد، وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة، وسار حتى عبر البحر، ولم يكن له هَمٌّ إلا مدينة شلب المذكورة، فنزل عليها، فلم تطق الروم دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها، ولم يكفِهِ ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له: طرش»[١].

ثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش في المغرب العربي بعد هذا النصر المؤزر على البرتغال، والهدنة مع قشتالة، وبقيت طائفة أخرى لم تصالح المنصور، وهي التي ستكون السبب في الحرب القادمة.

بعد أقل من خمس سنوات «جمعت تلك الطائفة (التي لم تصالح) جمعًا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا، وغنموا وأسروا، وعاثوا فيها عيثًا شديدًا»[٢]، ثم ما لبث أن اجتمع معهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور، فبعث إلى جميع الثغور الإسلامية يُنذر بانتهاء الهدنة -وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجين عليه من بني غانية وغيرها- ثم بعث بقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يُغيرون عليها ويُثخنون فيها، وقد مال المنصور إلى الانتهاء من أمر المتمردين أولاً، لولا أن توالت كتب أهل الأندلس عليه تُشير باشتداد وطأة العدو إلى ما لا يطاق، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير صوب العبور إلى الأندلس[٣].

وقبل هذا الوقت بسنوات قلائل كان المسلمون في كل مكانٍ يعيشون نشوة

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص٣٥٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٠٤-٢١٢، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٨.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ١٩٧.

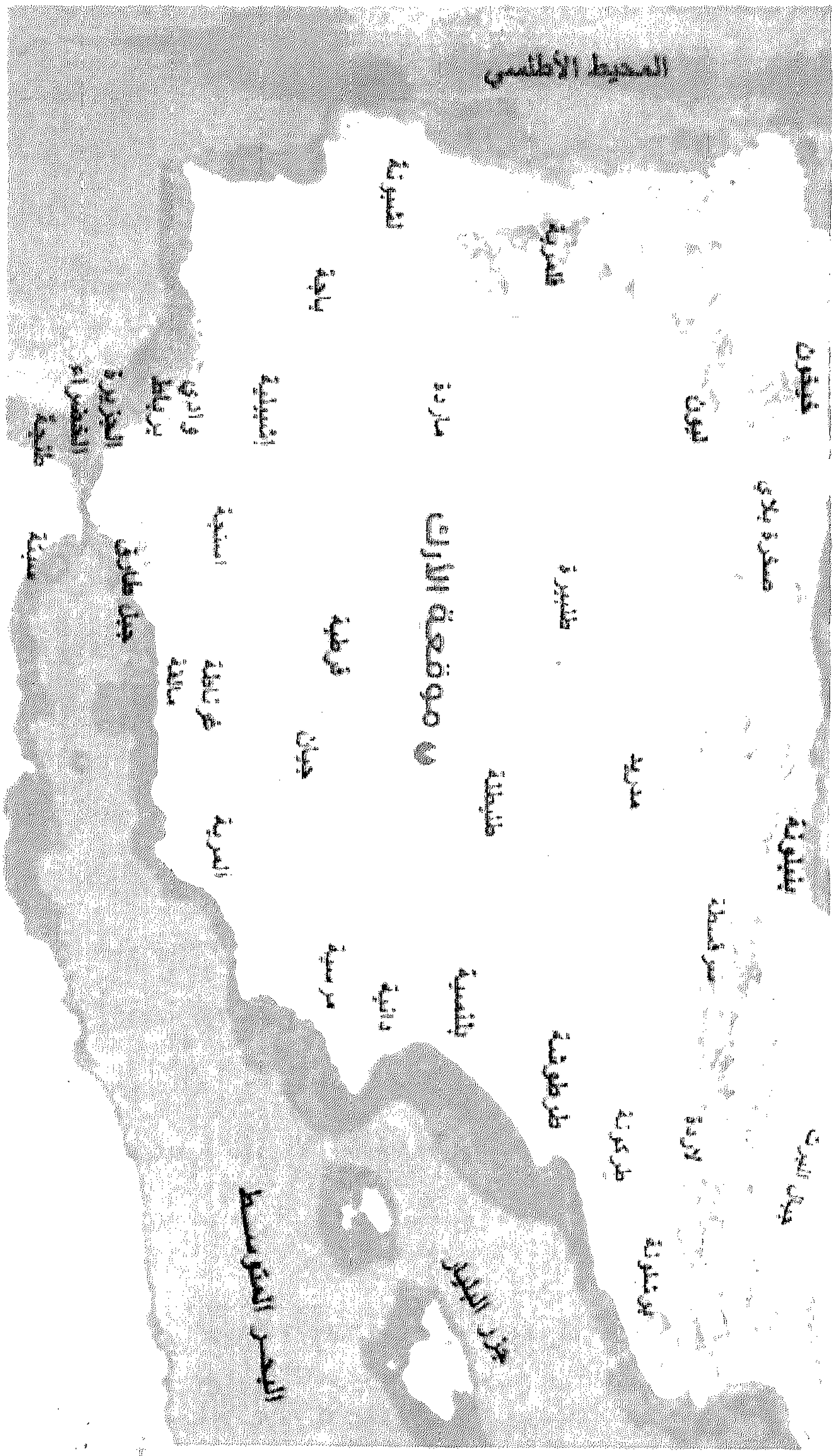
النصر الكبير الذي حقَّقه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة في سنة (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)؛ أي: قبل هذه الأحداث بسبع سنوات فقط، وما زال المسلمون في المغرب يعيشون هذا الحدث الإسلامي الكبير، ويتمنَّوْنَ ويُريدون أن يُكَرِّرُوا ما حدث في المشرق؛ خاصَّة بعد أن قام أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بتحفيزهم في الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

كان ثمة جيش جاهز لمواجهة المتمردين على المنصور، ولكن لما تغيرت الوجهة أقبل المجاهدون المتطوعة، وقد بدأ هذا الاستنفار في سنة (٥٩٠هـ=١١٩٤م)، وبعدها بعام واحد وفي سنة (٥٩١هـ=١١٩٥م) انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب العربي والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس؛ لتلتقي مع قوَّات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة ما برح التاريخ يذكرها ويُجِلُّها[1].

موقعة الأرك الخالدة:

الأرك: حصن على بُعْدِ عشرين كيلو مترًا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، ومحلُّها اليوم: (Sta Maria de Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (giadad real) «المدينة الملكية»، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه[2].

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢١٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٥.
(٢) شوقي أبو خليل: الأرك، ص٥٤.


المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
جزر البليار
موقعة الأرك
قرطبة
طليطلة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
بلنسية
مرسية
دانية
جبل طارق
سبتة
طنجة
الجزيرة الخضراء

وفي التاسع من شهر شعبان سنة (٥٩١هـ=١١٩٥م) وعند هذا الحصن الكبير الذي يقع في جنوب طُلَيْطِلَة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس، في ذلك الوقت التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى هناك[١]، وكان ألفونسو الثامن قد أعدَّ جيشه بعد أن استعان بمملكتي ليون ونافار، في قوَّة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني، وقد أحضروا معهم بعض جماعات من اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليتمَّ بيعهم بعد ذلك في أوربا[٢].

وعلى الجانب الآخر فقد أعدَّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي جيشًا كبيرًا، بلغ قِوَامه مائتي ألف مسلم[٣] من جرَّاء تلك الحمية، التي كانت في قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء؛ خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (٥٨٣هـ= ١١٨٧م) في الشرق.

البدايات وأمور جديدة على الموحدين:

في منطقة الأرك وفي أول عمل له عقد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي مجلسًا استشاريًّا يستوضح فيه الآراء والخطط المقترحة في هذا الشأن، ولقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له، والذين غلب عليهم التفرُّد في الرأي، فسار على منهج رسول الله ﷺ في ذلك الأمر، وفي هذا المجلس الاستشاري استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء؛ حتى إنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطَّة الحرب، وهو من الزعماء الأندلسيين وليس من قبائل المغرب البربرية،

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٢٣٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥، ٤/ ١٨٢، ١٨٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥/ ٢١٣، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ٨٤.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٩.

وكان هذا -أيضًا- أمرًا جديدًا على دولة الموحدين، التي كانت تعتمد على جيوش المغرب العربي فقط، فضمَّ أبو يوسف يعقوب المنصور قوَّة الأندلسيين إلى قوَّة المغاربة والبربر القادمين من الصحراء[١].

الاستعداد ووضع الخطط:

في خُطَّة شبيهة جدًّا بخطَّة موقعة الزَّلاَّقَة قَسَّم أبو يوسف يعقوب المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءًا في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه، ثم اختار أميرًا عامًّا للجيش، هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولَّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتولَّى عليهم مغربي أو بربري[٢].

وإتمامًا لهذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي الموحدي ومن الأندلسيين، «فجعل (أميرُ الجيش أبو يحيى) عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز (المماليك المصريون) والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة»[٣].

وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأميرُ الموحدي رسالة إلى كل المسلمين، يقول فيها: إن الأمير يقول لكم: اغفروا له؛ فإنَّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطَيِّبُوا نفوسكم، وأخلصوا لله نيَّاتكم. فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقفُ وداعٍ، ثم قام الخطباء يخطبون عن الجهاد ويُذَكِّرون بفضله وشرفه ومكانته ويُحَمِّسون الجند له[٤]،

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨٧.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨٩.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢١٩

«فنشط الناس، وطابت النفوس، ومن الغد صدع بالنداء، وبأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء»[(١)].

اللقاء المرتقب:

في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تلٍّ كبير، وكان على المسلمين أن يُقَاتِلوا من أسفل ذلك التلِّ، لكن ذلك لم يَرُدّ المسلمين عن القتال، وقد بدأ اللقاء ونزل القشتاليون كالسيل الجارف..

ولنترك ابن أبي زرع يروي قصة المعركة، يقول:

«تحرَّك من جيش العدوِّ - دمَّره الله تعالى- عقدة كبيرة من سبعة آلاف فارس إلى ثمانية آلاف فارس، كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزَّرّد[(٢)] النظيف النضيد، فدُفعت نحو عسكر المسلمين... فوصلت تلك العقدة التي دفعت بأجمعها حتى لطمت أطرافُ رماح المسلمين في صدور خيلهم أو كادت، ثم تقهقروا قليلاً، ثم عادوا بالحملة. فعلوا ذلك مرتين، ثم تهيئوا للدفعة الثالثة، والقائد ابن صناديد والزعيم العربي يناديان برفع أصواتهما: اثبتوا معشر المسلمين؛ ثَبَّت الله أقدامكم بالعزمة الصادقة.

فدفع النصارى على القلب الذي فيه أبو يحيى؛ قاصدين إليه يظنون أنه أمير المؤمنين، فقاتل رحمه الله قتالاً شديدًا وصبر صبرًا جميلاً، حتى استشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمطوعة، وغيرهم ممن ختم الله تعالى له بالشهادة، وسبقت له من الله تعالى السعادة.

وصبر المسلمون صبرًا جميلاً، ورجع النهار بالغبار ليلاً، وأقبلت قبائل المطوعة

---

(١) ابن الخطيب: رقم الحلل، ص٥٩.
(٢) الزَّرَد: حِلَق المغفر والدرع. ابن منظور: لسان العرب، مادة زرد ٣/ ١٩٤، والمعجم الوسيط ١/ ٣٩١.

والعرب والأغزاز والرماة، وأحاطوا بالنصارى الذين دفعوا من كل جانب، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس وحشودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر البربر إلى الربوة التي فيها ألفونسو الثامن -لعنه الله- يُقاتلون مَنْ فيها من جيش الروم.

وكان ألفونسو -لعنه الله- فيها مع جيوش الروم وجميع عساكره وأجناده فيما يزيد على ثلاثمائة ألف، ما بين فارس وراجل، فتعلّق المسلمون بالربوة وأخذوا في قتال مَنْ بها فاشتدَّ القتال، وعظمت الأهوال، وكثر القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو العشرة آلاف زعيم، انتخبهم اللعين ألفونسو الذميم، وصَلَّتْ عليه الأقسة[1] صلاة النصر، ورَشُّوا عليهم ماء المعمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان ألاَّ يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنسانًا، فصدق الله ﷻ وعده، ونصر جنده.

فلمَّا اشتد القتال على الكفار، وأيقنوا بالفناء والبوار، وَلَّوُا الأدبار، وأخذوا في الفرار، إلى الربوة التي فيها ألفونسو ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكصين في الوطا، فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحنًا، وأفْنَوْهم عن آخرهم، وانكسرت شوكة ألفونسو بفنائهم؛ إذ كان اعتماده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين، وأطلقوا أَعِنَّتهم نحوه، وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو.

فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصوات بالشهادة، وخفقت البنود، وتسابقت لقتال أعداء الله الأبطالُ والجنودُ، وزحف أمير المؤمنين بجيوش الموحدين، قاصدًا لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيل وأسرعت الرجال، وقصدوا نحو الكفرة، للطعان والنزال، فبينما ألفونسو الثامن -لعنه الله- قد همَّ

(١) الأقسة: جمع قسيس.

وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيوشه، ويصدهم بجنوده وحشوده؛ إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبواق قد طبقت الرُّبَا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالبَ إلى الله. وأبطال المسلمين قد تسابقت وجيوشهم قد تناسقت وتتابعت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا أمير المؤمنين قد أقبل، وما قاتلك اليوم كله إلاَّ طلائع جيوشه، ومُقَدِّمات عساكره، فقذف الله ﷻ الرعب في قلوب الكافرين، ووَلَّوُا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.

وتلاحقت به فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم، ويُحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم السيوف، ويُذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، وهم يظنون أن ألفونسو -لعنه الله- قد تحصَّن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه من باب، وخرج من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عَنوة، وأضرموا النيران في أبوابه، واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال والذخائر والأرزاق، والأسلحة والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقُتل في هذه الغزاة من الكفرة ألوف لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ولا يَعلم لها أحدٌ عددًا إلاَّ الله تعالى.

وأخذ في حصن الأراك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتنَّ عليهم أمير المؤمنين، وأطلقهم بعدما ملكهم؛ ليكون له بذلك يد الامتنان ويدٌ عُلْيَا عليهم، فعزَّ فعله ذلك على الموحدين وعلى كافَّة المسلمين، وحُسِبَتْ له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك»[1].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٢٢٥ وما بعدها. وانظر حوادث المعركة مختصرة في: ابن عذاري في البيان المغرب - قسم الموحدين - ص٢١٤-٢٢٠، وابن الخطيب: رقم الحلل ص٥٩.

طارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادةً لا تُوصف؛ خاصَّة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

قال المقري: وكان عدة مَنْ قُتِل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستَّة وأربعين ألفًا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفًا، وعدة الخيام مائة ألف وستَّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفًا، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفَّار لحمل أثقالهم؛ لأنَّهم لا إبل لهم، وأمَّا الجواهر والأموال فلا تُحصى، وبِيع الأسير بدرهم[1]، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقَسَّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفونسو ملكُ النصارى إلى طُلَيْطِلَة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا ولا دابَّة؛ حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدُّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه، وسار خلفه إلى طُلَيْطِلَة وحاصره، ورمى عليها بالمجانيق، وضيَّق عليها، ولم يبقَ إلا فتحُها، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقَّ لهن ومَنَّ عليهن بها، ووهب لهنَّ من الأموال والجواهر ما جَلَّ، وردَّهُنَّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبَة، فأقام شهرًا يُقَسِّم الغنائم[2].

نتائج انتصار الأرك:

تمخَّض عن انتصار الأرك الكبير آثار ونتائج عظيمة؛ أهمُّها ما يلي:

---

(١) أمْرُ بيع الأسير بدرهم -كما عند المقري- مما يتنافى مع روايات المعاصرين للمعركة من امتنان المنصور عليهم بإطلاقهم بغير فداء.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٣.

أولا: الهزيمة الساحقة لقوات النصارى:

كان من أهمِّ آثار انتصار الأرك تَبَدُّدُ جيش النصارى بين القتل والأسر؛ فقد قُتِلَ منهم في اليوم الأول فقط -على أقل تقدير- ثلاثون ألفًا، وقد جاء في نفح الطيب للمقري أن عدد قتلى النصارى وصل إلى ستة وأربعين ألفًا ومائة ألف قتيل، من أصل خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير[1]، وقد مَنَّ عليهم المنصور بغير فداء؛ إظهارًا لعظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوَّة النصارى[2].

ثانيًا: النصر المادي:

رغم الكسب المادي الكبير جدًّا، إلاَّ أنه كان أقلَّ النتائج المترتبة على انتصار المسلمين في موقعة الأرك؛ فقد حصد المسلمون من الغنائم ما لا يُحصى، وقد بلغت -كما جاء في نفح الطيب- ثمانين ألفًا من الخيول، ومائة ألفٍ من البغال، وما لا يُحصى من الخيام[3].

وقد وزَّع المنصور رحمه الله هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله ﷺ؛ فوزَّع على الجيش أربعة أخماسها، واستغلَّ الخمس الباقي في بناء مسجد جامع كبير في إِشْبِيلِيَة؛ تخليدًا لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة سامقة يبلغ طولها مائتي متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت، إلاَّ أنها -وسبحان الله!- حين سقطت إِشْبِيلِيَة بعد ذلك في أيدي النصارى تحوَّلت هذه المئذنة -والتي كانت رمزًا للسيادة الإسلامية- إلى برج نواقيس للكنيسة، التي حلَّت مكان المسجد الجامع[4]، وهي موجودة إلى الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) المصدر السابق، ١/ ٤٤٣.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٨.
(٣) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٣.
(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٩.

ثالثًا: النصر المعنوي:

كان من نتائج موقعة الأرك -أيضًا- ذلك النصر المعنوي الكبير الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيرًا، وارتفعت معنويات الأندلسيين، وهانت عليهم قوَّة النصارى، وارتفعت -أيضًا- معنويات المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي؛ حتى راحوا يعتقون الرقاب، ويُخْرِجُون الصدقات فرحًا بهذا الانتصار.

وكان من جرَّاء ذلك -أيضًا- أن استمرَّت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وحاصروا طُلَيْطِلَة إلاَّ أنها -كما ذكرنا من قبل- كانت من أحصن المدن الأندلسية؛ فلم يستطيعوا فتحها[1].

رابعًا: صراعات شتى بين ممالك النصارى:

نتيجةً لموقعة الأرك -أيضًا- حدثت صراعات شتَّى بين ليون ونافار من ناحية، وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسئولية الهزيمة[2]، وكان من نتائج ذلك -أيضًا- أن وقعت لهم الهزيمة النفسية، وترتَّب على هذا -أيضًا- أن أتت السفارات تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدي.

خامسًا: معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين:

أيضًا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووقف القتال مدَّة عشر سنوات، أراد المنصور أن يُرَتِّبَ فيها الأمور من

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٠، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٥، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ١٩٢، وانظر تفاصيل غزو المنصور لأراضي قشتالة في مجموع رسائل موحدية، الرسالة الخامسة والثلاثون، ص٢٣١.

(٢) انظر: يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ٩٥، وليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية ص٢٣٨.

جديد في بلاد الموحدين[1].

أشهر العلماء في عهد يعقوب المنصور:

ابن رشد الحفيد (٥٢٠-٥٩٥هـ= ١١٢٦-١١٩٨م):

هو أبو الوليد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، كان مولده سنة (٥٢٠هـ=١١٢٦م)، وقد نشأ في بيتٍ من بيوت العلم؛ فقد كان جدُّه ابن رشد -كما قال عنه ابن بشكوال في الصلة- فقيهًا عالمًا، حافظًا للفقه، مُقَدَّمًا فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيرًا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم، نافذًا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرئاسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن والهدي الصالح[2].

نشأ ابن رشد الحفيد في هذا البيت، ومع أنه لم يُدرك جدَّه العظيم هذا -حيث تُوُفِّيَ جدُّه وعُمر الحفيد شهر واحد- إلاَّ أنه ورث العلم الغزير، خاصَّة في الفقه عن أبيه الذي تربَّى وتَعَلَّم على يد جدِّه وعن غيره من فقهاء عصره، وقيل: إنه تلقَّى علوم الفلسفة على ابن باجة[3].

وقد ذكر الذهبي أن ابن رشد ما ترك الاشتغال مذ عَقَل سوى ليلتين: ليلة موت أبيه، وليلة عرسه، وأنه سوَّد فيما أَلَّف وقيَّد نحوًا من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الحكماء، فكانت له فيها الإمامة، وله من التصانيف: بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه، والكليات في الطب، ومختصر المستصفى في الأصول، وشرح

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٠، وقالت بعض المصادر: إن مدة الهدنة كانت خمس سنين. انظر: ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٢٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٩٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ٣/ ٨٣٩ (١٢٧٨).

(٣) رحاب عكاوي: ابن رشد، ص٩.

أرجوزة ابن سينا في الطب، والمقدمات في الفقه، وكتاب الحيوان، وكتاب جوامع كتب أرسطوطاليس، وشرح كتاب النفس، وكتاب في المنطق، وكتاب تلخيص الإلاهيات لنيقولاوس، وكتاب تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، وكتاب تلخيص الاستقصات لجالينوس، ولخصَّ له كتاب المزاج، وكتاب القوى، وكتاب العلل، وكتاب التعريف، وكتاب الحميات، وكتاب حيلة البرء، ولخص كتاب السماع الطبيعي، وكتاب تهافت التهافت، وكتاب منهاج الأدلة، وكتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، وكتاب شرح القياس لأرسطو، ومقالة في العقل، ومقالة في القياس، وكتاب الفحص في أمر العقل، والفحص عن مسائل في الشفاء، ومسألة في الزمان، ومقالة فيما يعتقده المشَّاءون وما يعتقده المتكلمون في كيفية وجود العالم، ومقالة في نظر الفارابي في المنطق ونظر أرسطو، ومقالة في اتصال العقل المفارق للإنسان، ومقالة في وجود المادَّة الأولى، ومقالة في الردِّ على ابن سينا، ومقالة في المزاج، ومسائل حكمية، ومقالة في حركة الفلك، وكتاب ما خالف فيه الفارابي أرسطو[1].

أثر فلسفة ابن رشد على الغرب:

كان لابن رشد فضل كبير على روجر بيكون الفيلسوف الشهير؛ فقد استفاد هذا الأخير من مؤلفاته وحيًا، واستنزل من حكمته إلهامًا، وذكره في كتابه اللاتيني (أبوس ماجوس)، وأثنى عليه وعلى مواهبه وسعة علمه، فقال: «إنه فيلسوف متين متعمق، صحَّح كثيرًا من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يُستغنى عنها بسواها، وأدرك كثيرًا مما لم يكن قبله معلومًا لأحد، وأزال الغموض عن كثير من الكتب التي تناولها ببحثه».

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣٠٨، ٣٠٩.

وأمّا توماس الأكويني الذي أصبح قديسًا؛ لأنه كان أعظم لاهوتي في كنائس الغرب، وأكبر فلاسفة القرون الوسطى، فقد سطع نجمه وعلا بكتابه إجمال اللاهوت (سوماتيولوجيا)، وقد ذكر توماس أسباب اتصاله بالأفكار الدنيوية، ودلَّ على أن الفضل في وضع كتابه شكلاً ومادة يعود إلى طريقة ابن رشد وفلسفته.

على أن فيلسوف قُرْطُبَة - ابن رشد - لم يسلم من ألسنة رجال الكنيسة؛ فقد ذمُّوه بكل شفة ولسان، وطعنوا عليه أقبح طعن؛ فقد قال عنه بترارك: «إنه ذلك الكلب الكلِب الذي هاجه غيظ ممقوت؛ فأخذ ينبح على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية». وأما دانتي فقد جعله في هدوء ووقار يتبوَّأ مقعده في الجحيم جزاء له على كفره واعتزاله[1].

ومن ثناء العلماء عليه ما نقله الذهبي عن ابن أبي أصيبعة من قوله: كان أوحد في الفقه والخلاف، وبرع في الطب[2]، وقول الذهبي نفسه: «وكان يُفزع إلى فتياه في الطب، كما يُفزع إلى فتياه في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي»[3].

محنة ابن رشد:

كان الخليفة أبو يعقوب يستعين بابن رشد إذا احتاج الأمر للقيام بمهام رسمية عديدة، ولأجلها طاف في رحلات متتابعة في مختلف أصقاع المغرب؛ فتنقَّل بين مَرَّاكُش وإِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة، ثم دعاه أبو يعقوب في سنة (٥٧٨هـ) إلى مَرَّاكُش فجعله طبيبه الخاص، ثم ولاَّه منصب القضاء في قُرْطُبَة، فلما مات أبو يعقوب يوسف وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور زادت مكانة ابن رشد في عهده مكنة ورفعة،

(١) محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص٢٢٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٨، وانظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣١٩.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٨.

وقرَّبه الأمير إليه، ولكن كاد له بعض المقرَّبين من الأمير، فأمر الأمير بنفيه إلى قرية كانت لليهود، وأحرق كتبه، وأصدر منشورًا إلى المسلمين كافَّة ينهاهم عن قراءة كتب الفلسفة، أو التفكير في الاهتمام بها، وهَدَّد مَنْ يُخَالِف أمره بالعقوبة[1].

وقد مات ابن رشد محبوسًا في داره بمَرَّاكُش، وذلك سنة (٥٩٥هـ=١١٩٨م)[2].

محمد بن سعيد بن زرقون (٥٠٢-٥٨٦ هـ= ١١٠٩-١١٩٠م):

هو -كما يصفه الذهبي في السير- المُسْنِدُ الفقيه، أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي المالكي، المعروف بابن زرقون... وزرقون هو لقب جدهم سعيد.

وقد وُلِدَ سنة (٥٠٢هـ) في شَرِيش بالأندلس وتُسمى الآن هريز في جنوب إسبانيا، تلقَّى العلم على شيوخها، ثم انتقل مع أبيه إلى مَرَّاكُش، وبعد ذلك إلى الأندلس وتجوَّل فيها، ولازم القاضي عياضًا (ت ٥٤٤هـ)، وتلقَّى العلم بمَرَّاكُش وبسَبْتَة، وتولَّى ابن زرقون القضاء في إِشْبِيلِيَة وشِلْب.

وكان مُسْنِدُ الأندلس في وقته، وله مؤلَّف جَمَعَ بين الجامع الكبير للترمذي وسنن أبي داود في الحديث، وقد تُوُفِّيَ بإِشْبِيلِيَة في نصف رجب (٥٨٦هـ=١١٩٠م) عن أربع وثمانين سنة[3].

الإمام الشاطبي (٥٣٨-٥٩٠هـ=١١٤٤-١١٩٤م):

هو كما يصفه الذهبي في السير: الشيخ الإمام، العالم العامل، القدوة، سيد القرَّاء، أبو محمد، وأبو القاسم القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعيني، الأندلسي

(١) رحاب عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام، ٢/ ٢٤٩.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٩.
(٣) المصدر السابق، ٢١/ ١٤٧، وما بعدها بتصرف.

الشاطبي، الضرير، وُلِدَ في شاطِبَة من بلاد الأندلس سنة (٥٣٨هـ=١١٤٤م)[١].

قرأ ببلده القراءات (أي علم قراءات القرآن الكريم) وأتقنها، ثم رحل إلى بَلَنْسِيَة بالقرب من بلده وسمع الحديث، ثم رحل للحج فأخذ العلم -أيضًا- بالإسكندرية[٢].

ومن أشهر مؤلفات الإمام الشاطبي قصيدته الرائعة العظيمة الفائدة، الجمَّة النفع، المسماة: (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع)، والتي عُرفت بـ «متن الشاطبية»، وقد أبدع رحمه الله فيها غاية الإبداع، ورزقه الله من التوفيق في هذا المتن ما لا يُوصف إلاَّ بأنه نور من الله ﷻ نوَّر به عقله وقلبه، فأطلق لسانه بهذا المتن العظيم (متن الشاطبية)؛ ويقع هذا المتن في أبيات تزيد على الألف، وقد قال رحمه الله في خاتمته: [الطويل]

وَأَبْيَاتُهَا أَلْفٌ تَزِيدُ ثَلاَثَةً وَمَعْ مِائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرًا وَكُمَّلاَ

قال الشارح: زُهْرًا وَكُمَّلاً: حالان من الضمير في تزيد الراجع إلى الأبيات؛ أي: هي زاهرة كاملة، يعني: مضيئة كاملة الأوصاف. ثم قال رحمه الله:

وَقَدْ كُسِيَتْ مِنْهَا الْمَعَانِي عِنَايَةً كَمَا عَرِيَتْ عَنْ كُلِّ عَوْرَاءَ مِفْصَلا

قال الشارح: أثنى في هذا البيت على معانيها وألفاظها؛ فنصب (عناية) على أنه مفعولي كُسيت؛ أي أنه اعتنى بها فجاءت شريفة المعاني، حسنة المباني، وقابل بين الكسوة والعري، فقال: كُسيت معانيها عناية، وعَرِيت في التعبير عنها عن كل جملة عورًا؛ أي لا تُنْبِئُ عن المعنى المقصود فهي ناقصة[٣].

---

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٠-٢٢.

(٣) أبو شامة: إبراز المعاني من حرز الأماني، ص٧٥٦.

ونَظَم -أيضًا- قصيدته الرائية المسمَّاة: (عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد)، وهي في علم الرسم[١]، و(ناظمة الزهر) وهي في علم عدد الآي، وله -أيضًا- قصيدة دالية تقع في خمسمائة بيت لخَّص فيها التمهيد لابن عبْد البر[٢].

وتتلمذ عليه كثيرون، فقد كان شيخَ القراء بلا منازع، وقد بارك الله له في تصنيفه وأصحابه، فلا نعلم أحدًا أخذ عنه إلا قد نجب[٣].

قال عنه الإمام ابن الجزري: وكان إمامًا كبيرًا أُعجوبة في الذكاء، كثير الفنون، آية من آيات الله تعالى، غاية في القراءات، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، إمامًا في اللغة، رأسًا في الأدب مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع والكشف، شافعي المذهب، مواظبًا على السُّنَّة، بلغنا أنه وُلِدَ أعمى، ولقد حكى عنهُ أصحابه ومَنْ كان يجتمع به عجائب، وعَظَّمُوه تعظيمًا بالغًا؛ حتى أنشد الإمام الحافظ أبو شامة المقدسي رحمه الله من نظمه في ذلك: [الوافر]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَلاءَ فَازُوا ... بِرُؤْيَةِ شَيْخِ مِصْرَ الشَّاطِبِيِّ

وَكُلُّهُمُ يُعَظِّمُهُ وَيُثْنِي ... كَتَعْظِيمِ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ[٤]

وقال عنه المقري في نفح الطيب: وكان إمامًا علاَّمة ذكيًّا، كثير الفنون، منقطع القرين، رأسًا في القراءات، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، واسع العلم، وقد سارت الركبان بقصيدتيه: (حرز الأماني) و(عقيلة أتراب الفضائل) اللتين في القراءات والرسم، وحَفِظَهما خلقٌ لا يُحْصَوْنَ، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحُذَّاق القرَّاء، ولقد أوجز وسهَّل الصعب[٥].

---

(١) أي رسم المصحف وهو كتابة القرآن الكريم.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦٣، ٢٦٤.
(٣) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٢.
(٤) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٠، ٢١.
(٥) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٤.

وقال السبكي في حقِّ الإمام الشاطبي: إنَّه كان قويَّ الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون، فقيهًا، مقرئًا، محدِّثًا، نحويًّا، زاهدًا، عابدًا، ناسكًا، يتوقَّد ذكاءً. وقال السخاوي: أقطع أنَّه كان مكاشفًا، وأنَّه سأل الله كتمان حاله، ما كان أحدٌ يعلم أي شيء هو[1].

وقال ابن خلّكان: ولقد أبدع كل الإبداع في حرز الأماني، وهي عمدة قرَّاء هذا الزمان في نقلهم، فقلَّ مَنْ يشتغل بالقراءات إلاَّ ويُقَدِّم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة، وما أظنُّه سُبِقَ إلى أسلوبها، وقد رُوِيَ عنه أنَّه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلاَّ وينفعه الله؛ لأنني نظمتها لله[2].

وقال عنه الذهبي: كان يتوقَّد ذكاء، له الباع الأطول في فنِّ القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق مع الورع والتقوى، والتألُّه والوقار... وكان إذا قُرِئَ عليه (الموطأ) و(الصحيحان)، يُصَحِّحُ النسخ من حفظه، حتى كان يقال: إنه يحفظ وِقْر بعير من العلوم[3].

ومن عجيب ما يُروى له من الكرامات، ما أورده الإمام ابن الجزري، قال: أخبرني بعض شيوخنا الثقات عن شيوخهم أن الشاطبي كان يُصَلِّي الصبح بغلس بالفاضلية، ثم يجلس للإقراء، فكان الناس يتسابقون السُّرَى[4] إليه ليلاً، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله: مَنْ جاء أولاً فليقرأ. ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فاتُّفِقَ في بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولاً، فلما استوى الشيخ قاعدًا، قال: مَنْ جاء ثانيًا فليقرأ. فشرع الثاني في القراءة، وبقي الأول لا يدري حاله، وأخذ يتفكَّر ما وقع

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٧٣، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٤.

(٢) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٧١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦٢، ٢٦٤.

(٤) السُّرَى: سَيرٌ عامة الليل. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل السين ٦/ ٢٣٧٦، وابن منظور: لسان العرب، مادة سرا ١٤/ ٣٧٧، والمعجم الوسيط ١/ ٤٢٨.

منه بعد مفارقة الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له، ففطن أنه أَجْنَبَ تلك الليلة، ولشدَّة حرصه على النوبَة نسي ذلك لَمَّا انتبه، فبادر إلى الشيخ، فأُطْلِع الشيخ على ذلك، فأشار للثاني بالقراءة، ثم إنَّ ذلك الرجل بادر إلى حمام جوار المدرسة فاغتسل به، ثم رجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد أعمى على حاله، فلما فرغ الثاني قال الشيخ: مَنْ جاء أولاً فليقرأ. فقرأ، وهذا من أحسن ما نعلمه وقع لشيوخ هذه الطائفة، بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا[١].

توفي رحمه الله -بعد حياة حافلة بالعلم الواسع الغزير والجهاد في نشره- بالقاهرة في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٩٠هـ= ١٩/ ٦/ ١١٩٤م) ودُفِنَ بالقرافة بين مصر والقاهرة بمقبرة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وقبره مشهور معروف[٢].

* * *

(١) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٢٢.

الفصل الخامس

معركة العقاب.. والهزيمة المريرة

لقي المنصور ربه في سنة (٥٩٥هـ= ١١٩٩م) عن عُمر لم يتعدَّى الأربعين سنة، تمَّ له فيه حُكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة؛ من سنة (٥٨٠هـ=١١٨٥م) وحتى وفاته في سنة (٥٩٥هـ=١١٩٩م)، ثم تولَّى من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو محمد عبد الله، وعمره آنذاك سبعة عشرة سنة وأشهر[١]، ورغم أن صِغَر السنِّ ليس به ما يشوبه في ولاية الحُكم خاصة وقد رأينا من ذلك الكثير، إلاَّ أنَّ الناصر لدين الله لم يكن على شاكلة أبيه في أمور القيادة.

وكان المنصور الموحدي قد استخلف ابنه الناصر لدين الله قبل وفاته على أمل أن يُمِدَّ الله في عمره؛ فيستطيع الناصر لدين الله أن يكتسب من الخبرات ما يُؤَهِّله لأن يُصبح بعد ذلك قائدًا فذًّا على شاكلة أبيه، لكن الموت المفاجئ للمنصور الموحدي عن عُمر لم يتجاوز الأربعين عامًا وضع الناصر لدين الله على رئاسة البلاد وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره[٢].

الناصر لدين الله وعقبات في الطريق:

كان الناصر لدين الله شابًّا طموحًا قويًّا مجاهدًا[٣]، لكنه لم يكن في كفاءة أبيه،

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٠.

(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٦.

وفضلاً عن هذا فقد كانت البلاد محاطة بالأعداء من كل جانب، والنصارى بعدُ لم ينسوا هزيمتهم في موقعة الأرك، التي كانت قبل سنوات قلائل، ويُريدون أن يُعيدوا الكرة من جديد على بلاد المسلمين.

لكن المشكلة التي ما فتئت تؤرق الموحدين، وتمثل شوكة في ظهر المسلمين، هم بنو غانية، والحقيقة أن بني غانية قاموا بأسوأ دور يمكن أن يقوموا به، ولقد كان المنصور قد عزم على أن يواصل الجهاد حتى يقضي على التهديد النصراني الإسباني نهائيًّا؛ لولا أن استغل هؤلاء انشغاله بالجهاد في الأندلس فنشطوا حركتهم في إفريقية مرة أخرى؛ حتى كان تمردهم هذا من أسباب قبوله بمهادنة النصارى، فلما مات المنصور زاد نشاطهم وتكثف، فبدأت الخلخلة والاضطرابات تتزايد داخل الدولة الإسلامية الكبيرة، وفي سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه وجَّه الناصر لدين الله جُلَّ طاقته للقضاء على ثورات بني غانية داخل دولة الموحدين، فخاض معهم معارك وحروب كثيرة، حتى استطاع في نهاية الأمر إخمادها تمامًا، وكان على محمد الناصر أن يبدأ عهده بالعمل على استئصال شوكتهم، فوجَّه الحملات، وتوجَّه هو بنفسه إلى إفريقية لحرب بني غانية فيها، وعاد سنة (٦٠٤هـ) بعدما تمكَّن من الاستيلاء على المدن التي استولوا عليها من قبل في إفريقية[(١)].

ألفونسو الثامن واستغلال الوضع الراهن:

في هذه الأثناء التي كان يسعى فيها الناصر لدين الله للقضاء على ثورات بني غانية، كان قد تجدَّد الأمل عند ألفونسو الثامن، فعمل على تجهيز العُدَّة لرَدِّ الاعتبار، وقبل انتهاء الهدنة ومخالفةً للمعاهدة التي كان قد عقدها مع المنصور الموحدي قبل موته، هجم ألفونسو الثامن على بلاد المسلمين، فنهب القرى وأحرق الزروع، وقتل

(١) عبد الواحد المراكشي المعجب، ص٣٩٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩.

العُزَّل من المسلمين، وكانت هذه بداية حرب جديدة ضد المسلمين[١].

دولة الموحدين وعيوب خطيرة في مواجهة النصارى:

إضافة إلى ضعف كفاءة القيادة في دولة الموحدين المتمثِّلة في الناصر لدين الله، والتي لم تكن بكفاءة السابقين، فقد كان ثمة عيب خطير آخر في القيادة، كان متأصلاً في أجداده من قبله، وهو اعتداد الناصر لدين الله برأيه ومخالفته أمر الشورى[٢]، ذلك العيب الذي تفاداه أبوه من قبله، فأفلح وساد وتمكَّن، ونصره الله ﷻ، وفوق هذا وذاك فكان المسلمون قد أُنْهِكُوا في رَدِّ الثورات المتتالية لبني غانية داخل دولة الموحدين.

وزاد من ذلك أمر آخر كان في غاية الخطورة، وهو أن الناصر لدين الله كان قد استعان ببطانة سوء، ووزير ذميم الخُلُق وسيئ التدبير والسياسة يُدْعَى أبا سعيد بن جامع، والذي شكَّ كثير من المؤرخين في نياته، وشكَّ كثير من الأندلسيين والمغاربة المعاصرين له في اقتراحاته[٣].

النصارى والتعبئة العامة:

على الجانب الآخر من أحداث دولة الموحدين كانت هناك تعبئة روحية عالية في جيش النصارى، يقودها البابا في روما بنفسه، وقد أعلنوها حربًا صليبية، وراحوا يُضْفُون عليها ألوانًا من القداسة[٤].

وقد زاد الأمر تعقيدًا إرسالُ البابا رسالة إلى مملكة نافار - وكانت قد وَقَّعت

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٨، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر: السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢١.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٩، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٣، ٢٦٤، والحميري: الروض المعطار، ص٤١٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٠٩، وما بعدها.

معاهدة مع المنصور الموحدي قبل وفاته - يحضُّها فيها على نبذ المعاهدة التي مع الموحدين، وعلى استعادة العلاقة مع القشتاليين، وكان القشتاليون - كما ذكرنا - قد اختلفوا مع مملكة ليون ونافار بعد هزيمة الأرك، لكن البابا الآن يُريد منهم التوحد في مواجهة الصفِّ المسلم، فخاطب ملك نافار بنقض عهده مع المسلمين ومحالفة ملك قشتالة، فما كان منه إلاَّ أن أبدى السمع والطاعة[١].

تكون دول أوربا بذلك قد توحَّدت، وبلغ عدد جيوشها مائتي ألف نصراني، يَتَقَدَّمُهم الملوك والرهبان نحو موقعة فاصلة بينهم وبين المسلمين.

جيش الموحدين وطريقه نحو العقاب:

في مقابل جيوش النصارى تلك كان الناصر لدين الله قد أعلن الجهاد، وجمع المجاهدين من بلاد المغرب العربي والأندلس وقد بلغ الجيش عددًا عظيمًا أوصلته بعض الروايات إلى نصف مليون، وإن كنا نرى في هذا العدد مبالغة كبيرة بالقياس للظروف التاريخية لهذه الفترة[٢].

انطلق الناصر لدين الله بجيشه من بلاد المغرب وعبر مضيق جبل طارق، ثم توجَّه إلى ذهب إلى إشبيلية، ثم إلى سلبطرة، ثم عاد إلى إشبيلية، ثم ذهب إلى العقاب، وفي طريقه إلى العقاب بقي فترة في ظاهر جيان، وعُرفت منطقة العقاب بهذا الاسم لوجود قصر قديم كان يحمل هذا الاسم في تلك المنطقة- وهي تلك المنطقة التي دارت فيها الموقعة، وقد كانت -وسبحان الله- اسمًا على مسمى، فكانت بحقٍّ عقابًا للمسلمين على مخالفات كثيرة، ظهر بعضها سابقًا وسيظهر الباقي تباعًا[٣].

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٤.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٦ والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ٢/ ١٠٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٠ - ٢٦٥، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٩.

دخل الناصر لدين الله أرض الأندلس بهذا العدد الكثيف من المسلمين، وفي أول عمل حربي له حاصر قلعة سَلْبَطْرَة، وكانت قلعة كبيرة وحصينة جدًّا، وبها عدد قليل من النصارى، وكانت تقع في الجبل جنوب طُلَيْطِلَة، لكنَّ حصانة القلعة أعجزت المسلمين عن فتحها، حتى كاد الناصر أن يتجاوزها؛ إلا أن الوزير ابن جامع أصر على ضرورة فتح القلعة فبقيت الجيوش تحاصر القلعة(١).

نتائج الاستبداد وملامح الهزيمة:

كان من جرَّاء هذا العمل الذي قام به الناصر لدين الله أن حدث ما يلي:

أولاً: إضاعة الوقت في حصار قلعة سلبطرة، وقد كان من الممكن أن يُهاجَم النصارى بهذا الجيش الكثيف قبل أن يتجمَّعُوا في كامل عُدَّتهم.

ثانيًا: أكمل النصارى استعداداتهم خلال هذه الفترة الطويلة، واستطاعوا أن يستجلبوا أعدادًا أخرى كثيرة من أوربا.

ثالثًا: أصاب الضرر الآلاف من المسلمين من صقيع جبال الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث كان الناصر لدين الله قد دخل بلاد الأندلس في شهر مايو، وكان مناسبًا جدًّا للقتال، إلاَّ أنه ظلَّ يُحاصر سَلْبَطْرَة حتى قَدِم الشتاء القارس، وبدأ المسلمون يهلكون من شدَّة البرد، وشدَّة الإنهاك في هذا الحصار الطويل(٢).

أبو الحجاج يوسف بن قادس والتحيز إلى فئة المؤمنين:

في بدايةٍ لحربٍ فاصلة قُسِّم الجيش النصراني القادم من الشمال إلى ثلاثة جيوش كبيرة، فالجيش الأول: هو الجيش الأوربي، والجيش الثاني: هو جيش إمارة

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢١، وثمة رواية أخرى ولها دلائل كثيرة تقول بأن فتح هذه القلعة كان في غزوة مستقلة، انظر: الحميري: الروض المعطار ص٣٤٤، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٠، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٩.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٠٨.

أراجون، والجيش الثالث: هو جيش قشتالة والبرتغال وليون ونافار، وهو أضخم الجيوش جميعها(١).

قامت هذه الجيوش الثلاث بحصار قلعة رباح، وهي قلعة إسلامية كان قد تملكها المسلمون بعد موقعة الأرك، وكان على رأسها القائد البارع الأندلسي الشهير أبو الحجاج يوسف بن قادس ﷺ وهو من قادة الأندلس المشهورين، حوصرت قلعة رباح حصارًا طويلاً من قِبَل الجيوش النصرانية، وقد طال أمد الحصار حتى أدرك أبو الحجاج يوسف بن قادس أنه لن يفلت منه، كما بدأت بعض الحوائط في هذه القلعة تتهاوى أمام جيش مملكة أراجون.

أراد أبو الحجاج يوسف بن قادس أن يُحَقِّقَ الأمن والأمان لَمنْ في الحصن من المسلمين، وأراد أن يتحيَّز إلى فئة المؤمنين وينضمَّ إلى جيش المسلمين، فعرض على النصارى معاهدة تقضي بأن يترك لهم القلعة بكامل المؤن وكامل السلاح، على أن يخرج هو ومَنْ معه من المسلمين سالمين؛ ليتجهوا جنوبًا فيلتقوا بجيش الموحدين هناك ودون مؤن أو سلاح، فوافق ألفونسو الثامن على هذا العرض، وبدأ بالفعل انسحاب أبي الحجاج يوسف بن قادس من الحصن ومَنْ معه من المسلمين، وقد اتجهوا إلى جيش الناصر لدين الله.

ولأن الوليمة ليست قصرًا على ألفونسو الثامن، فقد اعترض على هذا الانسحاب جيش النصارى الأوربي المتحد مع جيش قشتالة.. فقد كانوا يَرَوْنَ أنهم ما أتوا من أبعد بلاد أوربا ومن إنجلترا وفرنسا والقسطنطينية إلاَّ لقتل المسلمين؛ فلا يجب أبدًا أن يُتركوا ليخرجوا سالمين.

وقد فعل ألفونسو الثامن ذلك حتى إذا حاصر مدينة أخرى من مدن المسلمين

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٢.

يفتحون له كما فعل سابقوهم؛ لأنه لو قاتلهم بعد العهد الذي أبرمه معهم فلن يفتح له المسلمون بعد ذلك مدنهم، فاختلف الأوربيون مع ألفونسو الثامن، وعليه فقد انسحبوا من الموقعة[1].

وبذلك يكون قد انسحب من موقعة العقاب وقبل خوضها مباشرة خمسون ألفًا من النصارى، وبالطبع فقد كان هذا نصرًا معنويًا وماديًا كبيرًا للمسلمين، وهزيمة نفسية وهزَّة كبيرة في جيش النصارى، وقد أصبح جيش المسلمين بعد هذا الانسحاب أضعاف جيش النصارى[2].

بطانة السوء وقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس:

عندما عاد أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الناصر لدين الله، وعندما علم منه أنه قد ترك قلعة رباح وسَلَّمَها بالمؤن والسلاح إلى النصارى، أشار عليه وزير السوء أبو سعيد بن جامع بقتله؛ بتهمة التقاعس عن حماية القلعة، ولم يتردَّد الناصر لدين الله، في تنفيذ هذا القتل بحق القائد المجاهد أبي الحجاج يوسف بن قادس[3].

وإن هذا - وبلا شكٍّ - ليُعَدُّ خطأً كبيرًا من الناصر لدين الله، وعملاً غير مُبَرَّر، ويُضاف إلى جملة أخطائه السابقة؛ وذلك للآتي:

أولاً: أن أبا الحجاج يوسف بن قادس لم يُخطئ بانسحابه هذا؛ بل كان متحرِّفًا لقتال، ومتحيِّزًا إلى الجيش المتأهِّب للحرب، كما أنه لو مكث لهلك، ولو لم يهلك لكانت قد حُيِّدَت قواته عن الاشتراك في الموقعة؛ بسبب الحصار المفروض عليها.

ثانيًا: وعلى فرض أن أبا الحجاج يوسف بن قادس قد أخطأ، فلم يكن - على

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠١، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٢، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٤.

(٢) شوقي أبو خليل: العقاب، ص٣٤، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٤.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٨، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩.

الإطلاق - عقاب هذا الخطأ القتل؛ خاصة وأنه لم يتعمَّده، بل كان اجتهادًا منه.

وإن مثل ذلك قد حدث في حروب الردَّة حينما أخطأ عكرمة بن أبي جهل ﷺ في إحدى المعارك، وكان خليفة المسلمين حينئذٍ أبا بكر الصديق ﷺ، فما كان من أبي بكر في معالجة خطأ عكرمة إلاَّ أن عَنَّفَه باللسان وأوضح له خطأه، ثُمَّ أعاده مع جيشه من جديد إلى القتال؛ لمساعدة جيش آخر من جيوش المسلمين، بل أرسل إلى قائد هذا الجيش الآخر -يرفع من رُوح عكرمة وجيشه - بأن يستعين برأي عكرمة بن أبي جهل فإنَّ له رأيًا[1].

ومن هنا وبهذه الطريقة وبجانب فَقْدِ قوَّة كبيرة جدًّا (بفقد هذا القائد البارع)، فقد فقَدَ الجيش الإسلامي -أيضًا- قوَّة الأندلسيين، الذين شعروا أن هناك فارقًا بينهم وبين المغاربة؛ مما كان له أثر سلبي كبير على واقع المعركة، على نحو ما سيأتي بيانه.

وفي ذلك يقول المقري في نفح الطيب: وهذه الوقعة - العقاب - هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعًا، وما ذاك إلاَّ لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفَّ بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيَّات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، ولم تقم بعدها -أي: بعد موقعة العقاب- للمسلمين قائمة تحمد[2].

خطة الناصر لدين الله ومتابعة الأخطاء:

تكملة للأخطاء السابقة فقد وضع الناصر لدين الله خطة شاذَّة في ترتيب جيشه وتقسيمه، حيث لم يَسِر فيه على نهج السابقين، ولم يقرأ التاريخ كما قرأه المنصور

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٧٥.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٨٣.

الموحدي ويوسف بن تاشفين.. فقد قَسَّم جيشه إلى فرقة أمامية وفرقه خلفية، لكنه جعل الفرقة الأمامية من المتطوِّعين، وعددهم ستون ألفًا ومائة ألف متطوِّع، وضعهم في مقدمة الجيش ومِنْ خلفهم الجيش النظامي الموحدي(١).

وإنْ كان هؤلاء المتطوعة الذين في المقدمة متحمسين للقتال بصورة كبيرة، فليست لهم الخبرة والدراية بالقتال، كما هو الحال بالنسبة لتلك الفرقة المنتخبة من أجود مقاتلي النصارى، والتي هي في مقدمة جيشهم.

فكان من المفترض أن يضع الناصر لدين الله في مقدمة الجيش القادرين على صدِّ الهجمة الأولى للنصارى؛ وذلك حتى يتملَّك الخطوات الأولى في الموقعة، ويرفع بذلك من معنويات المسلمين ويحطَّ من معنويات النصارى، لكن العكس هو الذي حدث؛ حيث وضع المتطوعة في المقدمة.

ولقد زاد من ذلك -أيضًا- فجعل الأندلسيين في ميمنة الجيش، وما زال الألم والحرقة تكمن في قلوبهم من جرَّاء قتل قائدهم الأندلسي المجاهد المغوار أبي الحجاج يوسف بن قادس، فكان خطأ كبيرًا -أيضًا- أن جعلهم يتلقَّوْنَ الصدمة الأولى من النصارى(٢).

فنستطيع الآن حصر أخطاء الناصر لدين الله وهو في طريقه نحو العقاب على النحو التالي:

أولاً: إطالة الحصار لقلعة سَلْبَطْرَة حتى تمكَّن النصارى من الاستعداد والتجهز.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٢٣٩، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٨.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٨.

ثانيًا: الاستعانة ببطانة السوء، الممثِّلة في وزير السوء أبي سعيد بن جامع.

ثالثًا: قتل القائد الأندلسي المشهور أبي الحجاج يوسف بن قادس.

رابعًا: تنظيم الجيش وتقسيمه الخاطئ في أرض الموقعة.

خامسًا: أمر في غاية الخطورة وهو الاعتقاد في قوَّة العدد والعدَّة، فقد دخل الناصر لدين الله الموقعة وهو يعتقد أنه لا محالة منتصر[1]؛ فجيشه أضعاف الجيش المقابل، ومن هنا تتبدَّى في الأفق سحائب حنين جديدة، يخبر عنها ﷻ بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

العقاب.. والعقاب المرُّ:

تمامًا وكما تكرَّرت حُنين في أرض الأندلس قبل ذلك في بلاط الشهداء، وفي موقعة الخندق مع عبد الرحمن الناصر وهو في أعظم قوَّته، تتكرَّر حُنين -أيضًا- مع الناصر لدين الله في موقعة العقاب وهو في أعظم قوَّة للموحدين، وفي أكبر جيش للموحدين على الإطلاق، بل وفي أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس منذ أن فُتحت في سنة (٩٢هـ=٧١١م)، ولتوالي الأخطاء السابقة كان طبيعيًّا جدًّا أن تحدث الهزيمة، فقد هجم المتطوعون من المسلمين على مقدمة النصارى، لكنهم ارتطموا ارتطامًا شديدًا بقلب القشتاليين المدرَّب على القتال، فصدُّوهم بكل قوَّة ومزَّقوا مقدِّمة المسلمين، وقتلوا منهم الآلاف في الضربة الأولى لهم.

واستطاعت مُقَدِّمة النصارى أن تخترق فرقة المتطوِّعة بكاملها، والبالغ عددهم -كما ذكرنا- ستين ألفًا ومائة ألف مقاتل، وقد وصلوا إلى قلب الجيش الموحدي النظامي، الذي استطاع أن يصدَّ تلك الهجمة، لكن كانت قد هبطت وبشدَّة

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٨٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

معنويات الجيش الإسلامي؛ نتيجة قتل الآلاف منهم، وارتفعت كثيرًا معنويات الجيش النصارى للنتيجة نفسها.

وحين رأى ألفونسو الثامن ذلك أطلق قوات المدد المدرَّبة لإنقاذ مقدمة النصارى، وبالفعل كان لها أثر كبير، وعادت من جديد الكرَّة للنصارى.

وفي هذه الأثناء حدث حادث خطير في جيش المسلمين، فحين رأى الأندلسيون ما حدث في متطوعة المسلمين، واستشهاد الآلاف منهم، إضافة إلى كونهم يُقاتلون مرغمين مع الموحدين -كما ذكرنا قبل ذلك- وأيضًا كونهم يعتقدون بالعدد وليس في الثقة بالله ﷻ، كل هذه الأمور اعتملت في قلوبهم، ففرُّوا من أرض القتال.

وحين فَرَّت ميمنة المسلمين من أرض الموقعة التفَّ النصارى حول جيش المسلمين، وبدأت الهلكة فيهم، فقُتل الآلاف من المسلمين بسيوف النصارى في ذلك اليوم، والذي سُمِّي بيوم العقاب أو معركة العقاب[1].

هُزم المسلمون هزيمة قاسية، وفرَّ الناصر لدين الله من أرض الموقعة، ومعه فلول الجيش المنهزم المنكسر، والمصاب في كل أجزاء جسده الكبير.

وقد قال الناصر لدين الله وهو يفرُّ: صدق الرحمن وكذب الشيطان[2]. حيث دخل الموقعة وهو يعلم أنه منصور بعدده، فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه، وصدق الرحمن: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، فولَّى الناصر لدين الله مدبرًا.

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل: العقاب، ص٤٥، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٤.



خريطة رقم (١٦) موقعة العقاب

ومما زاد من مرارة الهزيمة أنه ارتكب خطأً آخر لا يقلُّ بحالٍ من الأحوال عن هزيمته المنكرة السابقة وفراره من أرض المعركة، وهو أنه لم يمكث بعد موقعة العقاب في المدينَة التي تلي مباشرة مدينة العقاب، وهي مدينة بَيَّاسَة، بل فرَّ وترك بَيَّاسَة، ثم ترك أُبَّذة، ترك كلتيهما بلا حامية وانطلق إلى مدينة إِشْبِيلِيَة[1]، وما زالت قوَّة النصارى في عظمها، وما زالت في بأسها الشديد.

الفواجع بعد العقاب:

مأساة بياسة:

انطلقت قوَّة النصارى بعد عقاب المسلمين وهزيمتهم تلك في موقعة العقاب فاقتحمت بَيَّاسَة، وكان أهلها قد هجروها خوفًا على أنفسهم، ولم يبقَ فيها إلاَّ الضعفاء والمرضى، وكانوا قد اجتمعوا بالمسجد الجامع الكبير في المدينة للاحتماء به، فقام النصارى بقتلهم جميعًا بالسيف.. قال المراكشي في المعجب: «فأما بَيَّاسَة فوجدها - أي ألفونسو - أو أكثرها خالية فحرق أدؤرها وخرب مسجدها الأعظم»[2].

مأساة أُبَّذة:

قال صاحب الروض المعطار: أُبَّذة مدينة بالأندلس بينها وبين بَيَّاسَة سبعة أميال، وهي مدينة صغيرة وعلى مقربة من النهر الكبير، ولها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جدًّا، وفي سنة تسع وستمائة مالت عليها جموع النصرانية بعد كائنة العقاب، وكان أهلها قد أنفوا من إخلائها، كما فعل جيرانها أهل بَيَّاسَة، ولم ترفع تلك الجموع يدًا عن قتالها حتى ملكتها بالسيف، وقُتل فيها كثير، وأسروا كثيرًا[3].

---

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٤٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٤.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٢.
(٣) الحميري: الروض المعطار، ص٦.

وقال المراكشي في المعجب: ونزل -أي ألفونسو- على أُبَّذة، وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كبير من المنهزمة وأهل بَيَّاسَة وأهل البلد نفسه، فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا، ثم دخلها عَنْوة، فقتل وسبى وغنم، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة، فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة![1]

وقد تدهور حال المسلمين كثيرًا في كل بلاد المغرب والأندلس على السواء، حتى قطع المؤرخون بأنه بعد موقعة العقاب ما كنتَ تجد شابًّا صالحًا للقتال لا في بلاد المغرب ولا في بلاد الأندلس، فكانت موقعة واحدة قد بَدَّدت وأضاعت دولة في حجم وعِظَم دولة الموحدين[2].

ثم إنَّ الناصر لدين الله قد انسحب أكثر مما كان عليه، فانسحب من إِشْبِيلِيَة إلى بلاد المغرب العربي، ثم اعتكف في قصره، واستخلف ابنه وليًّا للعهد من بعده، وهو بعدُ لم يتجاوز خمس عشرة من السنين.

ثم تُوُفِّيَ الناصر لدين الله بعد هذا الاستخلاف بعام واحد في سنة (٦١٠هـ=١٢١٤م) عن عمرٍ لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وتروي بعض المصادر أنه مات وهو عازم على الجهاد في الأندلس «عزمًا لم يُعرف عن ملك قبله»[3]. وتولَّى حكم البلاد من بعده وليُّ عهده وابنه المستنصر بالله، وعمره آنذاك ست عشرة سنة فقط[4].

ومن جديد وكما حدث في عهد ملوك الطوائف تضيع الأمانة، ويُوَسَّد الأمر

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٢.
(٢) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٦.
(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص١٦١ وابن الخطيب: رقم الحلل، ص٦٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٥.
(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ٣٤٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٥٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٦.

لغير أهله، وتتوالى الهزائم على المسلمين بعد سنوات طويلة من العلو والسيادة والتمكين لدولة الموحدين.

أشهر العلماء في عهد الناصر:

ابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ=١١٤٥-١٢١٧م):

هو العلامة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أديب رحَّالة، وُلِدَ سنة (٥٤٠هـ) ببَلَنْسِيَة، تعلم القراءات، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدَّم في صناعة الشعر والكتابة[1]، من أشهر مؤلفاته (رحلة ابن جبير)، و(نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان)، وهو ديوان شعره، و(نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح) وهو مجموع ما رثى به زوجته (أم المجد)[2].

ومن شعره: [المنسرح]

تَـأَنَّ فِي الأَمْـرِ لا تَكُـنْ عَجِـلاً ... فَمَـنْ تَـأَنَّى أَصَـابَ أَوْ كَـادَا

وَكُـنْ بِحَبْـلِ الإِلَـهِ مُعْتَصِـمًا ... تَـأْمَنُ مَـنْ بَغْـيِ كَيْـدِ مَـنْ كَـادَا

فَكَـمْ رَجَـاهُ فَنَـالَ بُغْيَتَـهُ ... عَبْـدٌ مُسِيءٌ لِنَفْسِـهِ كَـادَا

وَمَـنْ تَطُـلْ صُـحْبَةُ الزَّمَـانِ لَـهُ ... يَلْـقَ خُطُوبًـا بِـهِ وَأَنْكَـادَا[3]

ومن شعره -أيضًا- قوله وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنًا نضيرًا من أحد بساتينها فذوى[4] في يده: [مجزوء الرجز]

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٢٣٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ٤٦، ٤٧.

(٤) ذوى: ذبل ويبس. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذوي ١٤/ ٢٩٠، والمعجم الوسيط ١/ ٣١٨.

لا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى
أَمَا تَرَى الْغُصْنَ إِذَا مَا فَارَقَ الأَصْلَ ذَوَى[1]

ومن إبداعه في النثر ما أورده صاحب نفح الطيب أن ابن جبير قال في رحلته في حقِّ دمشق: جنَّة المشرق، ومطلع حسنه المُونِق المشرق، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحَلَّت بأزاهير الرياحين، وتجلَّت في حلل سندسية من البساتين، وحلَّت من موضع الحُسن بمكان مكين، وتزيَّنت في منصَّتها أجمل تزيين، وتشرَّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمّه منها إلى رَبْوَةٍ ذات قَرَار ومَعِين، وظلٍّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مَذانبه انسيابَ الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوسَ نَسِيمُها العليل، تتبرَّج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلمُّوا إلى مُعَرَّس للحُسن ومَقيل، قد سئمتْ أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظَّما، فتكاد تناديك بها الصُّمُّ الصلاب، ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، قد أحدقَتْ بها البساتينُ إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهَر، وامتدَّتْ بشرقيها غُوطَتُها الخضراء امتداد البصر، فكلُّ موقع لحظة بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قَيْدُ النظر، ولله صِدْقُ القائلين فيها: إن كانت الجنَّة في الأرض فدمشق لا شكَّ فيها، وإن كانت في السماء؛ فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها![2].

ومن ثناء العلماء عليه قول لسان الدين بن الخطيب في حقِّه: إنَّه من علماء الأندلس بالفقه والحديث، والمشاركة في الآداب. وقول المقري في نفح الطيب: وكان أبو الحسين بن جبير المترجم قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها[3].

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٢.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٣٨٦، ٣٨٧.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ٤٨٧.

تُوُفِّيَ ابن جبير بالإسكندرية في التاسع والعشرين من شعبان سنة (٦١٤هـ)[١].

ابن القرطبي (٥٥٦-٦١١هـ=١١٦١-١٢١٤م):

هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مَالَقِيّ، قُرطبي الأصل، يكنى أبا محمد، ويُعرف بالقرطبي، ولد بمَالَقَة لثمانٍ بقين من ذي القعدة سنة (٥٦٥هـ)، الموافق لشهر نوفمبر ١١٦١م[٢].

كان -كما يوصف- كاملَ المعارف، صدرًا في المقرئين والمجوِّدين، رئيس المحدِّثين وإمامهم، واسع المعرفة، مُكْثِرًا، ثقةً، عدلاً، أمينًا، مَكِينَ الرواية، رائق الخطِّ، نبيل التقييد والضبط، ناقدًا، ذاكرًا أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم، وما حُلُّوا به من جرح وتعديل، لا يدانيه أحد في ذلك، عزيز النظر، متيقِّظًا، متوقِّد الذهن، كريم الخلال، حميد العشرة، دَمِثًا، متواضعًا، حسن الخلق، مُحَبَّبًا إلى الناس، نزيه النفس، جميل الهيئة، وقورًا، مُعَظَّمًا عند الخاصَّة والعامَّة، دَيِّنًا، زاهدًا، ورعًا، فاضلاً، نحويًّا ماهرًا، ريَّان من الأدب[٣].

قال تلميذه الأثير جعفر بن زعرور: بِتُّ معه ليلة في دُوَيْرَتِه التي كانت له بجبل فَارَه[٤] للإقراء والمطالعة، فقام ساعة كنتُ فيها يقظانًا، وهو ضاحك مسرور، يَشِدُّ يده كأنَّه ظفر بشيء نفيس، فسألتُه، فقال: رأيت كأن الناس قد حُشروا في العَرْضِ على الله، وأُتِيَ بالمحدِّثين، وكنتُ أرى أبا عبد الله النميري يُؤْتى به، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيُعطى براءته من النار، ثم يُؤْتَى بي، فأُوقِفت بين يدي ربِّي، فأعطاني براءَتي من النار، فاستيقظتُ، وأنا أشدُّ عليها يدي اغتباطًا بها وفرحًا، والحمد لله[٥].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٤٠٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٤٠٥.

(٤) جبل فاره: جبل يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرقي. انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/ ٥٠٦، حاشية رقم (٤).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧.

وقد ألف في العروض مجموعات نبيلة، وفي قراءة نافع، ولخَّص أسانيد الموطأ، وله كتاب (المُبْدِي لخطأ الرُّندي)، وألف في القراءات أيضًا.

وقد تُوُفِّيَ رحمه الله في السابع من ربيع الآخر سنة (٦١١هـ) [١].

* * *

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/ ٤٠٨.

الفصل السادس

تساقط ممالك الأندلس

متابعة المأساة بعد موقعة العقاب:

في موقف مدَّ في عُمر الإسلام في بلاد الأندلس بضع سنوات ظهرت بعض الأمراض في الجيوش القشتالية، وهذا الذي اضطرهم إلى العودة إلى داخل حدودهم[١].

وفي سنة (٦١٣هـ=١٢١٧م) وبعد موقعة العقاب بأربع سنوات، ونظرًا لتردِّي الأوضاع في بلاد المغرب، وتولِّي المستنصر بالله أمور الحُكم، وهو بعدُ طفل لم يبلغ الرشد، ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة في بلاد المغرب واستقلَّت عن حكم دولة الموحدين هناك، وأنشأت دولة سُنِّيَّة هي دولة بني مرين، والتي سيكون لها شأن كبير فيما بعدُ في بلاد الأندلس[٢].

وفي سنة (٦٢٦هـ) سقطت جزيرة ميورقة، أكبر وأفضل جزر البليار، وبعد قليل تبعها سقوط يابسة، وهي صغرى جزر البليار، وبقيت الجزيرة الوسطى (جزيرة منورقة) دهرًا تحت حكم المسلمين لكن تحت طاعة النصارى وفي حكمهم[٣].

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٢٤.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٥١.

(٣) حتى سقطت سنة (٦٨٦هـ).

وفي العام التالي (٦٢٧هـ) استقلَّ بنو حفص بتونس، وانفصلوا بها عن دولة الموحدين[١].

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله؛ حيث لم يكن قد استخلف بعدُ، فتولَّى عمُّ أبيه عبد الواحد من بعده، إلاَّ أنه خُلع وقُتل، ثم تولَّى من بعده عبد الله العادل، وعلى هذا الحال ظلَّ الصراع، وأصبح الرجل يتولَّى الحُكم مدَّة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يُخلع أو يُقتل، ويأتي غيره وغيره، حتى سارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

وفي سنة (٦٢٥هـ=١٢٢٨م) استقلَّ رجل يُسَمَّى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وكان كما يصفه المؤرخون: مفرطًا في الجهل، ضعيف الرأي، لم يُنصر له على النصارى جيش[٢].

وفي سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) حدث حادث خطير ومروع، إنه حادث سقوط قُرْطُبَة حاضرة الإسلام[٣].

المأساة الكبرى وسقوط قُرْطُبَة:

في موقف لا نملك حياله إلاَّ التأسُّف والندم، في سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) وبعد حصار طال عدَّة شهور، وبعد استغاثة بابن هود الذي كان قد استقلَّ بدولته جنوب وشرق الأندلس، والذي لم يُعِرِ اهتمامًا لهذه الاستغاثات؛ بسبب كونه منشغلاً بحرب ابن الأحمر، ذلك الأخير الذي كان قد استقلَّ -أيضًا- بجزء آخر من بلاد الأندلس، في كل هذه الظروف سقطت قُرْطُبَة، سقطت حاضرة الإسلام في بلاد الأندلس.

---

(١) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٤٠.

(٢) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٧٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٦٨، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٢١٥، ٤/ ٤٦٤.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٦٩، والحميري: الروض المعطار، ص٤٥٩، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٨.

وكان أمرًا غاية في القسوة حين لم يجد أهل قُرْطُبَة بُدًّا من الإذعان والتسليم والخروج من قُرْطُبَة، وكان الرهبان مصرِّين على قتلهم جميعهم، لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة رفض ذلك؛ خشية أن يُدَمِّرَ أهلُ المدينة كنوزها وآثارها الفاخرة، وبالفعل خرج أهلها متَّجِهين جنوبًا تاركين كل شيء، وتاركين حضارة ومنارة ومجدًا عظيمًا كانوا قد خَلَّفوه[1].

سقطت قُرْطُبَة التي أفاضت على العالم أجمع خيرًا وبركة، وعلمًا ونورًا، سقطت قُرْطُبَة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد، وصاحبة ثلاثة عشر ألف دار، سقطت قُرْطُبَة عاصمة الخلافة لأكثر من خمسمائة عام، سقطت قُرْطُبَة صاحبة أكبر مسجد في العالم، سقطت جوهرة العالم قرطبة[2].

سقطت قُرْطُبَة في الثالث والعشرين من شهر شوال لسنة ثلاثة وثلاثين وستمائة من الهجرة.. سقطت وفي يوم سقوطها تحوَّل مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله!

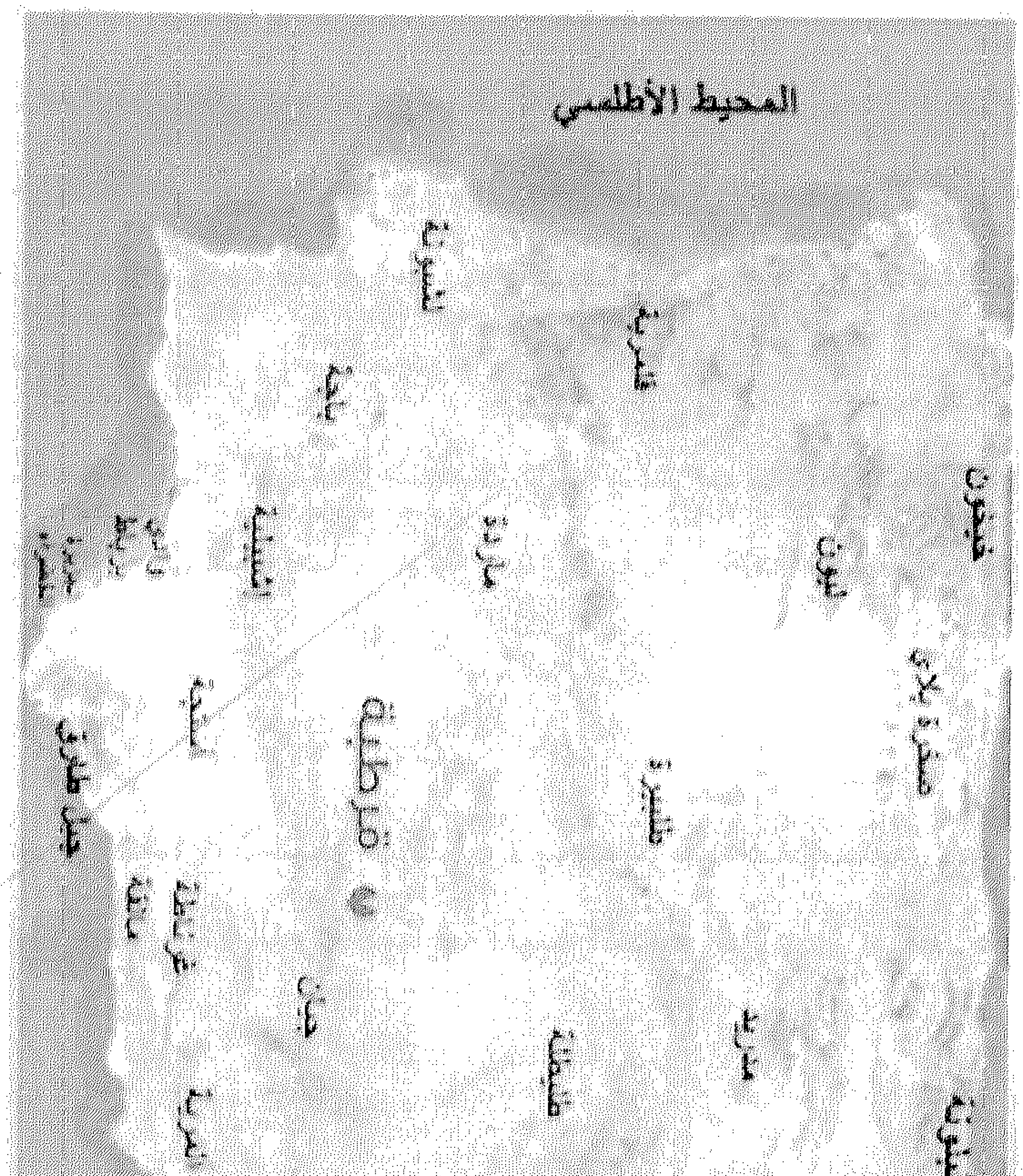
تتابع المآسي:

بعد سقوط قُرْطُبَة وفي سنة (٦٣٥هـ=١٢٣٧م) استقلَّ بنو الأحمر بغَرْنَاطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها، وسيكون لهم شأن كبير في بلاد الأندلس على نحو ما سنُبَيِّنه، وفي سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٧م) وبعد استقلال ابن الأحمر بغَرْنَاطَة بسنة واحدة، وبعد حصار دام خمس سنوات متصلة سقطت بَلَنْسِيَة على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصارًا شديدًا كاد الناس أن يهلكوا جوعًا، وكان خلاله عدَّة مواقع؛ أشهرها موقعة أنيشة سنة (٦٣٤هـ=١٢٣٧م) التي هلك فيها الكثير من المسلمين من بينهم الكثير من العلماء.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦/ ٤٢٤.

(٢) راجع فصل «قُرْطُبَة.. جوهرة العالم» من الباب الخامس.

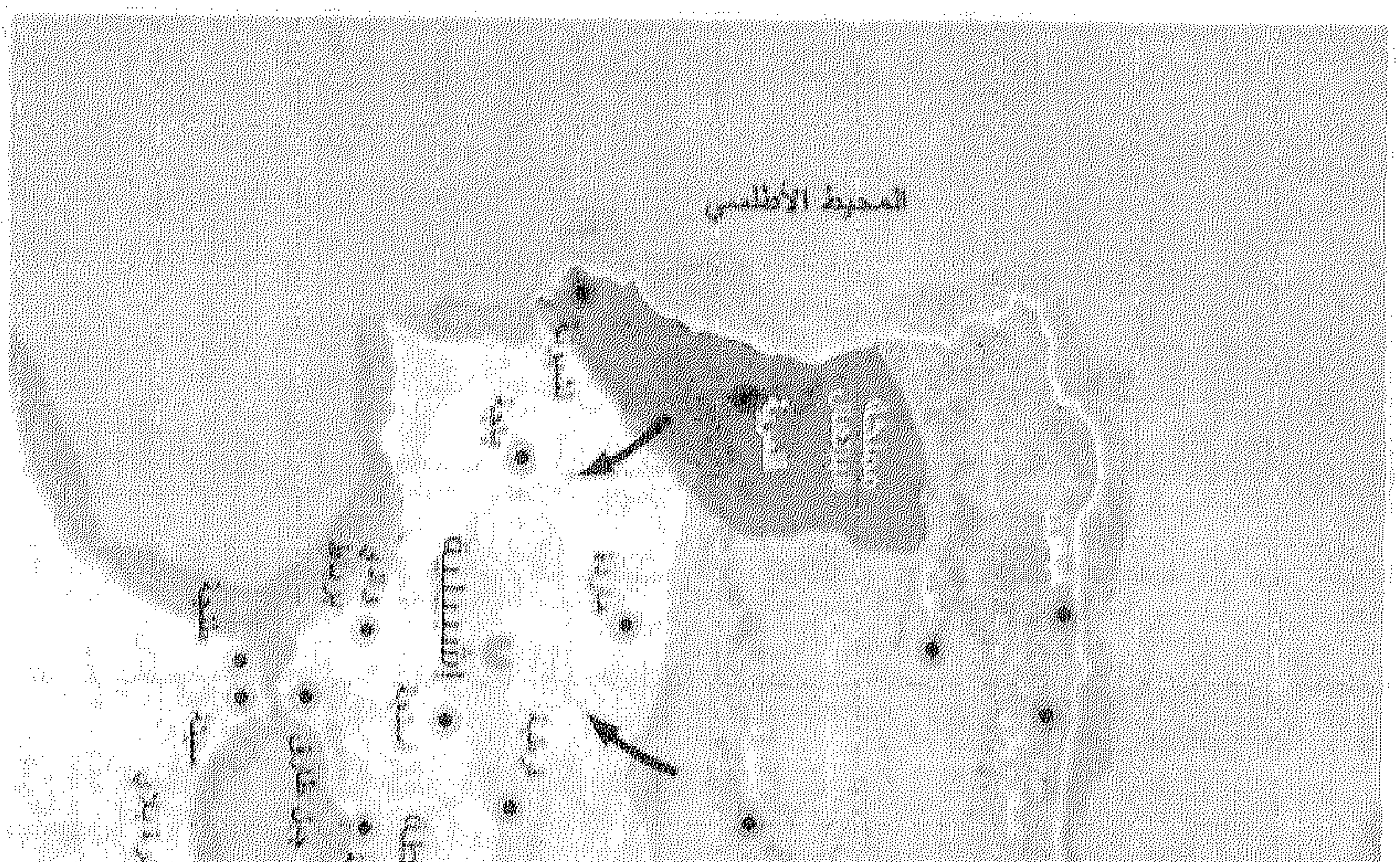

المحيط الأطلسي
قرطبة
جبل طارق
البحر المتوسط
جزر البليار
طليطلة
سرقسطة
بلنسية
مرسية
غرناطة
مالقة
إشبيلية
طرطوشة
برشلونة

وكان بنو حفص في تونس قد حاولوا مساعدة بَلَنْسِيَة بالمؤن والسلاح، لكن الحصار كان شديدًا، حتى اضطروا لترك البلد تمامًا في سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٩م) وهُجِّر خمسون ألفًا من المسلمين إلى تونس، وتحوَّلت للتَّوِّ كلُّ مساجد المسلمين إلى كنائس، وكانت هذه سياسة مُتَّبَعة ومشهورة للنصارى في كل البلاد الإسلامية التي يُسيطرون عليها، إمَّا القتل وإمَّا التهجير[١].

وفي سنة (٦٤١هـ=١٢٤٣م) سقطت دانية بالقرب من بَلَنْسِيَة[٢]، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) سقطت جَيَّان[٣]، وهكذا لم يبقَ في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ ولاية غَرْنَاطَة في الجنوب الشرقي من البلاد، وولاية إِشْبِيلِيَة في الجنوب الغربي، تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس[٤].

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد استقلَّت عن دولة الموحدين، فسقطت بذلك الدولة العظيمة المهيبة المتسعة البلاد المترامية الأطراف.

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧٦، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٠.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦١.
(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦/ ٤٦٨.
(٤) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٢٠٦.



خريطة رقم (١٨) غرناطة وقشتالة

الفصل السابع

ضعف وسقوط دولة الموحدين

دولة الموحدين وعوامل السقوط.. وقفة تحليلية:

قد يُفاجأ البعض ويتعجَّب لهول هذا السقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصورة السريعة المفاجئة، فيسعى للبحث عن علله وأسبابه، وحقيقةُ الأمر أن هذا السقوط لم يكن مفاجئًا؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

أولاً: تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف ممن لا يستحقُّون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبدًا أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية: «إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[1].

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخَّر عقوبة الظلم؛ لكنها -بلا شكٍّ- تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، وقد أسرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء مَنْ يشكُّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم - كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجَّل الله لهم العقابَ فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعهم أنهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شاركه فيها أحد الخبثاء ممَّنْ هو على شاكلته -وهذا أمر في غاية الخطورة- لقد حذَّر النبي ﷺ كثيرًا

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٢٨/ ١٤٦.

من العداء بين المسلم وأخيه المسلم، ومن التدابر والتحاسد والتناجش والتباغض، روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[1].

ثانيًا: العقائد الفاسدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل السُّنَّة، وبالرغم من أن المأمون قاومها وأبطلها، إلاَّ أنَّ أشياخ الموحدين ظلُّوا يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًّا.

وثمة أمر آخر لا يقل خطورة عن هذا الأمر، ألا وهو تكفير المرابطين، وقد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسبي نسائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنيانها من القواعد.

إن تكفير المسلم قضية في منتهى الخطورة، لا ينبغي لعاقلٍ بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»[2]. وعند مسلم: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ»[3].

وقال أبو حامد الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل المسلم إليه الاحتراز من

---

(١) مسلم: كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (١١٨٣٠).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٥٧٥٢).

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (٦٠).

التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة، المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (قارورة) من دم مسلم»[1].

وقال ابن تيمية: «مَنْ ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشكِّ، بل لا يزول إلاَّ بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[2].

ثالثًا: كان من عوامل سقوط دولة الموحدين -أيضًا- الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بني غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

رابعًا: الإعداد الجيد من قِبَلِ النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قِبَل الناصر لدين الله ومَنْ تبعه بعد ذلك.

خامسًا: وهو أمر مهمٌّ وجدٌّ خطير، وهو انفتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحُكم.

سادسًا: بطانة السوء المتمثِّلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك.

ويُعَلِّق على ذلك الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصر ألعوبة في يد وزيره ابن جامع، الذي لم يكن مسئولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضًا، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدَّت إلى تصدُّع سلطان الموحدين من أساسه.

---

(١) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٥٧.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١٢/ ٤٦٦.

لقد كُتب لأسرة ابن جامع التي تولَّى كثير منها الوزارة، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تُؤَدِّي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.. لقد تصرف ابن جامع - الذي يمثِّل بطانة السوء - بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسية الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسها(١).

سابعًا: إهمال الشورى من قِبَلِ الناصر لدين الله ومَنْ بعده من الأمراء، وإنها لمخالفة صريحة للقرآن الكريم؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: لا يُبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها(٢).

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتُسْقِط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبقَ منه في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ هما غَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة، ومع ذلك ظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من ٢٥٠ سنة من هذا السقوط المروِّع لدولة الموحدين!

وهذه قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين:

١ - عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ=١١٢٩-١١٦٣م).

٢ - أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨-٥٨٠هـ=١١٦٣-١١٨٤م).

٣ - أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ=١١٨٤-١١٩٩م).

(١) شوقي أبو خليل: العقاب، ص٥٩، ٦٠.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٢١.

٤ - أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ=١١٩٩-١٢١٣م).

٥ - أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ=١٢١٣-١٢٢٤م).

٦ - عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ=١٢٢٤م).

٧ - أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ=١٢٢٤-١٢٢٧م).

٨ - يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ=١٢٢٧-١٢٣٠م).

٩ - المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ=١٢٣١-١٢٣٢م).

١٠ - الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ=١٢٣٢-١٢٤٢م).

١١ - السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ=١٢٤٢-١٢٤٨م).

١٢ - أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ=١٢٤٨-١٢٦٦م).

١٣ - أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ=١٢٦٦-١٢٦٩م).

* * *

الباب التاسع
مملكة غرناطة وسقوط الأندلس

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جَيَّان في سنة (٦٤٣ هـ= ١٢٤٥م).

هذا ولم يبقَ في الأندلس إلاَّ ولايتان فقط كبيرتان نسبيًّا، الأولى هي ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥٪ من بلاد الأندلس، والثانية هي ولاية إشبيلية، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠٪ من أرض الأندلس.

هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب -كما ذكرنا- أن يظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بُدَّ من وقفة معها بعض الشيء.

الفصل الأول

تأسيس مملكة غرناطة

ابن الأحمر وملك قشتالة ومعاهدة الخزي والشنار[1]:

كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصيبة يذهب إلى حدٍّ التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، ففي العام نفسه الذي سقطت فيه جَيَّان بعد حروب غير مؤثرة بين المسلمين والنصارى، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات[2].

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولاً على أحد طرفي هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ[3]، لكن شتَّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي!

---

(١) الشَّنار: العيب والعار.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤١، ٤٢.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٩٢.

وقد سُمِّي بابن الأحمر ولم يكن هذا اسمًا له، بل لقبًا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا هي:

أولاً: يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويًّا[١]، وكان هذا تجسيدًا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرًا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهيبة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانيًا: أن يحضر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[٢]، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيًّا.

ثالثًا: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية؛ وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تمامًا[٣].

رابعًا: أن يسلمه ما بقي من حصون جَيَّان- المدينة التي سقطت أخيرًا- وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها[٤].

خامسًا: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٣. مع ملاحظة أن النظام السائد في الممالك النصرانية حتى ذلك الوقت هو النظام الإقطاعي الذي يتمتع فيه الأمراء أصحاب الإقطاعيات بنفوذ واستقلال كبير في حدود إقطاعياتهم على أن يكون من واجباتهم إمداد الدولة بالأموال والضرائب، وأن تكون أموالهم وقواتهم في خدمة العرش حال احتياج المملكة إليهم.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٤) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦٨، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٠.

احتاج إلى ذلك؛ أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أيًا كانت الدولة التي يحاربها[1].

التدني والانحطاط وسقوط إشبيلية:

وأوفى ابن الأحمر بالتزاماته هذه، وكان أكبر معين لفرناندو الثالث على سقوط إشبيلية في يده، وهي -يومئذٍ- أعظم القواعد الأندلسية قاطبة، وقد كانت العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة، لا سيما في عصر الطوائف تحت حكم بني عباد.

استطاع فرناندو الثالث أن يستولي على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامي بمعاونة محمد بن الأحمر، وفقًا للتحالف المعقود بينهما، ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقي الحصون القريبة من إشبيلية. واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين، وأن يمنحهم شروطًا سخية، ولم تأتِ أواسط (سنة ١٢٤٧م) الموافقة سنة (٦٤٥هـ) حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية، وانتسف سائر البسائط والضِياع القريبة منها، وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية في أغسطس ١٢٤٧م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ)[2].

التزام صاغر، وانتهاك لتعاليم الإسلام وشرائعه، وضرب لرابطة النصرة والأخوة الإسلامية، وموالاة للنصارى وأعداء الإسلام على المسلمين، ما كان من ابن الأحمر إلاَّ أن سمع وأطاع، وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم جيوش قشتالة نحو إشبيلية، ضاربين حصارًا طويلاً وشديدًا حولها.

يتحرك الجيش الغرناطي مع الجيش القشتالي ويحاصرون المسلمين في إشبيلية،

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٤٣، ٤٤.

ليس لشهر أو شهرين، إنما طيلة سبعة عشر شهرًا كاملاً، يستغيث فيها أهل إشبيلية بكل مَنْ حولهم، لكن هل يسمع من به صمم؟!

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَوْ نَارٌ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ[1]

فالمغرب الآن مشغول بالثورات الداخلية، وبنو مرين يصارعون الموحدين في داخل المغرب، والمملكة الوحيدة المسلمة في الأندلس غرناطة هي التي تحاصر إشبيلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٦٤٦ هـ= ١٢٤٨م) وبعد سبعة عشر شهرًا كاملة من الحصار الشديد، تسقط إشبيلية بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى، تسقط إشبيلية ثاني أكبر مدينة في الأندلس، تلك المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم، تسقط إشبيلية أعظم ثغور الجنوب ومن أقوى حصون الأندلس، تسقط إشبيلية ويغادر أهلها البلاد، ويهجَّر ويشرَّد منها أربعمائة ألف مسلم، وواحسرتاه على المسلمين، تفتح حصونهم وتدمر قوتهم بأيديهم[2]: [الوافر]

وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا

وَأَصْبَحَ لا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتَهُ سِنِينَا

وَآلَمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ سُؤَالُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الْمُسْلِمُونَا؟[3]

أين المسلمون؟! إنهم يحاصرون المسلمين! المسلمون يقتلون المسلمين!

---

(١) عمرو بن معدي كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، ص١١٣، والبيتان من بحر الوافر.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٨٤، وابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٧٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧١.

(٣) ديوان هاشم الرفاعي، ص٣٨٣.

المسلمون يُشَرِّدون المسلمين!

وعلى هذا تكون إشبيلية قد اختفت من الخارطة الإسلامية، وما زال إلى الآن مسجدها الكبير الذي أسَّسه يعقوب المنصور الموحدي بعد انتصار الأرك الخالد، ما زال إلى اليوم كنيسة يُعَلَّق فيها الصليب، ويُعبد فيها المسيح بعد أن كانت من أعظم ثغور الإسلام، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

غرناطة ولماذا يعاهدها ملك قشتالة؟

لم تكن غرناطة -في سنة (٦٤٦هـ= ١٢٤٨م)- تمثل أكثر من ١٥٪ وهي تضم ثلاث ولايات متحدة؛ هي: ولاية غرناطة، وولاية مالقة، وولاية ألمرية، ثلاث ولايات تقع تحت حكم ابن الأحمر، وإن كان هناك شيء من الاستقلال داخل كل ولاية.

ولنا أن نتساءل ونتعجب: لماذا يعقد فرناندو الثالث اتفاقية ومعاهدة مع هذه المملكة التي أصبح القضاء عليها ميسورًا؟! لماذا لم يأكل غرناطة كما أكل غيرها من بلاد المسلمين ودون عهود أو اتفاقيات؟!

والواقع أن ذلك كان للأمور التالية:

أولاً: كانت بغرناطة كثافة سكانية عالية؛ وهذا ما جعل من دخول جيوش النصارى إليها من الصعوبة بمكان، وقد كان من أسباب هذه الكثافة العالية أنه لما كانت تسقط مدينة من مدن المسلمين في أيدي النصارى كان النصارى -كما ذكرنا- ينتهجون نهجًا واحدًا، وهو إما القتل أو التشريد والطرد من البلاد.

فكان كلما طُرد رجل من بلاده عمَّق واتجه ناحية الجنوب، فتجمَّع كل المسلمين الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى في منطقة غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد[1]،

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧١.

فأصبحت ذات كثافة سكانية ضخمة، وهذا ما يصعب معه دخول قوات النصارى إليها.

ثانيًا: كانت غرناطة ذات حصون كثيرة ومنيعة جدًّا، نشأت هذه الحصون كسبب طبيعي من جراء الحروب المتواصلة قديمًا، والتهديد المرتقب بالفناء على يد النصارى، هذه الحصون والأسوار هي نفسها التي جعلت غرناطة مملكة قوية، بل وقد نقول: إنها قد حددت حدودها، وكانت هذه الحصون تحيط بغرناطة وألمرية ومالقة(١).

ومن هنا وافق فرناندو الثالث على عقد مثل هذه المعاهدة، وإن كانت كما رأينا معاهدة جائرة ومخزية، يدفع فيها ابن الأحمر الجزية، ويحارب بمقتضاها مع ملك قشتالة، ويتعهد فيها بألا يحاربه في يوم ما.

غرناطة وموعد مع الأجل المحتوم:

كعادتهم ولطبيعة متأصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتصالح والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصارى القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث ومَنْ تبعه من ملوك النصارى يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتهجمون على بعض المدن ويحتلونها، وقد يحاول هو (ابن الأحمر) أن يسترد هذه البلاد فلا يفلح، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لم تؤسَّس مملكة غرناطة -آنذاك- على التقوى، بل أسسها ابن الأحمر على شفا جرف هارٍ، معتمدًا على صليبيٍّ لا عهد له ولا أمان؛ ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ولقد فاتح النصارى ابن الأحمر وبدءوه بالعدوان، وغزوا أراضيه في سنة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٤٣، ٤٤٤.

(٦٦٠هـ=١٢٦١م)، واستطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه[١]، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين، ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢هـ)، استطاع قائدهم الفارس عامر بن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى، ولكن لمدى قصير فقط، وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة.

وما كان هذا التطور الخطير الذي يهدد «حرب الاسترداد» النصرانية ويضربها في مقتل، ويُعيد إلى الأندلسيين الأمل في استرجاع البلاد الذاهبة والمجد السليب - ما كان هذا التطور الخطير بالذي يسكت عليه ملك قشتالة ألفونسو العاشر، فشدَّد ضغطه على القواعد الأندلسية، حتى كانت أواخر سنة (٦٦٢هـ=١٢٦٣م)، وفيها نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى[٢]، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين، فأخرج أهلها المسلمين منها، وقتل وسبى كثيرًا منهم، وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان.

وفي العام التالي (٦٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على افتتاح ما بقي من القواعد الأندلسية، وسرى الخوف إلى نواحي الأندلس، وعادت

---

(١) مع أن الصراع بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بني مرين الناشئة، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة، فإن كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس. وعبر القائد أبو معروف محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني وأخوه الفارس عامر- البحر في نحو ثلاثة آلاف مقاتل جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين. وكانت حوادث الأندلس المؤسية تُحدث وقعها العميق في المغرب، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم في الدين، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٧.

(٢) كانت قد سقطت قبل ذلك بربع قرن، ودخلت في حكم الصليبيين، ولكن ظلت تحكم بالأمير المسلم -تحت سلطان النصارى- حتى ذلك الوقت.

الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت، خاصة وقد بدأ عدوان النصارى يُحدث أثره، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نونيو دي لارى (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣هـ=١٢٦٤م).

وكتب الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة رسالة طويلة إلى قبائل المغرب، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد في سبيل الأندلس، وفيها يقول: «ولا تخلدوا بركون إلى سكون، والدين يدعوكم لنصره، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره، والصليب قد أوعب في حشده، فالبدار البدار، بإرهاب الجد وإعمال الجهاد في نيل الجد... ». وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس، فبعث إليه المستنصر هدية ومالاً لمعاونته. ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة، وبقيت الأندلس أعوامًا أخرى تواجه عدوها القوي بمفردها، وتتوجَّس من سوء المصير.

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصًا من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته، فنزل له في أواخر سنة (٦٦٥هـ=١٢٦٧م) عن عدد كبير من البلاد والحصون، بلغ أكثر من مائة موضع، ومعظمها في غرب الأندلس؛ وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى.

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاما فقط (٦٢٧هـ=٦٥٥هـ) في وابل مروع من الأحداث والمحن، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية، إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة.

وفي تلك الآونة (سنة ٦٦٨هـ وما بعدها) عاد النصارى إلى التحرك والتحرش

بالمملكة الإسلامية، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها فسادًا وتخريبًا.

وهنا وجد ابن الأحمر نفسه في مأزق، وحينها فقط علم أنه عاهد مَنْ لا عهد له، فماذا يفعل؟ ما كان منه إلا أن يمّم وجهه شطر بلاد المغرب حيث بنو مرين، وحيث الدولة التي قامت على أنقاض دولة الموحدين، والتي كان عليها رجل يُسمّى يعقوب المنصور المريني، و«المريني» تمييزًا بينه وبين يعقوب المنصور الموحدي في دولة الموحدين، وكلاهما كانا على شاكلة واحدة، وكلاهما من عظماء المسلمين، وكلاهما من كبار القادة في تاريخ المسلمين.

فبعث ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف يعقوب المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد، ونصرة إخوانه المسلمين فيها وراء البحر، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم في القضاء على ما بقي من ديار الأندلس، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل[1].

* * *

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٧-٥٠.

الفصل الثاني

بنو مرين يرثون دولة الموحدين في المغرب

بنو مرين فرع من قبيلة زناتة الأمازيغية (البربرية) الشهيرة[١]، والتي ينتمي إليها عدد من القبائل التي لعبت أدوارًا مهمة في تاريخ المغرب العربي، مثل مغيلة ومديونة ومغراوة وعبد الواد وجراوة، وغيرهم، وكان بنو مرين في أول أمرهم من البدو الرحل، وفي سنة (٦٠١هـ) نشبت بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين حرب فارتحلوا بعيدًا وتوغلوا في هضاب المغرب، ونزلوا بوادي ملوية الواقع بين المغرب والصحراء، واستقروا هناك إلى سنة (٦١٠هـ)، وهي السنة التي مات فيها محمد الناصر الموحدي عقب موقعة العقاب، وتولى من بعده ابنه المستنصر، وكان صبيًّا لا علم له بالسياسة وتدبير الملك، فانشغل باللهو والعبث وترك تدبير الملك لأعمامه ولكبار رجال الموحدين، فأساءوا وتهاونوا في الأمور وخلدوا إلى الراحة والدعة، وكانت غزوة العقاب قد أضعفت قواهم، وقضت على كثير من رجالهم وشبابهم، ثم جاء بعدها وباء عظيم قضى على كثير من أهل هذه المناطق، وكان بنو مرين في ذلك الوقت يعيشون في الصحاري والقفار، وكانوا يرتحلون إلى الأرياف وأطراف المدن المغربية في الصيف والربيع للرعي فيها طوال الصيف والربيع، ولجلب الحبوب والأقوات التي يستعينون بها على الحياة في الصحاري المجدبة، فإذا أقبل الشتاء اجتمعوا كلهم ببلدة تسمى «أكرسيف» ثم شدُّوا الرحال إلى مواطنهم في الصحراء.

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص١٤، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٦٦.

فلما كانت سنة (٦١٠هـ) ذهبوا على عادتهم إلى المدن والأرياف، فوجدوا أحوال هذه البلاد قد تغيرت وتبدَّلت، ورأوا ما آلت إليه أحوال الموحدين من التهاون والخلود للراحة، وما آلت إليه أحوال الشعب بعد ضياع رجاله وشبابه في موقعة العقاب، وفي الوباء الذي عم بلاد المغرب والأندلس بعدها، ووجدوا هذه البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصيبة المرعى، غزيرة الماء، واسعة الأكناف، فسيحة المزارع، متوفرة العشب لقلة الرعي فيها، مخضرة التلول والربى، فدفعهم ذلك إلى ترك القفار والاستقرار في هذه البلاد، وأرسلوا إلى قومهم في الصحراء يخبرونهم بذلك كله، وأنهم عزموا على الاستقرار هناك، ويحضونهم على اللحاق بهم، فأسرع باقي بني مرين بالانتقال إلى هذه البلاد الخصبة وانتشروا فيها[1].

ولأنهم كانوا قومًا من البدو لم يعتادوا الخضوع لغيرهم، فقد عملوا على بسط سيطرتهم على هذه البلاد، وشنوا الغارات على البلاد المحيطة بهم كعادة أهل الصحراء، فلما كثر عيثهم وزادت شكاية الناس منهم، أراد الخليفة المستنصر الموحدي أن يقضي عليهم، فأرسل لهم جيشًا عام (٦١٣هـ)، وكان أميرهم في ذلك الوقت أبو محمد عبد الحق بن محيو، فاشتبك الفريقان، ودارت بينهم حرب شديدة استمرت أيامًا، وانتهت بهزيمة الموحدين هزيمة شديدة وبانتصار بني مرين واستحواذهم على أموال الموحدين وسلاحهم، فزاد ذلك من قوة بني مرين، وسرت هيبتهم في بلاد المغرب[2].

واستمرت المعارك بعد ذلك بين بني مرين وبين الموحدين، حتى كانت سنة (٦٣٩هـ)، وفيها أرسل الخليفة الرشيد الموحدي جيشًا لقتال بني مرين فهُزم الموحدون هزيمة شديدة، واستولى بنو مرين على أموالهم وسلاحهم[3]، وتوفي

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٢٤- ٢٧، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٢٧، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٦٩.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧١.

الرشيد بعد ذلك بعام، فخلفه أخوه أبو الحسن السعيد، وهو الذي استنجد به أهل إشبيلية[١]، وصمم أبو الحسن السعيد هذا على القضاء على بني مرين فضاعف في ذلك جهوده، وسَيَّر لقتالهم سنة (٦٤٢هـ) جيشًا ضخمًا، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة هُزم فيها بنو مرين، وقُتل فيها أميرهم في ذلك الوقت أبو معرِّف محمد بن عبد الحق.

وتولى إمارة المرينيين بعد مقتل أبي معرف أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى، وفي عهده اشتدَّ ساعد بني مرين، وتغلبوا على مكناسة سنة (٦٤٣هـ)[٢]، ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد سنة (٦٤٨هـ)، ثم استولوا على سجلماسة ودرعة سنة (٦٥٥هـ)، وبعد ذلك بعام واحد توفي أبو يحيى، وصار الأمر بعده إلى أخيه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وتلقب بالمنصور بالله، وجعل مدينة فاس عاصمة دولته[٣]، وفي سنة (٦٥٧هـ) نشبت الحرب بين بني مرين وبين الأمير يَغْمُراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط، وزعيم بني عبد الواد، فانتصر يعقوب المنصور المريني، وارتد يغمراسن إلى تلمسان مهزومًا[٤]، وفي سنة (٦٥٨هـ) هاجم نصارى إسبانيا ثغر سلا من بلاد المغرب، وقتلوا وسبوا كثيرًا من أهله، فأسرع المنصور المريني بإنجاده، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه[٥].

ثم جاءت سنة (٦٦٧هـ)، وفيها كانت الموقعة الحاسمة بين المرينيين والموحدين ففي أواخر هذه السنة سار الخليفة الواثق بالله الموحدي لقتال بني مرين، والتقى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٨٠- ٣٨٤.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦٣: ٦٦، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧١، ١٧٢.
(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٥٨، ٧٧، ٧٨، ٨٣.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧٧، ١٧٨.
(٥) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٩٣، ٩٤، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٢١، ٢٢.

الفريقان في وادي غفو بين فاس ومراكش، فانتصر بنو مرين، وقُتل من الموحدين عدد كبير، وكان على رأس القتلى الخليفة الموحدي نفسه، واستولى المرينيون على أموالهم وأسلحتهم[1]، ثم ساروا إلى مراكش، فدخلها يعقوب المنصور بجيشه في التاسع من المحرم سنة (٦٦٨هـ)، وتسمَّى بأمير المسلمين[2]، وبذلك انتهت دولة الموحدين بعد حوالي قرن ونصف من الزمان، وقامت بعدها دولة بني مرين الفتية التي سيطرت على المغرب الأقصى كله.

* * *

(١) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١١٧، ١١٨، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٨٢.
(٢) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١١٨.

الفصل الثالث

يعقوب المنصور المريني وجهاده في الأندلس

يعقوب بن منصور المريني رجل الشدائد:

في وصف بليغ ليعقوب المنصور المريني يقول المؤرخون المعاصرون له: إنه كان صوَّامًا قوَّامًا، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرًا، وفي أكثر ليله قائمًا يصلي، مكرمًا للصلحاء، كثير الرأفة والحنين على المساكين، متواضعًا في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفًا في سفك الدماء، كريمًا جوَّادًا، وكان مظفرًا، منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغزُ عدوًّا إلا قهره، ولا لقي جيشًا إلا هزمه ودمَّره، ولا قصد بلدًا إلا فتحه(١).

وإنها لصفات عظيمة لهؤلاء القادة المجاهدين الفاتحين، يجب أن يقف أمامها المسلمون كثيرًا، ويتمثلونها في قرارة أنفسهم، ويجعلون منها نبراسًا يضيء حياتهم.

وفي تطبيق عملي لإحدى هذه الصفات وحين استعان محمد بن الأحمر الأول بيعقوب المنصور المريني ممثلاً في دولة بني مرين، ما كان منه إلا أن أعد العدة وأتى بالفعل، وقام بصدِّ هجوم النصارى على غرناطة.

بلاد الأندلس واستيراد النصر وقصة متكررة:

لقد تعوَّدت بلاد الأندلس استيراد النصر من خارجها، كانت هذه مقولة

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٨٥، ٨٦.

ملموسة طيلة العهود السابقة؛ فلقد ظلت لأكثر من مائتي عام تستورد النصر من خارج أراضيها؛ فمرة من المرابطين، وأخرى من الموحدين، وثالثة كانت من بني مرين وهكذا، فلا تكاد تقوم للمسلمين قائمة في بلاد الأندلس إلا على أكتاف غيرهم من بلاد المغرب العربي وما حولها.

ومن الطبيعي ألا يستقيم الأمر لتلك البلاد التي تقوم على أكتاف غيرها أبدًا، وأبدًا لا تستكمل النصر، وأبدًا لا تستحق الحياة، لا يستقيم أبدًا أن تنفق الأموال الضخمة في بناء القصور الضخمة الفارهة في غرناطة؛ مثل قصر الحمراء الذي يُعَدُّ من أعظم قصور الأندلس ليحكم منها ابن الأحمر أو غيره، وهو في هذه المحاصرة من جيوش النصارى، ثم يأتي غيره ومن خارج الأندلس ليدافع عن هذه البلاد وتلك القصور.

وفاة محمد الأول وولاية محمد الفقيه:

في سنة (٦٧١هـ= ١٢٧٣م) يموت محمد بن الأحمر الأول وقد قارب الثمانين من عمره، وقد استخلف على الحُكم ابنه وسميَّه، بل وسميَّ معظم أمراء بني الأحمر كان اسم ابنه هذا محمدًا، فكان هو محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر، وكانوا يلقبونه بالفقيه «لانتحاله طلب العلم أيام أبيه»[1].

لما تولَّى محمد الفقيه الأمور في غرناطة نظر إلى حال البلاد فوجد أن قوة المسلمين في بلاد الأندلس لن تستطيع أن تبقى صامدة في مواجهة قوة النصارى، هذا بالإضافة إلى أن ألفونسو العاشر حين مات ابن الأحمر الأول ظن أن البلاد قد تهاوت، فما كان منه إلا أن أسرع بالمخالفة من جديد وبالهجوم على أطراف غرناطة، ما كان -أيضًا- من محمد الفقيه إلا أن استعان بيعقوب المنصور المريني رحمه الله، وكان

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١.

أبوه قد وصاه عند موته بالتمسك بعروة أمير المسلمين في المغرب[١].

وعلى كلٍّ فقد أتى بنو مرين، وكان العبور الأول للمنصور المريني رحمه الله في صفر سنة (٦٧٤هـ)، وكان قد سبق ذلك بعام إرساله خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه للجزيرة؛ حتى يفرغ من استعداده للجواز، وكان قبل ذلك بعدة أعوام سنة (٦٦٣هـ) قد أرسل حوالي ثلاثة آلاف مجاهد تحت قيادة بعض أقاربه إلى الأندلس في حياة الشيخ ابن الأحمر فاستقروا بالأندلس -كما ذكرنا- واستطاعوا أن يردُّوا الهجوم عن غرناطة، وحفظها الله من السقوط المدوّي[٢].

وهناك وفي مكان خارج غرناطة وبالقرب من قرطبة يلتقي المسلمون مع النصارى،هههه وعلى رأسهم واحد من أكبر قواد مملكة قشتالة يدعى دون نونيو دي لارى (الذي سميت الموقعة باسمه، فعُرفت بموقعة الدونونيّة)[٣].

موقعة الدونونية ونصر مؤزَّر:

في سنة (٦٧٤هـ= ١٢٧٦م) تقع موقعة الدونونية، وكان على رأس جيوش المسلمين المنصور المريني رحمه الله، وقد أخذ يحفز الناس بنفسه على القتال، وكان مما قاله في خطبته الشهيرة في تحفيز جنده في هذه الموقعة:

ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجِدُّوا في طلبها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف؛ ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٤-١٤٦، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١، ١٩٢.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٨.

فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة؛ فمَنْ مات منكم مات شهيدًا، ومن عاش رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا، فـ ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠][(١)].

وبهؤلاء الرجال الذين أتوا من بلاد المغرب، وبهذه القيادة الربانية، وبهذا العدد الذي لم يتجاوز عشرة آلاف مقاتل حقق المسلمون انتصارًا باهرًا وعظيمًا، وقُتل من النصارى ستة آلاف مقاتل، وتم أسر سبعة آلاف وثمانمائة آخرين، وقُتل دون نونيو قائد قشتالة في هذه الموقعة[(٢)]، وقد غنم المسلمون غنائم لا تحصى، وما انتصر المسلمون منذ موقعة الأرك في سنة (٥٩١هـ= ١١٩٥م) كهذا النصر في الدونونية في سنة (٦٧٤هـ= ١٢٧٦م).

عاد المنصور -عقب غزوة الدونونية- إلى الجزيرة الخضراء، واستقرَّ بها خمسة وثلاثين يومًا، وزَّع خلالها الغنائم، وأرسل إلى العدوة بخبر الغزوة، وكذلك أرسل إلى ابن الأحمر، ثم عاد بعد ذلك، وقاد جيشه إلى أحواز إشبيلية، وحاصرها حصارًا شديدًا، قتل فيه وسبى، وضيق على إشبيلية تضييقًا شديدًا، ثم رحل بجيشه عنها محملاً بالغنائم إلى شريش، وحاصرها هي الأخرى فترة، ثم فضَّ الحصار وعاد إلى الجزيرة[(٣)].

وبعد ثلاث سنوات من هذه الموقعة في سنة (٦٧٧هـ= ١٢٧٩م) تنتقض إشبيلية، فيذهب إليها من جديد يعقوب المريني رحمه الله، ومن جديد وبعد حصار فترة من الزمن يصالحونه على الجزية، ثم يتجه بعد ذلك إلى قرطبة ويحاصرها، فترضخ له أيضًا على الجزية[(٤)].

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٣.
(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٥٨، وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٣.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٦، ١٩٧

كان النصارى معتصمين بمدنهم، يحتمون بأسوارها وقلاعها، أو قل: هي أسوار وقلاع بناها المسلمون من قبل. إلا أن ألفونسو العاشر لم يكن من المتخاذلين والضعفاء والجبناء الذين ابتلي بهم المسلمون في أيام السقوط فتركوا هذه المدن، أو سلموها، أو حتى عاونوا النصارى في إسقاطها.

بل حتى في هذه الفترة لم تكن ما بقي من بلاد الأندلس متوحدة تحت سلطان ابن الأحمر، بل خرج عليه بنو أشقيلولة[1]، وسيطروا على مالقة وقمارش ووادي آش، وكثيرًا ما حاربهم هو وحاربهم أبوه من قبله، بل إن ابن الأحمر لم يشترك في موقعة الدونونية لهذا النزاع مع بني أشقيلولة[2].

حاصر المسلمون إشبيلية، واستنزفوها قدر الإمكان، وكان فيها ألفونسو العاشر، وأرسل المنصور السرايا إلى مختلف النواحي لتؤدي العمل نفسه، واقتحمت سراياه عدة حصون، ثم عاد السلطان بالغنائم والسبي إلى الجزيرة، وأراح في الجزيرة بعض الوقت، ثم خرج إلى شريش فاشتد في التضييق عليها، وأرسل ولده إلى إشبيلية، فاكتسح ما استطاع من حصونها، ثم عاد إلى أبيه وعادا معًا بالجيوش وبالغنائم إلى الجزيرة، ثم دعا ابن الأحمر للغزو، فاستجاب له، وخرجا سويًّا إلى قرطبة، فضيقوا عليها قدر الإمكان، وخربوا ما استطاعوا من حصونها، وأرسلوا السرايا إلى المدن الأخرى للتضييق عليها كأرجونة وبركونة وجيان، وملك قشتالة لا يجرؤ على الخروج لهم، ثم إنه لم يجد أمامه بدًّا من مسالمتهم، وبالفعل أرسل إلى أمير المسلمين يطلب المسالمة والصلح، فترك أمير المسلمين القرار في ذلك لابن الأحمر إعلاءً لشأنه، فوافق ابن الأحمر بعد استئذان أمير المسلمين في ذلك، وعاد أمير

---

(١) بنو أشقيلولة هم ابن أخت السلطان محمد بن الأحمر الفقيه، وكانت وقعت بينهم وبين السلطان خالهم (محمد الفقيه) حروب تسببت في مقتل فرج أحد الأخوة الأربعة (بني أشقيلولة)؛ فوقعت العداوة بين أمه أخت السلطان، وأخيها، وهي العداوة التي لم تنته ولم ينفع فيها صلح.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٧، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤٥-٤٨.

المسلمين مع ابن الأحمر إلى غرناطة، وترك له غنائم هذه الغزوة، ثم عاد أمير المسلمين للجزيرة(١).

محمد بن الأحمر الفقيه والخيانة العظمى:

في أثناء رجوع يعقوب المريني رحمه الله يموت حاكم مالقة -وهو من بني أشقيلولة الذين كانوا يسيطرون عليها- فيتولى عليها ابنه من بعده، إلا أن هذا الابن شرع في النزول عن مالقة لأبي يعقوب المنصور المريني(٢)؛ نكاية في خاله محمد الفقيه، بل إلى الحد الذي قال فيه للمنصور: إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر، وكان من الطبيعي -والحال هذا- أن يسارع المنصور لأخذها والاستجابة لبني أشقيلولة(٣).

ولا شكَّ أن موقفه كان في غاية الصعوبة؛ إذ هو الحريص دائمًا على طمأنة محمد الفقيه واسترضائه؛ فلقد كان هذا الأخير لديه من البطانة مثل ما كان للمعتمد بن عباد من قبله، وهم ممن يرضى بالنزول للنصارى ولا يرضى أن ينزل إلى الجزيرة، أمثال يوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور المريني!

ولا شكَّ -أيضًا- في أن المنصور المريني لم يشأ أن تضيع جهوده في الجهاد سدى، ولا بُدَّ أنه فكر في ضرورة أن يكون للمرينيين قوات في أرض الأندلس يمكنها ردع المحاولات النصرانية، كما يمكنها شلَّ الأفكار التي قد تجول في رأس ابن الأحمر حول التحالف مع النصارى، أو النزول لهم عن مزيد من الأراضي.

ولقد كان للمنصور المريني قوات في جزيرة طريف على الساحل الجنوبي لبلاد الأندلس، اشترط نزول ابن الأحمر عنها لدى استدعائه له للغوث والإنجاد؛ وذلك

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٦، ١٩٧ .

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٥، وتاريخ ابن خلدون ٧/ ١٩٧.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٦٤، وأعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤٨.

حتى تكون هذه القوات مددًا قريبًا لبلاد الأندلس إذا احتاجوا إليهم في حربهم ضد النصارى، وسبيلاً سهلاً للعبور المغربي إلى الأندلس.

وهنا كرر محمد بن الأحمر الفقيه سيرة المعتمد بن عباد، وخشي أن تتكرر قصة يوسف بن تاشفين حينما ساعد ملوك الطوائف ثم حاز الأندلس بعدئذٍ وأدخلها في حكم المرابطين[١]، ففكر عازمًا على أن يقف حائلاً وسدًّا منيعًا حتى لا تُضم بلاد الأندلس إلى دولة بني مرين.

ويا لهول! هذا الفكر الذي كان عليه ذلك الرجل الذي لُقب بالفقيه الذي ما هو بفقيه! فماذا يفعل إذًا لكي يمنع ما تكرر في الماضي، ويمنع ما جال بخاطره؟ بنظرة واقعية وجد أنه ليست له طاقة بيعقوب المنصور المريني، فماذا يفعل؟!

كرر سيرة الخيانة ذاتها؛ ومثلما أرسل المعتمد بن عباد من قبل إلى ألفونسو السادس، فعل محمد بن الأحمر الفقيه (!!) مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، واستعان به في طرد يعقوب المنصور المريني من جزيرة طريف[٢].

ولم يكتفِ بهذا، بل سارع ابن الأحمر «الفقيه» (!!) في مراسلة الأمير المغربي يغمراسن بن زيان -ملك المغرب الأوسط، والعدو اللدود للسلطان يعقوب المريني[٣]- للمحالفة على المنصور المريني.

وعلى موعد مع الزمن يأتي ملك قشتالة بجيشه وأساطيله ويحاصر جزيرة

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٨.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠٠.

(٣) بل إن يغمراسن هو الأمير الذي منعت معاركه المرينيين من سرعة الاستجابة لغوث الأندلسيين من قبل؛ حتى إنه رفض رسالة المنصور المريني بعقد هدنة بينهما لأنه سيتوجه إلى الأندلس التي تستغيث من بلاد النصارى، فما أمكن المنصور المريني أن يتوجه للجهاد مع الأندلسيين إلا بعد أن انتصر على يغمراسن هذا في معارك قوية، وبعد وقت ثمين ذهبت فيه من المسلمين الأندلسيين بلاد وأرواح وسبايا.. نسي ابن الأحمر هذا وأرسل ليغمراسن ليحالفه ضد المنصور المريني.

طريف، وما أن يسمع بذلك يعقوب المنصور المريني رحمه الله حتى يُريد أن يعبر من توه إلى الأندلس، إلا أن حوادث المغرب ومضايقات يغمراسن تمنعه وتعوقه، حتى لقد بلغ الحال بالمسلمين المحاصرين في الأندلس أنهم «قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر»[1]، فأغمه هذا، فأرسل ابنه الأمير أبا يعقوب على رأس أسطول ضخم في أوائل سنة (٦٧٨هـ=١٢٧٩م)، وتُحدِّثنا مصادر التاريخ عن فقيه من سبتة اسمه أبو حاتم العزفي أبلى البلاء الحَسن في حشد الناس، واستنفارهم للجهاد؛ حتى ركب أهل سبتة جميعًا للجهاد من الفتى الذي بلغ الحلم فما فوقه، وتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت[2].

واستطاع ابن الأحمر في ظل هذه الكوارث التي أثارها للمارينيين بالمغرب والأندلس أن يأخذ مالقة ويستولي عليها ويُدخلها في حكمه، وعندئذٍ تكون الأمور قد عادت إلى ما كان يحب ويرغب من إخراج المرينيين من مالقة.

ثم بدا لابن الأحمر -مما وصل إليه حال المسلمين المحاصرين من جيوش النصارى- أن النصارى يستعدون لأخذها، وليس فقط إخراج المرينيين منها، وأنها على وشك أن تقع بأيديهم بالفعل، فندم على ما صنع ونبذ عهده وأعد أساطيله وجعلها مددًا للمسلمين، واجتمعت الأساطيل بميناء سبتة تناهز السبعين، فنشبت بين الأسطول الإسلامي وبين الأسطول النصراني معركة هائلة هُزم فيها النصارى، واستولى المسلمون على سفنهم، ونزلوا بالجزيرة، ففرَّ منها النصارى في الحال.

أمَا كان الفقيه يعتبر بالتاريخ حتى نهايته، فيُبصر فيه نصر ابن تاشفين على ابن عباد ومعه الفرنج، ولو فعل ذلك لاكتملت له مسيرة القصة فيعتبر بها كلها، بدل أن يخشى من أحد فصولها فيكرر سيرة الخيانة!! إنه نموذج للحاكم الذي تضيع على يديه الممالك

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٠٢.
(٢) المصدر السابق.

والبلاد، وتُمْحَى بسيرته أمجاد سطرها العظماء والفاتحون والمجاهدون الكبار.

وللنقمة التي ملأت قلب الأمير أبي يعقوب -ابن المنصور المريني، وقائد النصر البحري- على ابن الأحمر، فكَّر في أن يتحالف مع النصارى ضد ابن الأحمر حتى يُذهب ملكه في غرناطة، وأرسل بهذا إلى أبيه في المغرب، فأنكر عليه المنصور ذلك ورفضه تمامًا.

وفي هذا الوقت نفسه ينقلب النصارى على ابن الأحمر، ويتحالفون مع بني أشقيلولة ويهاجمون غرناطة، إلا أن ابن الأحمر استطاع ردهم عنها.

ورغم خطورة الموقف الذي أوقع ابن الأحمر نفسه فيه؛ إذ جعل الكل أعداءه، فتحالف على نصيره الوحيد وهم المرينيون، فجعلهم عدوًّا جديدًا يضاف إلى النصارى وإلى بني أشقيلولة رغم خطورة هذا الموقف ودقته إذا به يستقبل الرسالة التي تنزل على قلبه بردًا وسلامًا، وهي رسالة من السلطان يعقوب المنصور المريني، يُجَدِّد فيه الرغبة في الصلح والتحالف، ويحذر من خطورة انفصام هذا التحالف على المسلمين في الأندلس ومصيرهم.

وما كان أمام ابن الأحمر الفقيه إلا أن يقبل ويستجيب أمام هذا الخلق الإسلامي الكريم، فيكسب قومًا طالما جاهدوا معه، ونصروه وأعزوه، وعاداهم هو بحماقته، فلم يلبث إلا أن دارت عليه الدوائر[1].

هدأت العلاقات وصفت بين المنصور وبين ابن الأحمر لفترة من الزمن، ثم انقلب الحال في قشتالة نفسها؛ إذ ثار سانشو بن ألفونسو العاشر على أبيه، فلجأ ألفونسو العاشر إلى المنصور المريني، الذي جاز إلى الأندلس معاونةً لألفونسو، واستغلالاً لهذه الفرصة في ضرب بعضهم ببعض، ثم جاز مرة ثانية بعد أن مات ألفونسو العاشر، فصالحه النصارى وعقدوا معه عقدًا للهدنة والموادعة[2].

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠١-٢٠٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٨٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٠٢، ١٠٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠٥، ٢٠٦.

ثم وَفَد سانشو بعد ذلك على أمير المسلمين، وفيها سأل المنصورُ سانشو أن يرسل إليه من الكتب التي أخذوها من بلاد المسلمين في الأندلس، فأرسل إليه بعد عودته إلى بلاده ١٣ حملاً[(١)].

تكرار الخيانة من ابن الأحمر الفقيه وسقوط طريف:

بعد الموقعة السابقة بعام واحد وفي سنة (٦٨٥هـ= ١٢٨٦م) يموت المنصور المريني رحمه الله ويخلفه على إمارة بني مرين ابنه يوسف بن المنصور[(٢)]، ومن حينها يذهب ابن الأحمر الفقيه إليه ويعرض عليه الولاء والطاعة، وكان قد تم اتفاق بينهما فيما مضى حينما نزل الجيش المغربي إلى الأندلس وهزم الأساطيل النصرانية، وفيه أن ينزل الأمير يوسف بن يعقوب لابن الأحمر عن كل الثغور الأندلسية التابعة لبلاد العدوة المغربية، عدا الجزيرة وطريف، وتفرق الملكان وهما على أكمل حالات المصافاة، ثم كذلك نزل السلطان يوسف المريني لابن الأحمر عن وادي آش بعد ذلك سنة (٦٨٦هـ) [(٣)].

في هذه الأثناء وبعدها نقض سانشو المعاهدة التي كان أبرمها مع المرينيين؛ مستغلاً انشغال السلطان المغربي بشئون المغرب واضطراباته، فهاجموا البلاد الإسلامية، فعبر إليه السلطان، وغزا بلاده وهزمه، وهنا أرسل سانشو إلى ابن الأحمر يُخَوِّفه السلطان المريني على ملكه، ويسأله محالفته حتى يتمكنوا من منع بني مرين من العبور إلى الأندلس ثانية، وأن ليس إلى ذلك من سبيل إلا أن يستولوا على جزيرة طريف.

ومن جديد اعتملت الوساوس في قلب ابن الأحمر، ووقع في الفخ النصراني القاتل، وما درى المسكين أنه يخنق نفسه بيده، فوافق على التحالف مع النصارى شريطة أن يأخذ

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢٠٩.
(٢) ابن الخطيب: رقم الحلل، ص٨٩، ٩٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢١٠.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢١١.

هو طريف إن استُولي عليها، أما ملك قشتالة فإنه يحصل على ستة حصون من ابن الأحمر، وبالفعل حاصر ملك قشتالة طريف، وكان ابن الأحمر يمده بالمؤن والأقوات، واستمرَّ الحصار حتى أنهك أهلها تمامًا، وسلموا لملك قشتالة على شروط.

وكسابقة وعلى موعد أيضًا مع الزمن يأتي بالفعل جيش النصارى ويحاصر طريف كما فعل في السابق، لكن في هذه المرة يستطيعون أن يسقطوا طريف.

لكن النصارى بعد أن استولوا عليها لم يُعيدوها إليه، وإنما أخذوها لأنفسهم؛ وبذلك يكونون قد خانوا العهد معه، وتكون قد حدثت الجريمة الكبرى والخيانة العظمى وسقطت طريف[١].

وكان موقع طريف هذه في غاية الخطورة؛ فهي تطل على مضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن سقوطها يعني انقطاع بلاد المغرب عن بلاد الأندلس، وانقطاع العون والمدد من بلاد المغرب إلى الأندلس تمامًا.

أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين:

في سنة (٧٠١هـ= ١٣٠٢م) يموت ابن الأحمر الفقيه[٢] ويتولى من بعده محمد الثالث، والذي كان يلقب بالأعمش[٣]، ويُعرف بالمخلوع، وكان رجلاً ضعيفًا جدًّا، وقد تولى الأمور في عهده الوزير أبو عبد الله بن الحكيم -الذي ما هو بحكيم- حيث كانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة[٤]، و«انصرف عن موالاة سلطان المغرب إلى موالاة ملك قشتالة»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢١٦، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٧١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٦٦، واللمحة البدرية، ص٤٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٤٤، ٥٤٥، واللمحة البدرية، ص٤٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٤٩، واللمحة البدرية، ص٥١، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

لم يكتفِ أبو عبد الله بن الحكيم بذلك، لكنه زاد على السابقين له في هذه المخالفات وغيرها بأن فعل أفعالاً يندى لها الجبين، فأوعز أبو عبد الله المخلوع إلى ابن عمه حاكم مالقة بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان يوسف المريني، والدخول في طاعة ابن الأحمر، ثم جهَّز جيشًا وذهب ليقاتل، تُرى من يقاتل؟! أيقاتل النصارى الذين هم على حدود ولايته، أم من يقاتل؟!

كانت الإجابة المخزية أنه ذهب بجيشه واحتلَّ سبتة في بلاد المغرب، ذهب إلى دولة بني مرين واحتلّ مدينة سبتة حتى يقوي شأنه في مضيق جبل طارق، وتم احتلال سبتة بالفعل وأعلن أبو عبد الله بن الحكيم الأمان لأهل سبتة، وإرساله حكام سبتة المخلوعين إلى غرناطة[١].

وفي سبيل لزعزعة الحُكم في بني مرين، انطلق رجل مغربي كان من المرينيين الذين يقيمون في الأندلس ويُدعى عثمان بن أبي العلاء، انطلق من سبتة إلى البلاد المغربية المحيطة في محاولة للسيطرة عليها؛ أملاً في أن يتمكن من السيطرة على المغرب، وساعده على ذلك مشاكل المغرب الداخلية، ثم ما كان من مقتل السلطان يوسف المريني، وما أدى إليه من فتنة بين ولديه أبي سالمٍ وأبي ثابت، انتهت بانتصار أبي ثابت واستيلائه على العرش، ثم مات أبو ثابت بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه أبو الربيع سليمان، وهو الذي هزم عثمان بن أبي العلاء بعد ذلك فارتد إلى الأندلس من جديد[٢].

وإنه -بلا شكٍّ- غباء منقطع النظير، أمر لا يقرُّه عقل ولا دين، لكن هذا ما حدث، فكانت النتيجة أنه بعد ذلك بأعوام قليلة استغل النصارى الثورة التي قامت على أبي عبد الله المخلوع وتولية أخيه أبي الجيوش نصر بدلاً منه، فزحفوا

---

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٣٦-٢٣٨.

بجيوشهم نحو جبل طارق حتى سقط في أيديهم في سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠٩م)، فعُزلت -بهذا- بلاد الأندلس عن بلاد المغرب، وتركت غرناطة لمصيرها المحتوم(١).

* * *

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/ ٣٣٩، واللمحة البدرية، ص٦٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٤٠.

الفصل الرابع

غرناطة تصارع السقوط

وطيلة ما يقرب من مائتي عام، منذ سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠٩م) وحتى سنة (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م) ظلّ الحال كما هو عليه في بلاد غرناطة، ولم تسقط.

وكان السر في ذلك والسبب الرئيس، والذي من أجله حُفظت هذه البلاد هو وجود خلاف كبير وصراع طويل كان قد دار بين مملكة قشتالة ومملكة أراجون، (المملكتان النصرانيّتان في الشمال)؛ حيث تصارعتا معًا بعد أن صارت كل مملكة منهم ضخمة قوية، وكانتا قد قامتا على أنقاض الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس.

وقفة مع غرناطة وعوامل ثباتها طيلة هذه الفترة[1]:

كانت غرناطة تتردَّد بين القوة والضعف وبين الهزيمة والثبات وبين الأمن والقلق وبين الهدوء والاضطراب، رغم ذلك في الدَّاخل كانت -خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف- تمتلئ بالإنتاج، كما تطفح بالخير والرفاه، توفرت لها أيام مشهودة في الانتصار والغلبة، مع قلة الإمكانيات وقسوة الظروف وكثافة الأعداء.

في هذه الظروف -وحتى مع الأيام العصيبة والانشغال- استطاعت أن تسير في الموكب الحضاري، على قدر ما أوتيت من إمكانيات، وأن تُقَدِّم ألوانًا عديدة من

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص٥٥٩- ٥٦٢.

الإنجاز؛ مما يدل على حيوية هذه الأمة المسلمة واستعدادها للعمل والإنتاج، بقدر ما لديها من معاني الإسلام، وما تمتلك من رسوخ عقيدته، إن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم حين الهبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الإسلام كان أكثر مما أصابهم من عدوهم[١]. مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الإشغال والاستنزاف والإطباق من كل جهة، ينتقص من أطرافها ويأكل وجودها ويطحن حضارتها، ترابًا تذروه رياحها العاصفة.

أول إنجاز هو الاستعداد - في تلك الظروف - للمحافظة على ما تبقى للأندلس من أرض، تأوي إليها البقية الباقية، والسير في الوجهة القويمة على قدر؛ بعض هذه الإنجازات كانت موجودة واستمرت، وبعضها الآخر وجد أيام غرناطة؛ وجدت أيامها «مشيخة الغزاة»، التي خلّفت تلك البطولات بجانب الانتصارات الأخرى[٢].

أمكن الحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي في عدد من الجوانب، ولو بحدود تضيق أو تتسع، وهو الذي ساعد على الوقوف في هذا الخضم الصعب لعدة أجيال، كما أن الآفاق والقيم التي رعاها وحافظ عليها أنتجت بناء حضاريًّا كبيرًا في مختلف الميادين، قد تغور أحيانًا بعد أن كانت تفور.

وفي العلوم المتعددة الحقول قدمت التآليف الكثيرة والإنتاج الضخم، كما حافظت على ما خطته يد العلماء الذين سبقوا وانتفعت به.

نجد ثَبْتًا طويلاً من أسماء اللامعين بعضها في الإحاطة لابن الخطيب وفي نفح الطيب للمقري، كما أُنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل ناحية، وتوفرت

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٠٩، ٥١٠، وأزهار الرياض، ١/ ٥٣- ٥٥.

(٢) انظر في أصل «مشيخة الغزاة» ودورها: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٣٦٦، ٣٦٧، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٥٢- ٤٥٤.

الاختراعات؛ من مثل: المدافع التي ترمي نوعًا من المحروقات، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة، وانتقلت عنهم إلى أوربا [١]، وما يزال متحف مدريد الحربي يحفظ حاليًا البنادق التي استعلمها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة.

وفي الصناعات ازدهرت أنواع كثيرة؛ فقد كانت هناك صناعة السفن، ثم الأنسجة، وصناعة الورق والفخار المذهب العجيب [٢]، وأنتجت الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود، وصناعة الحلي، والصناعات الفنية الدقيقة.

كذلك برزت بالزراعة ووسائل الري والعناية بها وأنواع المزروعات.

ثم الجانب العمراني المتمثل في المباني المختلفة؛ كالمساجد، والقصور، والدور، والقناطر، وقصر الحمراء الذي ما زال باقيًا، مزينًا بالنقوش التي تدل على فنية ماهرة رائعة، كذلك المباني الحربية المتعددة.

وكان للتنظيمات المختلفة في المجتمع والدولة دورها وأهميتها، فقد غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومبانيها ومرافقها المتنوعة، وكانت تضم حوالي مليون نفسٍ، وتُصَدِّر كثيرًا من الصناعات إلى عدة بلدان؛ منها الأوربية.

وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوربية في بعض المسائل الأخرى المعنوية، فانتفعت – إلى حدٍّ – بالفروسية التي كانت لها الحفلات الرائعة المتفننة، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة والأعراف.

***

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢١١، وما بعدها.
(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٤/ ٢١٨.

الفصل الخامس

اتحاد الممالك النصرانية

وقبل الحديث عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ مملكة غرناطة الإسلامية، لا بُدَّ أن نقف سريعًا أمام هذا العامل المهم الذي كان سببًا في الاحتضار السريع لآخر دول المسلمين في الأندلس، وهذا العامل هو اتحاد المملكتين النصرانيتين قشتالة وأراجون، بعد أن كانتا مملكتين مختلفتين متخاصمتين؛ تحارب كل منهما الأخرى وتعمل على القضاء عليها، بالرغم مما كان يربطهما من وحدة الدين والجنس، واشتراكهما -أيضًا- في عدد من الأهداف، والتي كان أهمها على الإطلاق هو القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ خوفًا من أن يستحوذ على شبه الجزيرة ثانية كما حدث من قبل، فيقضي بذلك على سلطانهما، الذي يعملان على توطيده، ولو على حساب بعضهما البعض.

وقد ظهرت بوادر هذا الاتحاد سنة (٨٧٩هـ= ١٤٧٤م) عندما توفي هنري الرابع ملك قشتالة، فثارت بذلك حول تولي العرش مشكلة دقيقة، وهي أن هذا الملك لم يترك سوى ابنة صغيرة هي خوانا (چنة)، ولكنَّ نَسَبَها إليه مع ذلك كان موضع شكٍّ، وكانت تُنسب إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دي لاكويڤا؛ ولذلك كان اسمها الشائع خوانا بلترانيخا، وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء، في حين كانت الأميرة إيزابيلا أخت الملك هنري على العكس من ذلك، فكانت تتمتع بعطف الشعب القشتالي، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء؛ حتى إن

أخاها الملك هنري قد اعترف بحقها في العرش، وأيد الكورتيس (مجلس النواب القشتالي) أحقيتها بالعرش عقب وفاة أخيها ألفونسو سنة (١٤٦٨م)؛ ولذلك لم يكن ثمة لبس في أحقية هذه الأميرة في تولي عرش قشتالة خلفًا لأخيها.

وكانت إيزابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام بابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني ابن الملك خوان الثاني ملك أراجون، وقصة هذا الزواج أن الأنظار كانت تتطمح إلى إيزابيلا مذ كبرت؛ للاحتمالات القوية التي كانت تؤهلها لعرش قشتالة، وكان خوان الثاني ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو؛ لما كان بين العائلتين المالكتين من أواصر القربى الوثيقة، ولأن ذلك سيقرب بالطبع سبل الاتحاد بين المملكتين؛ ولذلك كان فرناندو أول المتقدمين لخطبة إيزابيلا، ولكن أخاها الملك لم يرضَ عن اقتران فرناندو بأخته، وكان ينافس فرناندو في خطبة إيزابيلا عدد من الأمراء والنبلاء الطامعين في عرش قشتالة، مثل الأمير فرناندو الأرجوني؛ وكان من هؤلاء ألفونسو ملك البرتغال وكبير فرسان قلعة رباح، وقد وافق الملك هنري على أن ترتبط أخته بكبير فرسان قلعة رباح، إلا أن الأميرة كان لها رأي آخر؛ إذ إنها آثرت بعد إمعان النظر أن تقبل خطبة ابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني؛ للبواعث نفسها التي جعلت أباه يحرص على هذه الزيجة، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكي واحد، ووضعت شروط هذا الزواج بين الفريقين سرًّا؛ نظرًا لمعارضة الملك هنري لهذه الزيجة، فكان من هذه الشروط أن يتعهد فرناندو باحترام قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقرَّ إقامته في قشتالة، وألا يغادرها دون إذن إيزابيلا، وألا يتخذ أية قرارات أو تعيينات في المملكة دون إذنها. وتعهد بالأخص بمتابعة الحرب ضد المسلمين.

وفي أكتوبر سنة (١٤٦٩م) الموافقة سنة (٨٧٤هـ) عُقد الزواج في مدينة بلد الوليد -حيث كانت تقيم إيزابيلا في ذلك الوقت- في حفل خاص لم يشهده سوى

قليل من الأصدقاء، ثم أخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج برسالة تشرح فيها بواعث إقدامها على ذلك.

وأُعلنت إيزابيلا في ديسمبر (١٤٧٤م) عقب وفاة أخيها هنري ملكة لقشتالة وليون في بلدة شقوبية؛ حيث كانت تُقيم آنذاك، ودخلت مدن أخرى في طاعتها، ولكن الأمر لم يكن سهلاً؛ لأن ثمة فريق من النبلاء كان يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى، كما كان زوج إيزابيلا الأمير فرناندو الأرجوني يطمع هو الآخر في انتزاع العرش لنفسه؛ باعتباره آخر الأبناء من الذكور لعائلة قشتالة المالكة، ولكن إيزابيلا تمسكت بحقها، واتفقت مع زوجها على مزاولة الملك المشترك؛ فتكون إيزابيلا ملكة أصلية لقشتالة لها الرأي الأول في الأمور الجليلة، في حين يجري القضاء وتُسك العملة باسميهما.

وكان خصوم إيزابيلا في ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طُلَيْطلَة قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس على تأييد سعيهم في تنصيب خوانا ملكة لقشتالة، وهي ابنة أخت ألفونسو الخامس، فغزا ملك البرتغال في مايو سنة (١٤٧٥م) أراضي قشتالة، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة، وبادر فرناندو وإيزابيلا بالسير في قواتهما إلى لقائه، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة، فهُزم القشتاليون في البداية، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر، وانتهى بانتصار القشتاليين.

وهكذا استقر الملكان على العرش بلا منازع، وفي سنة (١٤٧٩م) توفي خوان الثاني ملك أراجون، فتولى ابنه العرش من بعده، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان في ظلّ عرش واحد بعد أن فرّقت بينهما المنافسات والصراعات أحقابًا.

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكي -إلى جوار تمتعه بالقدرة الفائقة

في الإدارة والسياسة والحرب- أميرًا لا وازع له، يجنح في سياسته إلى الغدر ومجانبة الوفاء، وكان رجل الفرصة السانحة، يلتمس إلى تحقيق أطماعه الكبيرة أيَّ الوسائل؛ مهما ابتعدت عن المبادئ الأخلاقية المقررة ومقتضيات الفروسية والوفاء، كما ظهر ذلك من قبل في سيرته، وكما سيظهر من بعد في تصرفاته ومعاملته للأمة الأندلسية المغلوبة.

وكانت زوجه الملكة إيزابيلا تتمتع بكثير من الذكاء والعزم، وكانت تُثير برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالي وإعجابه؛ بيد أنها كانت تجيش بنزعة صليبية عميقة تذهب كثيرًا مذهب التعصب الأعمى، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم، وكان مشروع القضاء على الإسلام في الأندلس يُذكي في نفس هذه الملكة الصليبية (التي تُنعت -أيضًا- بالكاثوليكية) أشنع ضروب التعصب، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسباني، أو ما عُرف خطأً بمحاكم التفتيش، فكانت تقرُّ كل ما جنح إلى ارتكابه هذا الديوان من الجرائم باسم النصرانية.

وفي الوقت الذي استقر الملك فيه للملكين الكاثوليكيين تحت راية إسبانيا الموحدة القوية، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة من الحروب الأهلية، وإهمال أميرها أبو الحسن علي بن سعد بن الأحمر لشئون دولته، وركونه إلى الراحة والدعة، وسعيه خلف ملاذِّه -إلى مرحلة خطيرة من الضعف والتمزق؛ لذلك فما أن استقر الأمر للملكين الكاثوليكيين حتى أشهرا الحرب على المملكة الإسلامية؛ ليبدأ هذا الفصل المؤسِّي من حياة المسلمين في الأندلس [1]

* * *

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٨٠ - ١٨٥، بتصرف.

الفصل السادس

الصراع في غرناطة (١)

قبل السقوط بست وعشرين سنة تقريبًا، وفي سنة (٨٧١هـ= ١٤٦٧م) كان يحكم غرناطة في ذلك الوقت رجل يُدعى علي بن سعد بن محمد بن الأحمر، والذي كان يُلَقّب بالغالب بالله على عادة ملوك الغرناطيين(٢)، وكان له أحد الإخوة يُعرف بأبي عبد الله محمد الملقب بالزغل (الزغل يعني الشجاع)، فكان الأول غالب بالله، وكان الثاني زغلاً أو شجاعًا.

وكما حدث في عهد ملوك الطوائف اختلف هذان الأخَوان على الحُكم، وبدآ يتصارعان على مملكة غرناطة الهزيلة الضعيفة، والمحاطة في الشمال بمملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين.

وكالعادة -أيضًا- استعان أبو عبد الله محمد الزغل بملك قشتالة في حرب أخيه

(١) ينبغي أن نسجل هنا شكرًا بالغًا للمجهود الرائع الذي بذله الأستاذ محمد عبد الله عنان في التأريخ لهذه الفترة، وهو يُعَدُّ مصدرًا رئيسًا لها، فهذه الفترة تعاني ندرة في المصادر العربية، وقد بذل الأستاذ عنان جهدًا مبكرًا في جمع وتحليل الروايات القشتالية والإفرنجية المتاحة، كما قد عثر على وثائق كثيرة في شكل مخطوطات عربية وإفرنجية في رحلاته لإسبانيا والمغرب، وغيرها من المدن الأندلسية القديمة والمغاربية أيضًا، ولا يكاد يخلو كتاب -أرّخ لهذه الفترة بعدَه- من الاعتماد على ما أتى به.

(٢) كان محمد بن يوسف بن نصر مؤسس هذه الدولة بغرناطة يلقب أيضًا بـ «الغالب بالله»، وهكذا كان أبو عبد الله محمد بن علي آخر ملوك غرناطة، والذي عُرف في التاريخ الإسباني من بعد بـ« الملك الصغير»، وكان يُلقب بـ « الغالب بالله»، ويُعلق الأستاذ محمد عبد الله عنان على ذلك بقوله، ٧/ ٢٨٨: «وهي شعار سائر ملوك غرناطة».

الغالب بالله، وقامت على إثر ذلك حرب بينهما، إلا أنها قد انتهت بالصلح، لكنهما -ويا للأسف- قد اصطلحا على تقسيم غرناطة إلى جزء شمالي على رأسه الغالب بالله وهي الولاية الرئيسة، وجزء جنوبي وهي مالقة ومعها بعض الولايات الأخرى، وعلى رأسها أبو عبد الله محمد الزغل[1].

وبعد هذا التقسيم بثلاثة أعوام، وفي سنة (٨٧٤هـ= ١٤٦٩م) يحدث أمر غاية في الخطورة في بلاد الأندلس، فقد تزوَّج فرناندو الخامس ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة؛ وبذلك تكون الدولتان قد اصطلحتا معًا، وأنهتا صراعًا كان قد طال أمده، ولم يأتِ عام (١٤٧٩م) إلاَّ وكانت المملكتان قد توحدتا معًا في مملكة واحدة هي مملكة إسبانيا، وكانت هذه بداية النهاية لغرناطة.

غرناطة وصراع أُسَري في ولاية الغالب بالله:

على الجانب الآخر كانت غرناطة في ذلك الوقت سنة (٨٧٩هـ= ١٤٧٤م) منقسمة إلى شطرين؛ شطر مع الزغل، والآخر مع الغالب بالله، وفي هذه الأثناء حدث سيل عظيم في غرناطة، «ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ ملك الأمير أبي الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاض؛ وذلك أنه اشتغل باللذات والانهماك في الشهوات واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والغفلات، وضيع الجند وأسقط كثيرًا من نجدة الفرسان، وثقّل المغارم وكثّر الضرائب في البلدان، ومكّس الأسواق ونهب الأموال، وشحّ بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك، وكان للأمير أبي الحسن وزير يُوافقه على ذلك، ويظهر للناس الصلاح والعفاف، وهو بعكس ذلك... فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا، وهجر ابنة عمه وأولادها منه... فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مشتغل باللذات منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها، ويجمع

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٩٤.

الأموال ويأتيه بها، ويعطيها لمن لا يستحقها، ويمنعها عمن يستحقها، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم، وأكلوا أثمانها وقتل كثيرًا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها، ولم يزل الأمير مستمرًّا على حاله والجيش في نقص، والملك في ضعف، إلى أن انقضى الصلح الذي كان بينه وبين النصارى، فلم يشعر بهم أحد حتى دخلوا مدينة الحمة...»[1].

كان السلطان الغرناطي قد ركن إلى الخلافات التي نشبت بين رؤساء النصاري، وما وقع بينهم من حروب؛ «فبعضهم استقل بملك قرطبة وبعض بإشبيلية، وبعض بشريش، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات، وركن الى الراحات، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد، والنظر في الملك ليقضي الله تعالى ما شاء، وكثرت المغارم والمظالم، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه، وكان -أيضًا- قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعدُ البلاد، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد، واتُّفق أن صاحب قشتالة تَغَلَّب على بلادها بعد حروب، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد»[2].

كان الغالب بالله الذي يحكم غرناطة متزوجًا من امرأة تُدعى عائشة، وقد عرفت في التاريخ بعائشة الحرة، وكانت له جارية نصرانية تُسمى ثريا قد فُتن بها وغرق في عشقها[3]، «فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا، وهجر ابنة عمه وأولادها منه، فأدرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٤٥- ٥٠.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١١، ٥١٢.
(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠٠.

أزواجهن، ووقع بينهما نزاع كثير، وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما، وغلظت العداوة بينهم، وكان الأمير أبو الحسن شديد الغضب والسطوة؛ فكانت الأم تخاف على ولديها منه، فبقيت الحال كذلك مدة، والأمير مشتغل باللذات منهمك في الشهوات... وفي هذا اليوم (٢٧ جمادى الأولى ٨٨٧هـ) بلغ الخبر لمن كان في لوشة أن ابني الأمير أبي الحسن محمدًا ويوسف هربا من القصبة خوفًا من أبيهما؛ وذلك أن شياطين الإنس صاروا يوسوسون لأمهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما، ويغوونها مع ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية ثريا من الشحناء، فلم يزالوا يغوونها حتى سمحت لهم بهما، فاحتالت عليهما بالليل، وأخرجتهما إليهم، وساروا بهما إلى وادي آش، فقام أهل وادي آش بدعوتهما، ثم قامت غرناطة -أيضًا- بدعوتهما، واشتعلت نار الفتنة ببلاد الأندلس، ووقعت بينهم حروب وكوائن أعرضنا عن ذكرها لقبحها؛ لأن الآمر آل بينهم إلى أن قتل الوالد ولده، ولم تزل نار الفتنة مشتعلة وعلاماتها قائمة في بلاد الأندلس والعدو -دمره الله- مع ذلك كله مشتغل بحيلته في أخذ الأندلس، إلى أن ساعده الزمان ووافقته الأقدار»[1].

ويعرض لنا الأستاذ محمد عبد الله عنان هذا الأمر في أسلوب قصصي شائق مستعينًا فيه بالروايات العربية والقشتالية، فيقول: «تحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة -في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية- شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التي تذكرنا خلالها البديعة ومواقفها الباهرة، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف...كانت عائشة الحرة ملكة غرناطة في ظلِّ مُلك يحتضر، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض،... وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٤٦-٦٢، وانظر أيضًا: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٢-٥١٤.

يئول الملك إلى ولدها، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع؛ ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة، واسترسل في أهوائه وملاذه، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحُسن، تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا» الرومية، وتقول الرواية الإسبانية: إن ثريا هذه واسمها النصراني إيسابيلا... فهام بها السلطان أبو الحسن، ولم يلبث أن تزوجها، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة، التي عُرفت عندئذ بـ«الحرة»؛ تمييزًا لها عن الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها... وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذٍ، وأثقلته السنون، وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء، وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة، التي تجوزها المملكة الإسلامية عاملاً جديدًا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة.

وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ؛ ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين؛ هما: سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما، وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك على عقب الجارية النصرانية، ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش أمنع أبراج الحمراء، وشدد في الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة. فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء، الذين يؤثرون الأميرة

الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي، وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين؛ فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته، واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد، واشتدَّ السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ. وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حدٍّ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله عثرة آمالها. وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم... بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة، وأخذت تُدَبِّر معهم وسائل الفرار والمقاومة؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط. ويقال: إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء. ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة، وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧هـ=١٤٨٢م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف... وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجريء تثير أيما عطف وإعجاب، وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيدًا عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة»[1].

فرناندو الخامس واستغلال النزاع والفرقة:

حيال هذا الوضع الذي آل إليه حال المسلمين في الأندلس استغل فرناندو الخامس هذا الموقف جيدًا لصالحه، وبدأ يهاجم حصون غرناطة؛ حيث كان يعلم أن

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/١٩٦-٢٠١

هناك خلافًا وشقاقًا كبيرًا داخل البلد، فدارت المعارك بين المسلمين والقشتاليين على أكثر من جبهة، استطاع المسلمون الانتصار في بعضها، وانهزموا في البعض الآخر، وهذه الهزائم لم تكن لقوة عدوهم بقدر ما كانت للضعف الذي كان قد وصلت إليه مملكتهم، نتيجة لاستمراء أميرهم لحياة الدعة والراحة، أما الشعب فإنه كان متحفزًا للدفاع عن نفسه تحفزًا كبيرًا، ثم تتابعت الأحداث، إذ قامت ثورة وضعت أبا عبد الله محمدًا في السلطة، وفرَّ أبوه إلى الزغل في مالقة، وهناك ومن مالقة كان الزغل يدفع النصارى عنها أشد دفاع، واستطاع -بعون الله- رد النصارى بعد هزائم شديدة مريرة، فقدوا فيها الكثير ومنهم بعض زعمائهم، كما فقدوا فيها الكثير من العُدد والآلات، فنشط أبو عبد الله هو الآخر لغزو النصارى، وغزاهم بالفعل واستطاع أن ينتصر عليهم... وأن يتوغل في بلادهم، وأثناء عودته من هناك محملاً بالغنائم، قطع عليه النصارى طريق عودته، ودارت بين الفريقين معركة قرب إلياسنة هُزم فيها المسلمون، وأُسر ملكهم أبو عبد الله محمد الصغير[(١)].

وبعد أَسْر الصغير عاد أبوه الزغل لحكم غرناطة، فأصبحت من جديد إمارة واحدة تحت حكم الزغل، غير أن المرض كان قد هدَّه وذهب ببصره؛ إذ أُصيب بمرض شبه الصرع، وأصيب في بصره، وأصابه خدر في جسده، وعاقبه الله تعالى بأنواع من البلاء؛ فتنازل عن الملك لأخيه محمد بن سعد، وحُمل إلى مدينة المنكب فأقام بها حتى مات[(٢)].

وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده، لا بباعث الحب له

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٥٠-٦٧، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٢-٥١٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠١-٢٠٣، ومحمود علي مكي: التاريخ السياسي للأندلس ص١٣٤، منشور في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي.

(٢) مجهول: نبذة العصر ص٦٧، ٦٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٠٤.

والشفقة عليه، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يُطلق عددًا من أكابر النصارى المأسورين عنده، فأبى فرناندو، وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين، وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهودًا آخر لإنقاذ ولدها، بمؤازرة الحزب الذي يناصره، وأرسلت إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة؛ ليفاوض في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاها، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي: أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزيةً سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلا من الذهب، وأن يُفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة يختارهم ملكهم، ثم يطلق بعد ذلك كل عام سبعين أسيرًا لمدة خمسة أعوام، وأن يُقَدِّم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضمانًا بحسن وفائه. وتعهَّد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عن أبي عبد الله فورًا، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه المدن متى تم فتحها، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير»[1].

ملك إسبانيا والتداعي على باقي القصعة:

كان على الساحة الآن «الصغير» ومعه ولاية غرناطة، والزغل ومعه وادي آش، ثم ملك إسبانيا وتحت قبضته مالقة، واستكمالاً لآمال كان قد عقدها قديمًا، وفي سنة (٨٩٥هـ= ١٤٩٠م) انطلق ملك إسبانيا من مالقة إلى ألمرية على ساحل البحر المتوسط، واستولى على كل ما في طريقه إليها من مدن وحصون، ثم تمَّ تسليم ألمرية

(١) محمد عبد الله عنان في دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

له بعد ذلك، وقد دافع المسلمون عن مدنهم أشد دفاع وأسناه، ولكن فارق الإمكانيات لم يساعدهم، ولم يحل شيء دون وقوع المصير المحتوم(١).

ثم منها توجه إلى وادي آش (التي هي في يد الزغل) فاستولى عليها، بعد أن رأى الزغل أنه قد أحيط به، وأنه ما عاد يستطيع الدفع عن بلاده، وبعد أن استنجد بمن استطاع الاستنجاد به من ملوك المسلمين(٢).

كان الوضع الآن أن حوصرت مدينة غرناطة وكل قراها ومزارعها من كل مكان بجيوش النصارى، أحاطوها من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، وكان كما قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن. قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(٣).

فقد تداعت ملوك النصارى حول مملكة غرناطة الصغيرة والضعيفة جدًّا في ذلك الوقت، واستولى ملك إسبانيا (قشتالة وأرجون متحدتين) على برجين: برج ملاحة غرناطة، وبرج قرية همدان، وكانا برجين كبيرين حصينين، فزادهما تحصينًا وشحنهما بالرجال، وما يحتاج إليه من آلة الحرب؛ ليضيق على أهل غرناطة؛ لأنهم كانوا قريبين منهما، فضيَّق بذلك عليهم أشدَّ الضيق.

وفي أول عام (٩٨٥هـ= ديسمبر ١٤٨٩م) وحسبما تُشير بعض الوثائق، تم

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٩٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٢، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢) مجهول: نبذة العصر، ص٩٩- ١٠١، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٢، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٧، ٢٢٨.
(٣) أبو داود: كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام (٤٢٩٧)، وقال الألباني: صحيح.

صلح جديد، «حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبي عبد الله نفسه في المحرم سنة ٨٩٥هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩)، وهي عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر، وفيه يُنَوِّه أبو عبد الله بهذا (الصلح السعيد) المعقود لعامين، ويدعو إلى الدخول فيه... وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصَّلة، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله قد تعهد في هذا الصلح بأن يُسَلِّم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين، متى تمَّ تسليم بسطة وألمرية ووادي آش. وعلى أي حال ففي فاتحة سنة ١٤٩٠م (أوائل صفر ٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبي عبد الله سفارة لتخاطبه في موضوع التسليم... ولم يطلب (ملك قشتالة) تسليم غرناطة ذاتها، ولكن طلب تسليم مدينة الحمراء مقر الملك والحكم.

فماذا كان جواب أبي عبد الله؟

لقد كان في سابق مواقفه ما يحمل الملكين الكاثوليكيين على توقُّع استسلامه وخضوعه، ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان؛ إذ أرسل إليهما القائد أبا القاسم المليح برسالة (بتاريخ ٢٩ صفر سنة ٨٩٥هـ= ٢٢ يناير سنة ١٤٩٠م)؛ وبالرغم من اللهجة المهذبة المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة التي اختتمت بها الرسالة، فقد كان فحواها هو الرفض. لكن الملكان الكاثوليكيان أصرَّا على طلبهما، فاعتزم أبو عبد الله أن يشهر عليهما الحرب، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث. فأرسل وزيره يوسف بن كُماشة ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة، له علائق طيبة مع النصارى يدعى إبراهيم القيسي إلى الملكين الكاثوليكيين في إشبيلية؛ لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما، ولكنهما عادا خائبين، وعلى ذلك استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى.

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الموقف الجديد من جانب أبي عبد الله؛ أجل كانت

الخطوب والمحن التي جازتها الأندلس في هذه الأعوام المليئة بالحوادث، قد جعلت من أبي عبد الله رجلاً آخر، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعًا، ويستشف من ورائها القدر المحتوم، وكان قد تخلَّص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوي، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة، وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائيًّا من أملاك مملكة قشتالة، وعيّن لها حكام من النصارى، وتدجن مَن بقي من أهلها، أو غدوا مدجَّنين يدينون بطاعة ملك النصارى، وذاعت بها الدعوة النصرانية، وارتد كثير من المسلمين حرصًا على أوطانهم ومصالحهم، أو اتقاء الريب والمطاردة، ولكن كثيرًا منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم جازوا البحر إلى المغرب.

وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقي؛ حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد، وحتى أصبحت تضمُّ بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس، وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف، التي أوذيت في الأوطان والأنفس والولد والمال، دون أن تجني ذنبًا أو جريرة، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغي أو مهادنته تلقى استنكارًا عامًّا، ولم يكن أبو عبد الله يجهل هذا الاتجاه العام، فلما وفد إليه سفيرا ملكي قشتالة في طلب التسليم، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجني، وأدرك -وربما لأول مرة- فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعونته على بني وطنه ودينه، ولما أصرَّ فرناندو على تجنيه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة، فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة بأنه لم يَعُدْ له القول والفصل في هذا الأمر، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسليم أو مهادنة، ويُصَمِّم على المقاومة والدفاع. هكذا كان جواب أبي عبد الله لملكي قشتالة، وهكذا حمل الأمير الضعيف -بعزم

شعبه- من الاستكانة والمهادنة إلى التحدي والمقاومة»[١].

وما أن علم ملك قشتالة بامتناع أبي عبد الله عن التسليم ذهب إلى غرناطة، وحاصرها، فحاربه المسلمون وبرز إليه الأمير أبو عبد الله محمد، وصمد المسلمون في وجه الطاغية صمودًا بطوليًّا رده -بفضل الله- خائبًا خاسرًا إلى بلاده، وما أن ذهب حتى بدأ المسلمون بقيادة أبي عبد الله يغزون البلاد النصرانية المحيطة، ويساعدون الثوار المسلمين في البلاد التي استولى عليها النصارى قريبًا، وقد استطاعوا بالفعل الاستيلاء على عدد من الحصون والمدن القريبة والمهمة، ثم عاد الطاغية لمحاصرة غرناطة، ورده الله دون أن ينال منها شيئًا، ورجع المسلمون لغزواتهم، وهكذا حتى جاءهم الطاغية محاصرًا للمرة الثالثة، وكله تصميم على ألا يرحل هذه المرة عن غرناطة إلا بعد فتحها، ولعل أحد أسباب تصميمه هذا هو خوفه من هذا النشاط الذي ظهرت به غرناطة في فترتها الأخيرة، على أن غرناطة لم تستسلم لهذا الحصار، وعملت على كسره ضاربة بذلك أروع أمثلة البطولة والفروسية، بل كانت سرايا المسلمين تخرج للعيث في البلاد النصرانية القريبة[٢].

---

(١) مجهول: نبذة العصر، ص١٠٢، ١٠٣، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٣. ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٩- ٢٣٢، ونقلنا عن هذا المصدر الأخير باختصار.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص١٠٣- ١١٧، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٣، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٣٢-٢٣٦.

الفصل السابع

حركة الجهاد قبيل سقوط غرناطة

برز في هذا الحصار الأخير داخل غرناطة حركة جهادية بارزة على رأسها رجل يُسمى موسى بن أبي غسَّان، فكان أن حرَّك الجهاد في قلوب الناس، وبدأ يُحَمِّسهم على الموت في سبيل الله، وعلى الدفاع عن بلدهم وهويتهم، فاستجاب له الشعب وتحرك للدفاع عن غرناطة[1].

وطيلة سبعة أشهر كاملة ظل أصحاب الانتفاضة في دفاعهم عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وإليك طرفًا من هذا الصمود يحكيه الفارس المعاصر صاحب كتاب نبذة العصر:

«رجع ملك قشتالة إلى فحص غرناطة، ونزل بمحلته بقرية عتقة، ثم شرع في البناء، فبنى هنالك سورًا كبيرًا في أيام قلائل، وصار يهدم القرى، ويأخذ ما فيها من

(١) يقول الأستاذ عنان: «لم نعثر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندي، الذي يقول: إنه نقل روايته عن مصادر عربية. ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر، وأشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني -في رحلته- إلى من يُدعى (موسى أخا السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة) (رحلة الوزير المنشورة بعناية معهد فرانكو ص١٣)... وقصة موسى تشغل حيزًا كبيرًا في الروايات الإسبانية... ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية، ولكن لأنها تقدم لنا صورًا رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم». انتهى كلام الأستاذ عنان دولة الإسلام في الأندلس (هامش) ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨. والحقيقة أننا لا نتوقع أن تؤلف المصادر الإسبانية شخصية إسلامية تقود دفاعًا رائعًا عن غرناطة، بل الأقرب إلى التوقع أن توجد حركة صحوة ودفاع وجهاد قبيل فترة السقوط، وهي الحركة التي تُعَدُّ من طبائع الناس جميعًا، ولا شك أن ندرة المصادر العربية عن هذه الفترة تمثل عنصرًا سلبيًّا في مثل هذه اللحظات التاريخية، فلا نجد -لملء الفراغ- إلا أن نستنطق الرويات الأخرى ونستخدم التوقع والترجيح.

آلة البناء، ويجعله على العجل، ويحمله إلى ذلك البلد الذي بناه، ويبني به، وهو مع ذلك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالاً شديدًا، وحارب ملك الروم -أيضًا- أبراج القرى الدائرة بغرناطة وأخذها، ولم يبق إلا قرية الفخار، فلم يزل يُلِحُّ عليها ويجلب عليها بخيله ورجله، ويطمع أن يجد فرصة فلم يقدر على شيء، حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم، ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى؛ لأن المسلمين كانوا يُلِحُّون على حمايتها خوفًا من أن يملكها الروم؛ فتكون سببًا في إخلاء قرى الجبل وحصار البلد، فلم يزالوا يدافعون عنها ويقاتلون مَنْ قصدها؛ حتى قصر عنها العدو؛ لكثرة ما قُتل له عليها من خيل ورجال.

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم؛ تارة في أرض الفخار، وتارة في أرض بليانة، وتارة في أرض رسانة، وتارة في أرض طفير، وتارة في أرض يعمور، وتارة في أرض الجدوى، وتارة في أرض رملة أفلوم، وتارة في أرض الربيط، وتارة وادي منتشيل، وغير ذلك من المواضع التي على غرناطة، وفي كل ملحمة من هذه الملاحم يثخن كثير من أنجاد الفرسان بالجراحات من المسلمين، ويستشهد آخرون، ومن النصارى أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون، واثقون بنصر الله تعالى، يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلوب صافية، ومع ذلك يمشي منهم الرجال في ظلام الليل لمحلة النصارى، ويتعرضون لهم في الطرقات، فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم ورجال، وغير ذلك حتى صار اللحم بالبلد من كثرته: رطل بدرهم.

ومع ذلك لم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى، والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين سبعة أشهر، إلى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل، ولم يبقَ منها إلا القليل، وفني -أيضًا- كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات»[1].

(١) مجهول: نبذة العصر ص١١٧ وما بعدها.

إلاَّ أن البسالة وحدها لا تكفي في ظلٍّ وضع كهذا؛ إذ المسلمون محاصرون داخل المدينة ولا يمكنهم الحصول على الإمدادات، فيما النصاري يحاصرونهم من الخارج، وخطوط الإمدادات مفتوحة من بلادهم، ولا سيما أن الحرب دفعت بكثير من الغرناطيين إلى الخروج من البلدة، بما انتهبها من الخوف والفزع، وتبعات الحرب المتواصلة، فظلت غرناطة تضعف شيئًا فشيئًا، ثم لما دخل فصل الشتاء ونزلت الثلوج أصابت طريق البشرة -الذي كانت الأطعمة تأتي عبره إلى غرناطة- فقل الطعام عند ذلك في أسواق المسلمين في غرناطة، واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرًا من الناس وكثر السؤال.

وهنا لم يكن أمام الغرناطيين إلا التسليم بالأمان، فذهب جمع منهم إلى ملكهم محمد؛ طالبين منه أن يفاوض ملك قشتالة على التسليم بالأمان، وقد أورد صاحب نبذة العصر ما يُفيد بأن التسليم كان رغبة قائمة في نفس محمد الصغير من قبل، إلاَّ أنه خاف من العامة، فكان يُراسل ملك قشتالة سرًّا، ولهذا قطع ملك قشتالة الحرب فترة، وبقي على ما هو فيه من الحصار والتشديد، منتظرًا جهود محمد الصغير في إقناع العامة بالتسليم بالأمان، فلما أثمرت جهوده مع العامة، وذهب وفدهم إليه، سارع مستجيبًا لهم، ثم سارع مرسلاً وزراءه إلى ملك قشتالة، الذي سارع بدوره بالقبول[1].

ونحن نذهب إلى قبول هذه الرواية وترجيحها، لا سيما وأن سيرة ملك غرناطة وطبيعة وزرائه تدفعنا لإساءة الظن بهم، ثم وجدنا الأستاذ محمد عبد الله عنان يوافق هذه الرواية -بعدما كان يرتاب فيها- لما ظهر من وثائق فيما بعدُ؛ أفادت بأن مساعيَ كانت تُبْذَل في الخفاء لتحقيق ما يمكن من الضمانات والمغانم الخاصة لأبي عبد الله وأسرته ووزرائه، فعُقدت معاهدة سرية مُنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه منحًا خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها، هذا بخلاف الأملاك التي

(١) مجهول: نبذة العصر ص١٢١ وما بعدها.

كانوا يملكونها وتصرفوا فيها بالبيع، منذ بدأت الحوادث تتجهم في غرناطة[١].

واستقرَّ الأمر على تسليم غرناطة بالأمان، يروي المقري فيقول: «ثم عددوا مطالب وشروطًا، أرادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش؛ منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود... وكانت الشروط سبعة وستين؛ منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدًا، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم... وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن مَنْ تَنَصَّر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قَتل نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٤٢.

النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره»[١].

موسى بن أبي غسان وعملية استشهادية:

في رد فعل طبيعي وصريح له حيال ما حدث وقف موسى بن أبي غسان رحمه الله في قصر الحمراء وقال: لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة مَلِكِهم؛ إن الموت أقل ما نخشى (يُريد أن هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله! لن أراه[٢].

يُريد موسى بن أبي غسان أنه لن يرى كل هذا الذُّل، الذي سيحل بالبلاد جراء هذا التخاذل والتقاعس، وأنه اختار الموت الشريف، ثم غادر المجلس وذهب إلى بيته ولبس سلاحه وامتطى جواده.

وانطلق يقابل سرية من سرايا النصارى، وبمفرده يقابل موسى بن أبي غسان خمس عشرة رجلاً من النصارى، فيقتل معظمهم، ثم يُقتل هو في سبيل الله رحمه الله [٣].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٤- ٥٢٧، وانظر: مجهول نبذة العصر ص١١٩ وما بعدها، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق، ٧/ ٢٥٥، ٢٥٦، وتنهي المصادر القشتالية حياة موسى بأنه انتحر، ونحن نستبعد هذا الاحتمال في سيرة مجاهد كهذه السيرة.

الفصل الثامن

سقوط غرناطة

كان مقتل موسى بن أبي غسان وتسليم ابن الأحمر الصغير غرناطة إيذانًا بانتهاء عصر الدولة الإسلامية في مملكة غرناطة.

أعطى أبو عبد الله محمد الصغير الموافقة بالتسليم للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا، ولم ينسَ أن يرسل إليهما بعضًا من الهدايا الخاصة[1]، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين[2]، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

وفي نكسة كبيرة وفي ظلِّ الذل والصغار يخرج أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير من القصر الملكي، ويسير بعيدًا في اتجاه بلدة أَنْدَرَش[3]، حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذاك المجد الذي قد ولَّى، وبحزن وأسى قد تبدَّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه «عائشة الحرة»: أجل؛ فلتبك كالنساء

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٢٦٠.

(٣) وهي البلدة التي كان قد قرر الإقامة فيها، أو أراد له فرناندو ذلك، انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٦٤.

مُلْكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال[(١)].

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل -الذي وقف عليه أبو عبد الله محمد الصغير- موجودًا في إسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأمَّلون موضع هذا المَلِك الذي أضاع مُلكًا أسسه الأجداد، ويُعرف (هذا التل) بـ «زفرة العربي الأخيرة»، وهو بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين ترك ملكه[(٢)].

وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، سنة ٨٩٧هـ= ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م[(٣)].

وقد هاجر بعدها أبو عبد الله محمد الصغير إلى بلاد المغرب، ويذكر المقري أنه استقر بفاس، وبنى بها قصورًا على طراز الأندلس، وأن المقري نفسه قد تجوَّل في هذه القصور، ورأى ذريته في فاس سنة (١٠٢٧م) يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين[(٤)].

فلعنة الله على هذا الذُّلِّ! ولعنة الله على هذا التَّرْك للجهاد! اللـذَيْنِ يوصلان إلى هذا المثوى وتلك المنزلة.

وما كان من أمر، فقد اندثرت حضارة ما عرفت أوربا مثلها من قبل؛ إنها حضارة الدنيا والدين، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم أجمع بسببها الكثير والكثير، وقد ارتفع علم النصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب، وأفل وإلى الآن نجم دولة الإسلام في بلاد الأندلس.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٧/ ٢٦٧.

(٣) نبذة العصر، ص ١٢٥، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٨- ٢٦٧.

(٤) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩.

وليت شعري، أين موسى بن نصير؟!

أين طارق بن زياد؟!

أين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر؟!

أين المنصور بن أبي عامر؟!

أين يوسف بن تاشفين؟!

أين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟!

أين يعقوب المنصور المُوَحدي؟!

أين يعقوب المنصور المريني؟!

أين كل هؤلاء؟!

غابوا وانقطعت آثارهم وإمداداتهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!

سقوط وضياع غرناطة.. العوامل والأسباب:

كانت عوامل انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدَّة في فترة غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا؛ وكان من هذه العوامل ما يلي:

العامل الأول:

كان الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدَّت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيرًا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١- ١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُلَّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة!

العامل الثاني:

ترك الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سُنَّة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزَّة ويموتون في عزَّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة ويُخلَّدون فيها.

وإن الناظر إلى عهد الأندلس ليتساءل: أين أولئك الذين كانوا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أين يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومَنْ كان على شاكلتهم حين ذُلُّوا وأُهينو لَمَّا تركوا الجهاد في سبيل الله؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨- ٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحوا بأرواحهم، ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تمامًا؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفي سلطان ومُلك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنة خالدين فيها بإذن الله.

العامل الثالث:

يتبع العاملَيْن السابقين عامل الإسراف في المعاصي؛ فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم ﷺ كُتب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»[1].

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فلا تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويُتوقّع بعد هذا؟!

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

- الفُرقة والتَشرذُم.

- موالاة النصارى واليهود والمشركين:

وقد قال ﷻ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال ﷻ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ

---

(١) أحمد (٣٨١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والطبراني: المعجم الكبير ٥/ ٤٤٩، والبيهقي: شعب الإيمان (٧٠١٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٦٨٧).

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. وآيات غيرها كثير.

- توسيد الأمر لغير أهله:

وكان ذلك واضحًا جدًّا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضًا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.

- الجهل بالدين:

وقد وضح جيدًا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوَّة بعد هذا العلم، ووضح - أيضًا- أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة، كان من ذلك - أيضًا- ما حدث من الجهل بأمر الشورى، وهو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها المسلمون، وكيف اعتدُّوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

ومثل ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيلية، وقد تبعه الناس في ذلك؛ ظنًّا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيُّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

* * *

الفصل التاسع

مصير المسلمين بعد سقوط غرناطة

كالعادة ولطبيعة جُبلت نفوسهم عليها -بعد أن ترك أبو عبد الله محمد الصغير البلاد- لم يوف النصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكَّروا لكلامهم والتزامهم بالحفاظ على الحريات الدينية في غرناطة، وحماية الأماكن المقدسة للمسلمين، وما إلى ذلك مما ورد في شروط تسليم المدينة، فقد أهانوا المسلمين بشدة، وصادروا أموالهم؛ وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة (١٠٥١م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمرًا كان خلاصته أنه لَمَّا كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة (المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم؛ خوفًا من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين تنصروا لئلاً يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو بمصادرة الأموال[1].

ومن هذا المنطلق قام النصارى بعدة أمور؛ كان منها:

أولاً: التنصير:

ولكي يعيش آخرون في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الإسبان، تَنَصَّر

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٢٤.

من المسلمين بعضهم[١]، وهؤلاء لم يرتضِ لهم النصارى الإسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سمَّوْهم بالمُورِسْكِيين؛ احتقارًا لهم، وتصغيرًا من شأنهم، فلم يكن المُورِسْكِي نصرانيًّا من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيرًا لهذا النصراني الأصيل[٢].

وقد نقل إلينا الدون لورنتي مؤرِّخ ديوان التحقيق الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية؛ تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة:

«يعتبر الموريسكي أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال: إن يسوع المسيح ليس إلهًا، وليس إلا رسولاً. أو أنَّ صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبَلِّغَ عن ذلك، ويجب عليه -أيضًا- أن يُبَلِّغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يُباشر بعض العادات الإسلامية؛ ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يُعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول: يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان، ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر -السحور- أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة؛ بأن يُوَجِّه وجهه نحو الشرق، ويركع

(١) انظر: نبذة العصر، ص١٣٠، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧.
(٢) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٤٥.

ويسجد، ويتلو سورًا من القرآن، أو أن يتزوج طبقًا لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يُقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب - الحناء - في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيده على رءوس أولاده أو غيرهم؛ تنفيذًا لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة، أو يدفنهم في أرض بكرٍ، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة واصفًا إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول: إنه لم ينصَّر إيمانًا بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين... إلخ(١).

ثانيًا: التهجير:

لم تخل البلاد الإسلامية من ثورات شعبية ومواجهات محدودة الإمكانيات بمنطق «حرب العصابات»، وكان المجاهدون يختبئون في الجبال والأودية والمناطق البعيدة، ثم يشنُّون غاراتهم على القوات الإسبانية، وقد نجحوا كثيرًا في إنزال خسائر مؤثرة بالإسبان، وقد اشتدت هذه الحركات لا سيما بعد قرار التنصير الذي اعتمدته إسبانيا، فزاد عدد الثائرين والمنحازين للمجاهدين، وقد عزم الإسبان في البداية على القضاء على الثوار، إلا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا، فلما يئسوا من القضاء عليهم، أصدروا عفوا عامًّا عنهم، وسمحوا لهم بالهجرة إلى بلاد المغرب، دون أن يأخذوا معهم غير الثياب التي كانت عليهم، أما الباقون فقد كان ثمة أمر ملكي بمنع الهجرة، ثم صدر الأمر بعد ذلك عام (١٦٠٩م) -أي بعد مائة سنة تقريبًا- بنفي الموريسكيين(٢).

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٤٦.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص١٣٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧، ٥٢٨، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٤٥.

ثالثًا: محاكم التفتيش وأهوال تشيب لها الولدان:

هدف الإسبان إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قُطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف، وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم، وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمُزِّقُوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة(١).

لم يقف الأمر عند حدِّ التهجير والتنصير، وإنما أعقب ذلك أن قام الكردينال الإسباني كمينس -وكان صليبيًّا حاقدًا- بحرق ثمانين ألف كتاب جُمعت من غرناطة وأرباضها في يوم واحد(٢).

ثم أنشأ الإسبان بعد ذلك ما سُمِّي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادَّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلاً يدَّعي النصرانية ويُخفي إسلامه، كأن يجدوا في بيته مصحفًا، أو يجدوه يُصَلِّي، أو كان لا يشرب خمرًا، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابًا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخًا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل، ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيًا، وأيضًا أحواض يُقَيَّد فيها الرجل، ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت،

(١) علي الصلابي: دولة الموحدين، ص٢٠٩.
(٢) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص٩٨، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣١٦.

وكانوا -أيضًا- يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكة وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا إسبانيا بعد ذلك، وقد صوَّروها في كتاباتهم، وعبَّروا عن شناعتها بأنهم كانوا يُصابون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذَّب بها بشر، وقد كان يُعذَّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله! [1].

ومما يُذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء العنيدات اللائي كن يشتمن رجال المحكمة؛ وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من القبور، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنها هي جنِّيَّة، لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتُترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجنَّ، أو تموت جوعًا ورعبًا[2].

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبقَ فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا مَنْ يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين! وكم فيها من الضعفاء والمعذورين! لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات،

---

(١) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص١٠٩-١١٣.
(٢) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص٩٨.

ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومَنْ فعل ذلك عوقب بأشدِّ العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَّها! ومصيبة ما أعظمها! وطامة ما أكبرها! (١).

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين؛ حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان، فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام، لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين؛ حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا، أو كان أحد عائلته كذلك؛ فيعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته(٢).

وكان دستور ديوان التحقيق (الاسم الرسمي لمحاكم التفتيش) يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم؛ لتحرق في موكب «الأوتودافي»، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده، فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة(٣).

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسومًا سنة (١٨٠٨م) بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل

---

(١) مجهول: نبذة العصر، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) الصلابي: دولة الموحدين، ص٢١١.

(٣) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٣٨.

إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية؛ كتب الكولونيل ليموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: «كنت سنة ١٨٠٩م ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ.

وصمم الرهبان الجزويت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين مسلحين قد هجما عليَّ؛ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعتُ إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ وقال: لا شك بأن مَنْ يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة..».

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عَنْوة، ثم يتابع قائلاً: «أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزازة، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه الغرفة من

الخشب المصقول المدهون بالشمع، وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئًا يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهمًا باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنتهِ حتى الآن؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئًا مريبًا؛ فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحدثني بأن السرَّ تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعتُ إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفًا، وقال لي: يابني؛ لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا؛ إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممدًّا بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين،

وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبُّوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجيًّا حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحًا، وهم يُقَبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، يُوضع فيه رأس الذي يُريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تُثَبَّت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزِّق جسم المعذب المسكين، وقطعه إربًا إربًا.

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ؛ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًّا، وسحقها سحقًا، وأمسكوا كاتم سرِّه وزفوه إلى السيدة الجميلة[1] وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شرَّ ممزق، ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا ثم أخذ ينهب ما بالدير[2].

***

(١) السيدة الجميلة هي آلة التعذيب التي بها السكاكين.
(٢) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص١٣٢ - ١٣٩.

الفصل العاشر

من علماء الحياة في غرناطة

الشريف الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠ هـ= ١١٠٠-١١٦٥م):

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية، ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة، ويعتبر الشريف الإدريسي- بحق- عمدة الجغرافيين المسلمين، فقد ترك لنا موسوعة جغرافية عظيمة هي كتابه الرائع: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

قام برحلات عديدة وتجوَّل في شبه الجزيرة الإسبانية، كما وصل إلى شواطئ فرنسا وإنجلترا الجنوبية، بعدها عبر البحر إلى المغرب وتجول في شماله وجنوبه، وعاش حينًا في مراكش، وحينًا آخر في قسنطينة[1]، ثم رحل إلى المشرق وتجوَّل في آسيا الصغرى، وكان لهذه الرحلات أكبر الأثر في تكوين معلوماته الجغرافية، التي مهدت لوضع مؤلفه الجغرافي الكبير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

انتهى المطاف بالإدريسي في جزيرة صقلِّية، وهناك استقبله ملكها «روجر الثاني» في بلاطه وأغدق عليه وكفله بالرعاية، حيث كان يسبق وصول الإدريسي إلى صقلِّية صيته كرحالة وكعالم جغرافي فذٌّ، وفي صقلِّية صمم الإدريسي خريطة للعالم هي الأدق والأفضل حتى وقت قريب.

(١) قسنطينة: مدينة شرق الجزائر.

ثم وضع مؤلفًا جغرافيًّا عامًّا يستعرض فيه العالم المعروف في ذلك الوقت، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها، وصورها، وبحارها وجبالها، ومزروعاتها وعللها، وما يذكر عنها من العجائب، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم، وأزيائهم ولغاتهم، وقد استغرق فيه خمسة عشر عامًا، وانتهى من وضعه سنة (٥٤٩هـ= ١١٥٤م).

وعن كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قال عنه الزركلي: وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربا وإيطاليا، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه[١]. وقالت عنه دائرة المعارف الفرنسية: إن كتاب الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب، وإن ما يحتويه من تحديد للمسافات ووصف دقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى.

وله أيضًا: الجامع لصفات أشتات النبات (في علم النبات[٢])، وروض الأنس ونزهة النفس، وأنس المهج وروض الفرج، وهذا بخلاف الكرة الفضية المرسوم عليها خريطة العالم.

توفي الشريف الإدريسي سنة (٥٦٠هـ= ١١٦٥م).

لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ=١٣١٣-١٣٧٤م):

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أسلافه يُعرفون ببني الوزير، وُلِدَ ونشأ بغرناطة، استوزره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (سنة ٧٣٣هـ) ثم ابنه (الغني بالله) محمد من بعده، وعظمت مكانته، ولكنه شعر بسعي حاسديه في الوشاية به، فكاتب السلطان عبد العزيز بن

(١) الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٤.
(٢) يبحث هذا الكتاب في ٥٦٠ نوعًا من النباتات، واعتمد عليه ابن البيطار، ولولا إنجاز الإدريسي العظيم في الجغرافي لعُدَّ من أهم علماء النبات.

علي المريني برغبته في الرحلة إليه.

وترك الأندلس خلسة إلى تلمسان، وكان السلطان عبد العزيز بها، فبالغ في إكرامه، وأرسل سفيرًا من لدنه إلى غرناطة بطلب أهله وولده، فجاءوه مكرمين، واستقر بفاس القديمة، قال عنه المقري: الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق المزري، عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك، ولا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام.

محنة ابن الخطيب:

لما مات عبد العزيز، وخلفه ابنه السعيد بالله، ثم خلع وتولى المغرب السلطان (المستنصر) أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده (الغني بالله) صاحب غرناطة مشترطًا عليه شروطًا؛ منها: تسليمه (ابن الخطيب)، فقبض عليه المستنصر، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسل وزيره ابن زمرك إلى فاس، فعقد بها مجلس الشورى، وأحضر ابن الخطيب، فوُجهت إليه تهمتا الزندقة، وسلوك مذهب الفلاسفة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأعيد إلى السجن، ثم دَسَّ له رئيس الشورى سليمان بن داود بعض الأوغاد -كما يقول المؤرخ السلاوي- من حاشيته، فدخلوا عليه السجن ليلاً، وخنقوه، وذلك في سنة (٧٧٦هـ= ١٣٧٤م)، ثم دفن في مقبرة (باب المحروق) بفاس.

ألَّف الكثير من الكتب القيمة التي تُعَدُّ مرجعًا خالدًا؛ منها: الإحاطة في أخبار غرناطة، الإعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، واللمحة البدرية في الدولة النصرية، ورقم الحلل في نظم الدول، وأعمال الأعلام، ومقنعة السائل عن

المرض الهائل، روضة التعريف بالحب الشريف، وعمل من طب لمن أحب، والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، والوصول لحفظ الصحة في الفصول، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، والكتيبة الكامنة، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ودرة التنزيل.. وغيرها من المؤلفات الجيدة[1].

ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ= ١٣٠٤-١٣٧٧م):

هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة، وُلِدَ في طنجة، عام (٧٠٣هـ= ١٣٠٤م)، ينتمي إلى قبيلة «لواتة»، وهي قبيلة بربرية كبيرة، كانت بطونها تنتشر على طول الساحل الإفريقي الشمالي من المحيط إلى ليبيا.

يُعدُّ ابن بطوطة أشهر رحالة عربي، بل سيد رحالة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي دون منازع؛ حيث إنه قضى ٢٨ عامًا متنقلاً أو مرتحلاً في أجزاء العالم المعروف في أيامه، وقد بدأ رحلته التي استغرقت كل هذه السنين من موطنه في طنجة مجتازًا ساحل شمال إفريقيا، حتى وصل إلى مصر، ومنها إلى جزيرة العرب، ثم الشام، ثم بلاد فارس، ثم البحرين، وعُمان، ثم شرق إفريقيا، بعدها تجوَّل في آسيا الصغرى والقرم وحوض الفولجا الأدنى - الجنوبي - ودخل القسطنطينية ثم توجَّه شرقًا إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند - حيث مكث ثماني سنوات، ثم زار جزر المالديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين، وكان قد بدأ تلك الرحلة سنة (١٣٢٥م) ليعود إلى طنجة سنة (١٣٤٧م)، واتصل ابن بطوطة خلال رحلاته تلك بالكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بِهِبَاتِهم على أسفاره.

(١) انظر في تفاصيل حياته، مقدمة التحقيق الذي كتبه الأستاذ محمد عبد الله عنان لكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة».

بعد ذلك قام برحلتين قصيرتين: الأولى في ربوع الأندلس سنة (١٣٥٠م)، والثانية في السودان ووسط إفريقيا سنة (١٣٥٢م)؛ ليعود ويستقرّ في فاس سنة ١٣٥٤م؛ ليملي فيها وصف رحلته التي سماها: «تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، والمشهور لدينا باسم «رحلة ابن بطوطة»، وقد أملاها على ابن جُزي الكاتب ببلاط السلطان المغربي أبي عفان المريني، وذلك سنة (١٣٥٦م).

وقد قُدِّرت المسافة التي قطعها ابن بطوطة في رحلته بنحو ١٢٠ ألف كيلو متر... ولنا أن نتخيل أي رحلة تلك وأي رحَّالة كان ابن بطوطة؛ إذا تصورنا وسائل النقل التي كانت متوفرة في تلك الحقبة من الزمن!

ويمكننا تقسيم رحلات ابن بطوطة كما جاءت في كتابه «تحفة النظار» إلى ثلاث رحلات:

- الرحلة الأولى: تقع في الفترة الزمنية من سنة ١٣٣٤م إلى سنة ١٣٤٩م، زار فيها ابن بطوطة شمال إفريقيا، ومصر، والشرق الأوسط، وشرق إفريقيا، وجزيرة العرب، واليمن، ثم قصد القسطنطينية، وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد إلى الهند، ثم سافر مع أعضاء البعثة الدبلوماسية التي أرسلها سلطان الهند محمد شاة، فزار جزائر الهند ومالديف وسيلان والصين.

- الرحلة الثانية: في الفترة ١٣٥١م إلى ١٦٥٢م، وتجوَّل فيها في بلاد الأندلس.

- الرحلة الثالثة: في الفترة من ١٣٥٢م إلى ١٣٥٤م وتجوَّل فيها في السودان وغرب إفريقيا.

وتستمد رحلات ابن بطوطة قيمتها من تميُّز صاحبها عن سواه من الرحالة السابقين في التفوق في الدرس؛ إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألمَّ بها وبسطها بتفصيل، وإذا كان ابن بطوطة سابع سبعة من أعلام الرحالة العرب (المقدسي

والإدريسي وابـن جبير والسـمعاني ويـاقوت والبـيروني)، إلا أنـه أكثـرهم تميـزًا، وأشدهم عناية بالحديث عن الحالة الاجتماعية للمجتمع أو البلد الذي يراه.

قال ابن جزي -تلميذ ابن بطوطة وكاتب كتابه-: لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومَنْ قال: رحال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس مقرًا ومستوطنًا بعد طول جولانه.

مات في مراكش سنة (٧٧٩هـ= ١٣٧٧م)، وتُلَقِّبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين.

ابن البناء المراكشي (٦٥٤-٧٢١هـ= ١٢٥٦-١٣٢١م):

هـو الشيخ المحقق أبـو العباس أحمد بـن محمد بـن عثمان بـن البناء الأزدي المراكشي، سُمِّيَ بـ«ابـن البناء»؛ لأن أباه كـان يعمل بنَّاءً؛ وُلِدَ في مراكش سنة (٦٥٤هـ=١٢٥٦م)، من مؤلفاته: حاشية على الكشاف، ومنتهى السلوك (في علم الأصول)، وكليات في المنطق وشرحها، وكليات (في العربية)، والمقالات (في الحساب)، واللوازم العقلية في مدارك العلوم، والروض المريع في صناعة البديع، وعنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، ورسالة في المكاييل، وجزء في المساحات، ومقالة في علم الإسطرلاب، وقانون (في معرفة الأوقات بالحساب).

ومن كتبه -أيضًا- «تلخيص أعمال الحساب»، وقد نظمه ابن غازي، وشرح نظمه، وطُبع النظم وشرحه بفاس، ويُعدُّ هذا الكتاب المرجع الأساسي في علم الحساب في أوربا، حتى مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) واهتم علماء الغرب بتحقيقه وترجمته إلى لغات مختلفة، حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)، ويؤكد جورج سارتون في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي يحتوي على

نظريات حسابيه وجبريه مفيده؛ إذ أوضح العويص منها إيضاحًا لم يسبقه إليه أحد؛ لذا يرى سارتون أنه يُعتبر من أحسن الكتب التي ظهرت في علم الحساب. أمَّا ديفيد يوجين سمث فقد ذكر في كتابه تاريخ الرياضيات أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يشتمل على بحوث كثيرة في الكسور ونظريات لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقانون الخطأين لحلِّ المعادلة من الدرجة الأولى.

ويذكر فرانسيس كاجوري في كتابه «المقدمة في الرياضيات» أن ابن البناء المراكشي قدَّم خدمة عظيمة بإيجاده الطرق الرياضية البحتة لإيجاد القيم التقريبية لجذور الأعداد الصم. أما العلامة ابن خلدون فيقول عن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء: «وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جدير بذلك، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم؛ لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها، وإذا قصد شرحها، إنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال، وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل.

وأضاف عمر رضا كحالة في كتابه «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» قائلاً: «كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يحتوي على بحوث مختلفة، تمكن ابن البناء من جعلها -على الرغم من صعوبة بعضها- قريبة المتناول والمأخذ، وقد أوضح النظريات العويصة والقواعد المستعصية إيضاحًا لم يُسبق إليه فلا تجد فيها التواء أو تعقيدًا.

عاش ابن البنَّاء ٦٧ سنة، وتوفي في مراكش سنة (٧٢١هـ=١٣٢١م).

***

الباب العاشر

تاريخ الأندلس

وقفة معتبر

على طول الدراسة السابقة كان تاريخ الأندلس يحوي أكثر من ثمانمائة عام، وهذا الذي ينبغي على المسلمين أن يقفوا معه وقفات ووقفات؛ يأخذون منه العبرة والدرس، ويكررون ما حدث فيه من أفعال العظماء، وفي الوقت ذاته يتجنبون أفعال الأقزام؛ تلك التي أدت إلى هذه الحال التي رأيناها آخر عهود الأندلس وفترات السقوط.

بداية لم يكن سقوط الأندلس بالسقوط المفاجئ، فقد كان هذا متوقعًا منذ أكثر من مائتي عام، إلا أنها- وبمدد من بني مرين مرة، وبخلاف النصارى مرة أخرى مع بعضهم البعض- صمدت وصبرت بعض الشيء، لكن الذي حدث في النهاية هو الذي كان متوقعًا.

وهنا لا بد لنا من وقفة على أسباب هذا الانهيار، والتي كان من شأنها أنها ما أن تتكرر في أيٍّ من الأزمان أو الأوقات، وفي أي من البلدان أو القارات، فإنها -ولا شك- ستعمل عملها، وتكون العاقبة والنتيجة من العاقبة وتلك النتيجة نفسها.

الفصل الأول

نظرة في قيام وسقوط الدول والحضارات

بعد الوصول إلى هذه المرحلة من الضعف والتفتت والهوان هناك تعليق عام وتحليل، واستراحة على طول طريق الأندلس منذ الفتح وحتى هذه المرحلة، نستجلي فيه سُنَّة من سنن الله ﷻ في كونه بصفة عامة، وفي الأمة الإسلامية بصفة خاصة، وهي سُنَّة قيام وسقوط الأمم، وسُنَّة الارتفاع والهبوط، تلك التي لوحظت بشكل لافت في الدولة الإسلامية خاصة.

وحقيقةُ الأمر أنه منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، بل حتى قيام الساعة، اقتضت سُنَّة الله في الأمم والحضارات بصفة عامة أن تقوم ثم تسقط وتزدهر ثم تندثر، فمن سنن الله أن كانت هناك قوانين اجتماعية وإنسانية عامة تتصل مباشرة بضبط مسيرة الحياة الإنسانية ومسيرة الأمم والشعوب، فإذا ما التزمت الأمم والحضارات بهذه القواعد دامت وكانت في خير وسعادة، وإذا حادت عنها لقيت من السقوط والاندثار ما هي أهل له؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وليست الأمة الإسلامية بمنأى عن هذه السنن الكونية، فمنذ نزول الرسالة على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية تأخذ بأسباب القيام فتقوم، ثم تحيد عنها فيحدث الضعف ثم السقوط.

وأسباب قيام الدولة الإسلامية كثيرة على نحو ما ذكرنا فيما مضى، والتي كان من أهمِّها:

أولاً: الإيمان بالله ﷻ والاعتقاد الجازم بنصرته وقدرته.

ثانيًا: الأخوة، والوحدة، والتجمُّع ونبذ الفرقة.

ثالثًا: العدل بين الحاكم والمحكوم.

رابعًا: العلم، ونشر الدين بين الشعوب.

خامسًا: إعداد العدة، والأخذ بالأسباب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

فإذا أخذ المسلمون بهذه الأسباب فإنهم سرعان ما يقومون، وغالب الأمر يكون القيام بطيئًا ومتدرجًا، وفيه كثير من الصبر والتضحية والثبات، ثم بعد ذلك يكون القيام باهرًا، ثم يحدث انتشار للدولة الإسلامية بصورة ملموسة، حتى تُفتح الدنيا على المسلمين، وهنا يصبر القليل على الدنيا وزينتها ويقع الكثيرون في الفتنة.

«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»(1).

ومن جديد يحدث الضعف فالسقوط، وعلى قدر الفتنة بالمادة والمدنية يكون الارتفاع والانحدار، والسقوط والانهيار.

وأمر الفتنة هذه هو الذي فقهه عمر بن الخطاب ﷺ في سنة (17هـ=735م) حينما أمر بوقف الفتوحات في بلاد فارس، في عمل لم يتكرَّر في تاريخ المسلمين، إلا لدى قليل ممن هم على شاكلته، وذلك حين فُتحت الدنيا على المسلمين وكثرت الغنائم في أيديهم.

---

(1) الترمذي: (2336) وقال: هذا حديث صحيح غريب. وأحمد (17506)، وابن حبان (3223)، والحاكم: (7896)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الذهبي.

خاف عمر ﷺ أن تتملك الدنيا من قلوب المسلمين، وخشي أن يُفتَنوا بالدنيا ويخسروا الآخرة فيخسروا دولتهم، وكان همه أن يُدخل شعبه الجنة، لا أن يُدخله بلاد فارس، إذا كان دخول فارس على حساب دخول الجنة، وقال ﷺ: وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا[1]. ولم يعد ﷺ إلى مواصلة الفتوح إلا بعد أن هجم الفرس على المسلمين، وخاف على المسلمين الهزيمة والضياع.

والأمة الإسلامية تنفرد بأنها أمة لا تموت ودائمًا في قيام، فإذا سقطت أتبع السقوط قيام، أما ألا يتبع السقوطَ قيامٌ فهذا ليس من سنن الله مع المسلمين، ولا يحدث إلا مع أمم الأرض الأخرى غير الإسلامية، تلك الأمم التي يغلب عليها سقوط واندثار لا يتبعه رجعة، حتى وإن طال أجل القيام والازدهار، ومن أصدق الأمثلة على ذلك حضارة الفراعنة، واليونان، وإمبراطوريتي فارس والروم، وإمبراطورية إنجلترا التي لا تغرب عنها الشمس.. وهذه السُّنة الكونية يمثلها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. ومما يُثبت سُنَّة الله هذه في الدولة الإسلامية قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[2]. فمعنى هذا أنه سقوط، ومن بعد السقوط ارتفاع وعلوٌّ، وهذا الارتفاع سيكون على يد مجدِّد أو مجموعة مجدِّدين، وهكذا إلى قيام الساعة.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٩٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٨٢.

(٢) أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩١)، وقال: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل. والحاكم (٨٥٩٢)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الفترات، ففيه الكثير من أحداث الارتفاع والهبوط، ثم الارتفاع والهبوط، ولم يكن هذا خاصًّا بتاريخ الأندلس فقط؛ بل إن صحابة رسول الله ﷺ شاهدوا ذلك بأعينهم، فبعد وفاته ﷺ مباشرةً حدث سقوط ذريع وانهيار مروِّع، ورِدَّة في كل أطراف جزيرة العرب، التي لم يبق منها على الإسلام سوى مكة والمدينة وقرية صغيرة تسمى هَجَر (هي الآن في البحرين).

وبعد هذا السقوط يحدث قيام عظيم وفتوحات وانتصارات، كان قد جدَّد أمرها وغرس بذرتها أبو بكر ﷺ بعد أن أجهز على الردَّة، ثم فُتحت الدنيا على المسلمين في عهد سيدنا عثمان ﷺ، فحدثت الفتنة والانكسارات في الأمة الإسلامية؛ مما أدَّى إلى مقتله ﷺ وهو الخليفة الراشد وصاحب رسول الله ، وظلَّت هكذا طيلة خلافة سيدنا علي ﷺ.

ومن جديد يستتبُّ الأمر، وتقوم الدولة الأموية وتستكمل الفتوح، ثم فترة من الزمان ويحدث سقوط آخر حين يفسد أمر بني أمية، وعلى أَثَره يقوم بنو العباس فيُعيدون من جديد المجد والعزّ للإسلام، وكالعادة يحدث الضعف ثم السقوط، وعلى هذا الأمر كانت كل الدول الإسلامية الأخرى التي جاءت من بعدها، مرورًا بالدولة الأيوبية وانتهاءً بالخلافة العثمانية الراشدة، التي فتحت كل شرق أوربا، وكانت أكبر قوة في زمنها.

فهي إذًا سنة من سنن الله تعالى، ولا يجب أن تَفُتَّ في عضد المسلمين، ولا بُدَّ للمسلمين من قيام بعد سقوط، كما كان لهم سقوط بعد قيام، وكما ذكرنا سابقًا فإنه ليس بين الله ﷻ وبين أحد من البشر نسب.

«يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

---

(١) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٤).

فإن ضلَّ المسلمون الطريق، وخالفوا نهج نبيهم؛ فستكون الهزيمة لا محالة، وسيكون الانهيار المروِّع الذي شاهدناه في الأندلس، والذي نشهده في كل عهود المسلمين.

المرحلة التي يعيشها المسلمون الآن وتصنيفها:

قد يتساءل المرءُ: ما هو تصنيفنا كمسلمين في هذا العصر وفقًا للمراحل السابقة ما بين الارتفاع والهبوط، أو القيام والسقوط؟

وواقع الأمر- وكما هو واضح للعيان- أن الأمة الإسلامية تمرُّ الآن بمرحلة من مراحل السقوط؛ سقوط كبير وضعف شديد وفرقة للمسلمين، سقوط مباشر لسقوط الخلافة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي، وهو أمر طبيعي ودورة طبيعية من دورات التاريخ الإسلامي، وسُنَّة من سنن الله تعالى كما رأينا.

إلا أن مرحلة السقوط الأخيرة هذه قد شابها أمران لم تعهدهما الدولة الإسلامية، ولم يحدثا من قبل في مراحل سقوطها المختلفة؛ الأمر الأول : هو غياب الخلافة؛ إذ حدث ولأول مرة في التاريخ أن يُصبح المسلمون بلا دولة واحدة تجمعهم، فرغم ما كان وما يكون من السقوط والانهيار على مدى فترات الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية، إلا أنه لم تكن لتغيب صورة الخلافة عن الأذهان بحالٍ من الأحوال، منذ الدولة الأموية في القرن الأول الهجري، وحتى سقوط الخلافة العثمانية في القرن الرابع عشر الهجري؛ حيث كان الإسلام سياسيًّا (دين ودولة) طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان.

الأمر الثاني: هو غياب الشرع الإسلامي، فلم يكن -أيضًا- في أيٍّ من عصور السقوط السابقة للدول الإسلامية، مع ما يصل المسلمون إليه من تدنٍّ وانحدار لم يكن قطُّ يُلغى الشرع أو يغيب، نعم قد يُتجاوز أحيانًا في تطبيق بعض أجزائه، لكن

لم يظهر على الإطلاق دعوة تنادي بتنحية الشرع جانبًا، وتطبيق غيره من قوانين البشر مما هو أنسب وأكثر مرونة على حسب رؤيتهم.

وإن مثل هذين العاملين ليجعلان من مهمة الإصلاح والتغيير أمرًا من الصعوبة بمكان، ورغم ذلك فإنه وكما أوضحنا ليس بمستحيل؛ لأن المستحيل هنا هو التعارض مع سنن الله ﷻ التي تقول بأن دولة الإسلام في قيام حتى قيام الساعة.

وهناك من المبشِّرات نحو قيام الدولة الإسلامية الآن الكثير والكثير، فمنذ سقوط الخلافة العثمانية سنة (١٣٤٢هـ= ١٩٢٤م) كان قد حدث انحدار كبير -ولا شك- في معظم أقطار العالم الإسلامي، إن لم يكن كله (بعد سقوط الخلافة العثمانية أُقيمت الدول العربية عدا السعودية على أساس علماني شبيه بالدول الغربية)، وظلَّ هذا الوضع حتى أوائل السبعينيات، ثم كانت الصحوة في كل أطراف الأمَّة الإسلامية في منتصف السبعينيات وإلى يومنا هذا.

ونظرة واحدة إلى أعداد المصلين في المساجد خاصة الشباب، وإلى أعداد المحجبات في الشوارع في كل أطراف العالم الإسلامي، وانتشار المراكز الإسلامية في كل بلاد أوربا وفي أميركا، والصحوة الجهادية في البلاد المحتلة مثل فلسطين والعراق والشيشان وغيرها، وحال الإسلام في جمهوريات روسيا السابقة بعد احتلال نصراني وشيوعي دام لأكثر من ثلاثمائة عام، نظرة واحدة إلى مثل هذه الأمور وغيرها يُبَشِّر بالقيام من جديد.

***

الفصل الثاني

حروب الأمس وحروب اليوم

هل تتكرر انتصارات المسلمين؟

لا شك أن انتصارات المسلمين في السابق في مثل مواقع الزلاقة ووادي برباط، وأي من المواقع الإسلامية الأخرى في غير تاريخ الأندلس، لا شك أنه أمر يبعث العزة ويدعو إلى الفخر؛ لكن مثل هذه الانتصارات السابقة كانت حيث السيوف والرماح والخيول، ولقاء الجندي بالجندي، أما الآن وقد اختفت مثل هذه الأمور، بل واندثرت تمامًا، وتبدَّل الوضع؛ فأصبحت الحرب غير الحرب، والطاقة غير الطاقة، حيث الحرب الإلكترونية، وحيث الطائرات والقنابل العنقودية، والصواريخ العابرة والموجهة، والأسلحة الكيميائية والنووية، وغير ذلك مما لم يكن على سابق ما مضى تمامًا.

فهل يستطيع المسلمون أن يحققوا نصرًا في مثل هذه الظروف، وتلك المستجدات، ورغم ما هم فيه من تخلفٍ وانحطاطٍ كانتصارات سابقيهم؟!

والحقيقة أن مبعث مثل هذا الخاطر وذاك السؤال هو عدم الفهم والوعي لعاملَيْن مهمَّيْن جدًّا، كنا قد تحدثنا عنهما فيما مضى؛ وهما:

العامل الأول: أمة الإسلام أمة لا تموت:

اقتضت سُنَّة الله في كونه -كما ذكرنا- أن تكون أمة الإسلام أمة لا تموت، وأنها أبدًا في قيام، وأنه لا بُدَّ من القيام بعد السقوط كما كان السقوط بعد القيام، بصرف

النظر عن مدى قوة وعظم الكافرين وضعف المسلمين: فالله ﷻ يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

العامل الثاني: إدراك أن المعركة بين الحق والباطل:

فالحرب بين المسلمين وغيرهم ليست متمثِّلَة في شكل دول أو أشخاص، إنما هي حرب عقائدية، حرب بين الحق والباطل، وهي بأيسر تعبير معركة بين أولياء الله ﷻ وأولياء الشيطان.

فماذا تكون النتيجة إذًا إذا كانت المعركة على هذا النحو؟ وهل ينتصر حزب الشيطان وأولياؤه مهما تعاظمت عناصر القوة لديهم، أم ينتصر حزب الله وأولياؤه، وإن قلَّت وضعفت إمكاناتهم وطاقاتهم؟

وفي استدعاءٍ للتاريخ والمواقع الإسلامية السابقة خير مثال ودليل على ما ذهبنا إليه، فهل كان من الطبيعي بالقياسات القديمة أن يحقق المسلمون النصر في معاركهم كلها فيما مضى؟! هل كان من الطبيعي في معركة القادسية -على سبيل المثال- أن ينتصر اثنان وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف فارسي؟! بكل قياسات الماضي وقياسات الوضع الطبيعي، هل من الممكن أن يحدث مثل هذا؟ وأين؟ في بلادهم وعقر دارهم.

وهل كان من الطبيعي في معركة اليرموك أن ينتصر تسعة وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف رومي؟! وهل كان من الطبيعي أن ينتصر ثلاثون ألف مسلم في تُستر على مائة وخمسين ألف فارسي ثمانين مرة متتالية في خلال سنة ونصف، وفي عقر دارهم أيضًا؟! وهل كان من الطبيعي كما ذكرنا في أحداث الأندلس السابقة أن ينتصر اثنا عشر ألف مسلم على مائة ألف قوطي في معركة وادي برباط؟!

هذه كلها أمور من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تحدث حتى بقياسات الماضي، وهو لغز لا يمكن أن نجد له حلاً إلا بطريقة واحدة، هي أن نعلم ونتيقن أن الله ﷻ هو الذي يحارب الكافرين؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ١٤].

فالله ﷻ يختبر المؤمنين بحربهم مع الكافرين، وليس هو ﷻ في حاجةٍ إلينا لينتصر على أعدائه أو المشركين به من اليهود والأميركان والروس، أو غيرهم من أمم الأرض الذين جحدوا وحدانيته واجتاحوا بلاد المسلمين، إنما كان من فضله علينا وجُوده وكرمه أن استعملَنا جنودًا عنده ﷻ، وإنما نحن كمن يستر القدرة ويأخذ الأجرة، فنحن نستر قدرة الله ﷻ في هزيمته للكافرين، ونأخذ الأجر على الثبات في هذا الموقف أمام الكفار.

والذي يقول بأن الموقف في الماضي مخالف عن الموقف في الحاضر، أو أن حروب الماضي مختلفة بالكلية عن حروب الحاضر، وهو يعلم أن الله ﷻ هو الذي نصر الصحابة ونصر مَنْ تبعهم بإحسان وإلى يوم الدين، من يرى هذا كأنه يقول -حاشا لله من هذا- بأن الله كان قادرًا على عادٍ وثمود وفارس والروم، ولكنه -نعوذ بالله من ذلك- ليس بقادر على أميركا واليهود وروسيا ومَنْ حالفهم، أو شايعهم من الأمم الحاضرة المقاتلة لأمة الإسلام!

يقول ﷻ في كتابه الكريم حكاية عن الأمم العاتية السابقة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

ويقول أيضًا في وصف حال الكافرين: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ

يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٣- ٤٤].

لكن المهم والذي من المفترض أن يشغل بال المسلم الحريص على دينه هو معرفة دوره هو في هذا القيام وهذه الدعوة، ومعرفة دوره في انتصار مثل انتصار الزلاقة، وغيره من مواقع المسلمين الخالدة.

فإن كان قيام أمة المسلمين بنا فنحن مأجورون على ذلك، حتى ولو لم نَرَ نصرًا، وإن كان القيام بغيرنا فقد ضاع منا الأجر، حتى ولو كنا معاصرين لذلك النصر وذاك التمكين، وهذا هو ما يجب أن يستحوذ على أذهان المسلمين، وأن يعملوا ليكون لهم دور في إعادة بنيان هذه الأمة بعد ذاك السقوط الذي تحدثنا عنه.

***

الفصل الثالث

أمل النصر لا تخبو جذوته أبدًا

بعد الدرس الأول والوقوف على عوامل وأسباب السقوط كان هذا الدرس الثاني، وهو ما نستقيه من تاريخ الأندلس؛ حيث إنه لا يغيب الأمل أبدًا في نصر الله، فإن الله دائمًا ما يُقَيِّض لهذه الأمة مَنْ ينصرها، ومَنْ يُجَدِّد لها أمر دينها.

وقد حدث مثل ذلك كثيرًا في تاريخ الأندلس، كان منه ما حدث في نهاية عهد الولاة، وذلك بقيام عبد الرحمن الداخل، ثم ما حدث -أيضًا- في نهاية الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر، وهكذا في كل عهد تجد مَنْ يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها، تجد يوسف بن تاشفين، وتجد يعقوب المنصور الموحدي، وتجد يعقوب المنصور المريني، وغيرهم الكثير.

وقد يتساءل البعض قائلاً: لقد انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية، فأين ذاك القيام، الذي من المفترض أن يكون بعد هذا الانتهاء، ما دامت كانت قد جرت السُّنَّة على ذلك؟!

وفي معرض الردِّ على مثل هذا السؤال نسوق حدثًا في غاية الغرابة، فقد حدث قبل سقوط الأندلس الأخير بنحو أربعين سنة حادث عجيب، وأعجب منه هذا التزامن الذي فيه، فقد فُتحت القسطنطينية في سنة (٨٥٧هـ= ١٤٥٣م) أي قبل سقوط الأندلس بأربعين عامًا، فكان غروب شمس الإسلام على أوربا من ناحية

المغرب يزامنه شروق جديد عليها من ناحية المشرق، واستبدل الله هؤلاء الذين باعوا، وأولئك الذين خانوا من ملوك غرناطة في الأندلس بغيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار، الذين فتحوا القسطنطينية وما بعدها، وقد بدأ الإسلام ينتشر في شرق أوربا انتشارًا أسرع وأوسع مما كان عليه في بلاد الأندلس وفرنسا.

وإنها- وايم الله- لآية من آيات الله ﷻ تبعث الأمل وتبثُّه في نفوس المسلمين في كل وقت وكل حين، مبشرة ولسان حالها: أمة الإسلام أمة لا تموت.

* * *

الفصل الرابع

فلسطين اليوم أندلس البارحة

كان الدرس الثالث من تاريخ الأندلس هو الأخطر من نوعه، وتبدو معالمه في سؤال ربما يكون قد شغل أذهان البعض كثيرًا، وهو: لماذا انتهى الإسلام بالكلِّيَّة من بلاد الأندلس؟!

فبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) هي اليوم من أقل بلاد العالم في عدد المسلمين، والذين بلغ عددهم فيها مائة ألف مسلم فقط، أي أقل من عدد المسلمين في مدينة من مدن أميركا.

ففي مدينة دالاس الأميركية وحدها يصل عدد المسلمين إلى مائة ألف مسلم، وهي بعدُ لم تكن قد حُكمت بالإسلام، بينما تعداد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وبعد أن حُكمت ثمانية قرون بالإسلام لا يزيد عن مائة ألف مسلم، وهو أمر في غاية الغرابة.

ومن هنا كان هذا السؤال: لماذا انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلِّيَّة كأفراد وشعوب ولم ينتهِ من البلاد الأخرى، والتي استُعمرت استعمارًا صليبيًّا، طال أمده في بعض الدول؛ مثل: الجزائر التي احتُلت ثلاثين ومائة سنة، ومصر التي احتُلت سبعين سنة، وفلسطين احتُلت مائتي سنة في زمن الصليبيين، وغيرها من الدول الإسلامية التي غُلبت على أمرها، ورغم ذلك لم يندثر المسلمون، أيًّا كانت طريقة

اندثارهم، ولم يتغيروا وظلوا مسلمين وإلى الآن؟!

وللإجابة على هذا التساؤل لننظر أولاً ما كان يفعله الاستعمار الإسباني في بلاد الأندلس، فقد كان الاستعمار الإسباني استعمارًا استيطانيًّا إحلاليًّا، ما أن يدخلوا بلدًا إلا قتلوا كل مَنْ فيه من المسلمين في حرب إبادة جماعية، أو يطردونهم ويُهَجِّرونهم إلى خارج البلد، ثم يُهجِّرون إليها من النصارى من أماكن مختلفة من الأندلس وفرنسا مَنْ يحل ويعيش في هذه المدن وتلك الأماكن التي خلفها المسلمون، وبذلك لم يَعُدْ يبقى في البلاد مسلمون.

وحكم البلاد وعاش فيها بعد ذلك نصارى وأبناء نصارى، على عكس ما كان يحدث في احتلال البلاد الإسلامية الأخرى؛ مثل: مصر، والجزائر، وليبيا، وسوريا، وغيرها؛ فإن الاحتلال في هذه البلاد كان بالجيوش لا بالشعوب، واحتلال الجيوش ولا شك مصيره إلى ردة وزوال.

وإن مثل هذا ليضع أيدينا على شيء هو في غاية الأهمية؛ ذلك أن الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أيٍّ من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو -أيضًا- يخصُّ المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرِّد الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طيِّ النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يومًا بعد آخر، بل بات محتملاً أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني)

قضيته، وأخشى والله! أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تمامًا كما نسيها أهل الأندلس، الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو عشرة أعوام، أو حتى بعد مائة عام، فقد مرَّ الآن على سقوط الأندلس خمسمائة عام، فمن يُفكِّر في تحريرها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمِّعون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

فكانت قضية فلسطينْ شديدة الشبه بالأندلس، وتُرى لماذا عُقد اتفاق السلام عام ١٩٩٢م بين اليهود وبين الفلسطينيين، ومن بين كل بلاد العالم هناك يعقد في إحدى مدن الأندلس القديمة في مدريد؟!

كانت مفاوضات السلام تدور في أوسلو وترعاها أميركا وروسيا وغيرها من البلاد، ومع ذلك أُقيمت في «مدريد» وفي إزالة علامات التعجب نجد أن ذلك كان بسبب أن المفاوضات قامت في سنة ١٩٩٢م، وهي ذكرى سقوط الأندلس؛ حيث كان قد مر على سقوطها خمسمائة عام.

ففي تلك الأثناء كانت شوارع «مدريد» مكتظة بالاحتفالات والمهرجانات، حيث هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين في هذه الموقعة القديمة منذ خمسمائة عام، وكأنهم يبعثون برسالة مفادها: ها هو التاريخ يتكرَّر، وها هي أحداث الأندلس تتكرر من جديد في فلسطين، وها هي الانتفاضة التي تحدث في فلسطين تُقتَل كما قُتلت من قبل انتفاضة موسى بن أبي غسان في غرناطة، ها هو التاريخ يتكرر، لا داعي للحرب، ولا داعي للجدال والمحاورات الكثيرة؛ فإن مصيركم هو ما حدث في الأندلس من قبل.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

بعد هذه الدراسة، وبعد تلك الحقبة المهمة من تاريخ المسلمين، نستطيع أن نسطر من جديد: ما كان التاريخ -وتاريخ الأندلس خاصة- يومًا ما بُكاءً على اللبن المسكوب، ولا عيشًا في صفحات الماضي، إنما كان لأخذ الدرس والعبرة، وكما ذكرنا في البداية:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وأيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والذي يجب أن يشغلنا الآن هو أن نقف مع تاريخ الأندلس وقفة نفهم منها أحداث فلسطين والعراق؛ وأحداث أفغانستان، الشيشان، وكوسوفا، والبوسنة والهرسك، وكشمير، وغيرها من البلاد، وما دور الشعوب والأفراد في قضية فلسطين حتى لا تصبح أندلسًا أخرى.

والذي يجب أن يشغلنا هو أن يعرف كلٌّ منا دوره في الحياة؛ ومن ثَمَّ يقوم عليه بأحسن ما يكون وأحسن ما يجب أن يكون القيام، وإن معرفة مثل ذلك لتقبع خلف كل صفحة من صفحات تاريخ الأندلس، وخلف كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي بصفة عامة.

وليعلم كل منا أنه إنما هو على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فليحذر وليحرص كل الحرص على ألا يُؤتى الإسلام من قِبله، ولا يُلدغ الثانية، وقد قال

ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

قصيدة أبي البقاء الرندي

في رثاء الأندلس:

لِكُـلِّ شَيْءٍ إِذَا مَـا تَـمَّ نُقْصَـانُ فَـلا يُغَـرُّ بِطِيـبِ الْعَـيْشِ إِنْسَـانُ

هِـيَ الأُمُـورُ كَـمَا شَـاهَدْتَهَا دُوَلٌ مَـنْ سَرَّهُ زَمَـنٌ سَـاءَتْهُ أَزْمَـانُ

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لا تُبْقِـي عَـلَى أَحَـدٍ وَلا يَـدُومُ عَـلَى حَـالٍ لَهَـا شَـانُ

يُمَـزِّقُ الـدَّهْرُ حَـتْمًا كُـلَّ سَـابِغَةٍ[1] إِذَا نَبَـتْ مَشْرَفِيَّـاتٌ[2] وَخرْصَـانُ[3]

وَيَنْـتَضِي كُـلَّ سَـيْفٍ لِلْفَنَـاءِ وَلَـوْ كَـانَ ابْـنَ ذِي يَـزَنٍ وَالْغِمْـدُ غمْـدَانُ

أَيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ وَأَيْـنَ مِـنْهُمْ أَكَالِيـلٌ وَتِيجَـانُ؟

وَأَيْـنَ مَـا شَـادَهُ شَـدَّادُ فِي إِرَمٍ وَأَيْـنَ مَـا سَاسَـهُ فِي الْفُـرْسِ سَاسَـانُ؟

وَأَيْـنَ مَا حَـازَهُ قَـارُونُ مِـنْ ذَهَـبٍ وَأَيْـنَ عَـادٌ وَشَـدَّادٌ وَقَحْطَـانُ؟

أَتَـى عَـلَى الْكُـلِّ أَمْـرٌ لا مَـرَدَّ لَـهُ حَتَّـى قَضَـوْا فَكَـأَنَّ الْقَـوْمَ مَـا كَـانُوا

وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ كَـمَا حَكَـى عَـنْ خَيَـالِ الطَّيْـفِ وَسْـنَانُ

(١) السابغة: الدرع التامة الوافرة الطويلة الواسعة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سبغ ٨/ ٤٣٢، والزبيدي: تاج العروس، باب الغين فصل السين ٢٢/ ٤٩٩.

(٢) المشرفيات: السيوف. ابن منظور: لسان العرب، مادة شرف ٩/ ١٦٩، والزبيدي: تاج العروس، باب الفاء فصل الشين ٢٣/ ٥٠٣.

(٣) الخرصان: جمع خرص: وهو الرمح. ابن منظور: لسان العرب، مادة خرص ٧/ ٢١، والزبيدي: تاج العروس، باب الصاد فصل الخاء ١٧/ ٥٤٦.

فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ

دَارَ الزَّمَانُ عَلَى (دارا) وَقَاتلِهِ ... وَأَمَّ كسرى فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ

كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ ... يَوْمًا وَلا مَلَكَ الدُّنْيَا سليمانُ

وَلِلْحَوَادِثِ سُلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا ... وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسْلامِ سُلْوَانُ

دَهَى الجزيرة أَمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلانُ

أَصَابَهَا الْعين فِي الإِسْلامِ فَارْتَأَزَتْ ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ

فَاسْأَلْ (بلنسية) مَا شَأْنُ (مرسية) ... وَأَيْنَ (شاطبة) أَمْ أَيْنَ (جيان)؟!

وَأَيْنَ (قرطبة) دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ؟!

وَأَيْنَ (حمص) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ

قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانُ الْبِلادِ فَمَا ... عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمَانُ

عَلَى دِيَارٍ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَةٍ ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكُفْرِ عمْرَانُ

حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إِلاَّ نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْثِي وَهْيَ عِيدَانُ

يَا غَافِلاً وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ

وَمَاشِيًا مَرِحًا يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ ... أَبَعْدَ (حمص) تَغُرُّ الْمَرْءَ أَوْطَانُ؟!

تِلْكَ الْمُصِيبَةُ أَنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا ... وَمَا لَهَا مَعَ طُولِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً ... كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عُقْبَانُ

وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً ... كَأَنَّهَا فِي ظَلامِ النَّقْعِ نِيرَانُ

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ ... فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ

كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ ... قَتْلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ

مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الإِسْلامِ بَيْنَكُمُ ... وَأَنْتُمُ يَا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانُ

يَا مَنْ لِذِلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزَّتِهِمْ ... أَحَالَ حَالَهُمْ جَوْرٌ وَطُغْيَانُ

بِالأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ ... وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ

فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لا دَلِيلَ لَهُمْ ... عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ أَلْوَانُ

يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا ... كَمَا تُفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ

وَطِفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ ... كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ

يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً ... وَالْعَيْنُ بَاكِيَةٌ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ... إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلامٌ وَإِيمَانُ[1]

***

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٨٧، ٤٨٨.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب التفسير

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
- الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

ثالثا: كتب الحديث والسنة

- ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر – بيروت، ١٩٨٦م.
- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف – الرياض.
- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- البخاري: الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق: مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.
- البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩٠م.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ=١٩٨٣م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان

البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩١م.

رابعًا: كتب السيرة والتاريخ والطبقات

* ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
* ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
* ابن أبي زرع: روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
* ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه: د. حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
* ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
* ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م.
* ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
* ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، ١٣١٦هـ.

- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط، ومحمود الأرناءوط، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق ودراسة: د. محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي.
- ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تعليق: محمود فاخوري، دار الشرق العربي - بيروت، ١٩٩١م.
- ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب.
- ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك : الصلة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ=١٩٨٩م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله : رحلة ابن بطوطة، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حزم وابن سعيد والشقندي : فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م.
- ابن حزم : رسائل ابن حزم، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: د. محمود علي مكي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر.
- ابن خاقان : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: د. حسين يوسف خربوش،

مكتبة المنار – الأردن ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

- ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار احياء التراث العربي – بيروت، لبنان.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة.
- ابن عبد البر القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: د. شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.
- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن، ١٩٢٠م.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة – بيروت، لبنان.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ودار الثقافة – الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ=١٩٨٥م.
- ابن فرحون، علي بن محمد: الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب المالكي، وضع الحواشي: مأمون محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٦هـ=١٩٧١م.
- ابن ماكولا، علي بن هبة الله: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي - بيروت، ١٣٧٨هـ=١٩٦٨م.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٩م.
- الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مطبعة المدني - القاهرة، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.
- أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، برنستون، ١٩٣٠م.
- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين - القاهرة ١٩٥٧م.
- حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار الرشاد - القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد - مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.
- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد : تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧م.
- الذهبي : العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.
- الزركلي : موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ.
- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية - لبنان.
- السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- السهيلي : الروض الأنف (الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام)، دار الكتب العلمية - بيروت.
- شكيب أرسلان : غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطالية وجزائر البحر المتوسط، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- شوقي أبو خليل: الأرك، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل : الزلاقة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

- شوقي أبو خليل: العقاب، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: بلاط الشهداء، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: فتح الأندلس، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع الفني - الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- الطاهر أحمد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- علي الصلابي: [illegible] المرابطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- علي الصلابي: [illegible]، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

- علي مظهر: محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية.
- عياض القاضي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: محمد سالم، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٨م.
- مجموعة: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، حققها ونشرها: ليفي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية - الرباط، المغرب، ١٩٤١م.
- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني - القاهرة، وبيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ=١٩٨٩م.
- مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: د. سهيل زكار، وعبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب.
- مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه: ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.
- محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة، ١٣٥٨هـ=١٩٣٩م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.
- النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن: تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا

فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.
- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

خامسًا: كتب الأدب واللغة

- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.
- ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تقديم: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الجوهري: الصحاح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.
- عمرو بن معدي كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ =١٩٨٥م.
- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، دار المعرفة – بيروت.

سادساً: كتب أخرى

• ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: مجموع الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار، دار ابن حزم – بيروت، ١٩٩٨م.

• ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.

• أبو شامة: إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية – بيروت.

• أبو يعلى الفراء، محمد بن حسين: الأحكام السلطانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

• إدوارد فان ديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تصحيح: محمد الببلاوي، دار صادر – بيروت.

• جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٧٤م.

• جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ٢٠٠٠م.

• رحاب عكاوي، ومحمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر العربي – القاهرة، ١٩٩٦م.

• سعود بن عبد العالي البارودي العتيبي: الموسوعة الجنائية الإسلامية، المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

• شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر – دمشق، سوريا.

- شوقي أبو خليل : علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، دار الفكر - دمشق، سوريا.
- الطحاوي : مشكل الآثار،دار الكتب العلمية - بيروت.
- عامر النجار : في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية،دار المعارف - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.
- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- علي بن عبد الله الدفاع : رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- مجموعة : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- مجموعة : تراث الإسلام، بإشراف: توماس أرنولد، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
- محمد كامل حسين : الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ليبيا.
- محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٧٨م.

- محمود الحاج قاسم : الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م.
- مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي : فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م.
- يوسف القرضاوي : فقه الجهاد، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

سابعًا : المجلات والدوريات والموسوعات ومواقع الإنترنت

- صحيفة الأهرام المصرية.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.
- مجلة المهن الطبية.
- موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).
- موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات والمعارك

فهرس القبائل

فهرس الخرائط

فهرس الشعر

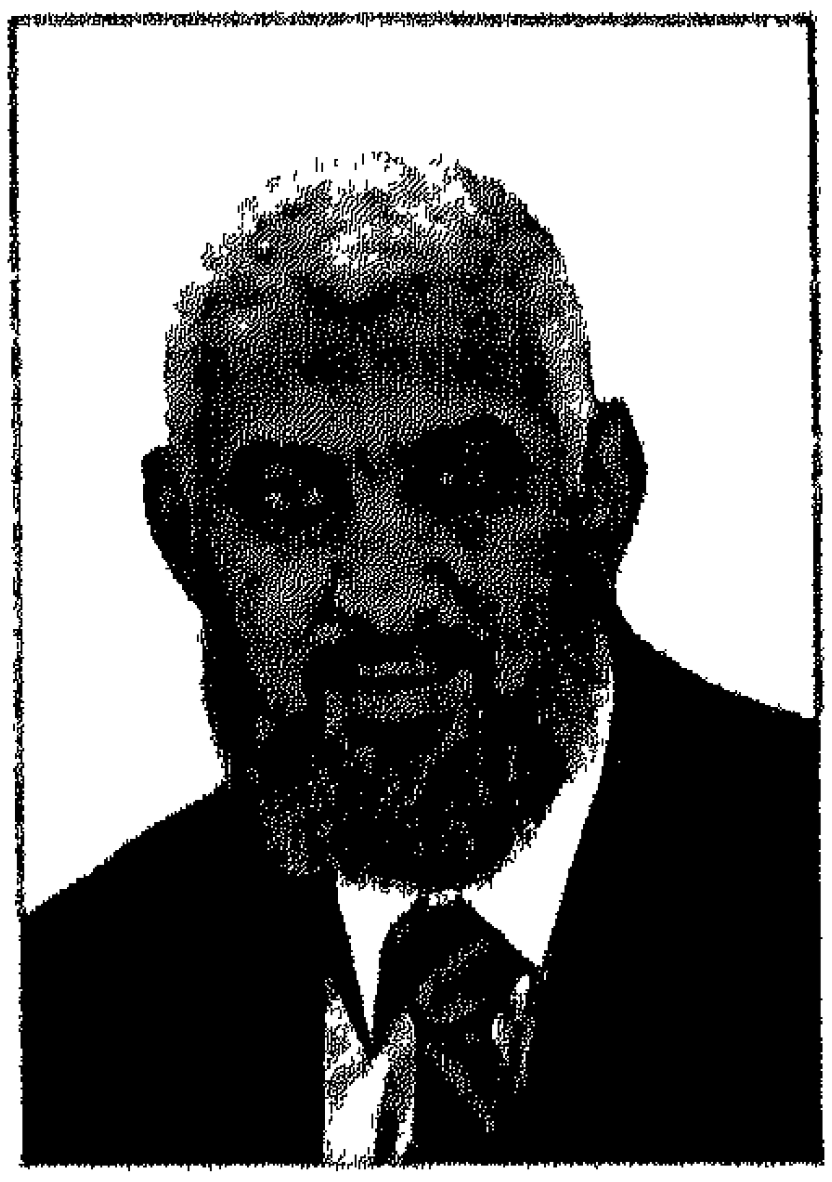
الشاعر	البيت الأول	البحر	الصفحة
ابن العسال	هَتَكُوا بِخَيْلِهِمُ قُصُورَ حَرِيمِهَا ***لَمْ يَبْقَ لا جَبَلٌ وَلا بَطْحَاءُ	الكامل	٣٨٨
المعتمد بن عباد	الذُّلُّ تَأْبَاهُ الكِرَامُ وَدِينُنَا ***لَكَ مَا نَدِينُ بِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ	الكامل	٤٤٧
عبد المؤمن بن عليّ	وَحَكِّمِ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعَاقِبَةٍ ***وَخَلِّهَا سِيرَةً تَبْقَى عَلَى الحِقَبِ	البسيط	٥٧١
المعتمد بن عباد	قَبْرَ الغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الغَادِي ***حَقًّا ظَفِرْتَ بِأَشْلاءِ ابْنِ عَبَّادِ	البسيط	٣٥٥
ابن اللبانة	مِنْ بَنِي المُنْذِرِينَ وَهْوَ انْتِسَابٌ ***زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَّادِ	الخفيف	٣٤٢
ابن جبير	تَأَنَّ فِي الأَمْرِ لا تَكُنْ عَجِلاً ***فَمَنْ تَأَنَّى أَصَابَ أَوْ كَادَا	المنسرح	٦٢٠
عمرو بن معدي كرب الزبيدي	لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ***وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي	الوافر	٦٤١
ابن رشيق القيرواني	مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ***أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ	البسيط	٤٠٠
المعتمد بن عباد	أَبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ ***فَلِلَّهِ صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارُ	المتقارب	٥٠٠
ابن حيان	أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا القَبْرُ ***وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا القَمَرُ البَدْرُ	الطويل	٣٣٥
أبو الوليد محمد بن جهور	وَإِذَا الفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَا لَهُ ***حُبُّ البَنِينِ وَلا كَحُبِّ الأَصْغَرِ	الكامل	٣٣٦
عمران بن حطان السدوسي	أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ***فَزْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ	الكامل	٤٢٢
أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد	وَلا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسُودَ عَلَى الوَرَى ***وَلَوْ رُدَّ عَمْرٌو لِلزَّمَانِ وَعَامِرُ	الطويل	٣٤٧
أبو بكر الزبيدي	أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الفَتَى بِجَنَانِهِ ***وَمِقْوَلِهِ لا بِالمَرَاكِبِ وَاللُّبْسِ	الطويل	٢٢٩
عبد الرحمن الداخل	أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُيَمِّمُ أَرْضِي ***أَقْرِ مِنْ بَعْضِي السَّلامَ لِبَعْضِي	الخفيف	١٦٥
ابن تومرت	تَكَامَلَتْ فِيكَ أَخْلاقٌ خُصِصْتَ بِهَا ***فَكُلُّنَا بِكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ	البسيط	٥٥٩
ابن عسال	يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ***فَمَا المُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الغَلَطِ	البسيط	٤٥٩
المعتمد بن عباد	قَالُوا الخُضُوعُ سِيَاسَةٌ ***فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ	مجزوء الكامل	٣٥٥
ابن الفرضي	أَسِيرُ الخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ ***عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ	الطويل	٢٨٤
ابن القوطية	مِنْ مَنْزِلٍ يُعْجِبُ النُّسَّاكَ خَلْوَتُهُ ***وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الفُتَّاكِ إِنْ فَتَكُوا	البسيط	٢٣١

يحيى بن هذيل التميمي	مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ *** وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُ	البسيط	٢٣١
عبد الرحمن الداخل	يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي *** فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الأَصْلِ	الكامل	١٦٤
الشاطبي	وَأَبْيَاتُهَا أَلْفٌ تَزِيدُ ثَلاثَةً *** وَمَعْ مِائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرًا وَكُمَّلاً	الطويل	٦٠٢
المظفر محمد بن الأفطس	أَنِفْتُ مِنَ الْمُدَامِ لأَنَّ عَقْلِي *** أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ أُنْسِ الْمُدَامِ	الوافر	٣٦٢
مجهول	قَوْمٌ لَهُمْ دَرْكُ الْعُلا فِي حِمْيَرٍ *** وَإِنِ انْتَمَوْا صِنْهَاجَةً فَهُمُ هُمُ	الكامل	٤٧٥
المتنبي	إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ *** فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ	الوافر	٥١٠
عبد الرحمن الناصر	هِمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا *** مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ	الكامل	٢٢٥
أبو البقاء الرندي	لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ *** فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ	البسيط	٧٣٣
الطُّرْطُوشِيُّ	إِنَّ للهِ عِبَادًا فُطَنَا *** طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا	الرمل	٣٩٦
ابن طفيل	يَا بَاكِيًا فُرْقَةَ الأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ *** هَلاَّ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟!	البسيط	٥٧٧
مجهول	ذَاكَ الَّذِي مَاتَ مِرَارًا وَدُفِنْ *** فَانْتَفَضَ التُّرْبُ وَمُزِّقَ الْكَفَنْ	الرجز	٣٥١
هاشم الرفاعي	وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى *** مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا	الوافر	٦٤١
ابن عطية	بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ *** مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا	البسيط	٣٠٨
ابن جبير	لا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ *** وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى	مجزوء الرجز	٦٢١
أبو شامة المقدسي	رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَلاءَ فَازُوا *** بِرُؤْيَةِ شَيْخِ مِصْرَ الشَّاطِبِيِّ	الوافر	٦٠٣

فهرس الموضوعات

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني : وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.
- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

• استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.

• بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.

• تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.
- صَدَرَ له حتى الآن ٣١ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

(من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.

٢٨. التعذيب في سجون الحرية

٢٩. رمضان وبناء الأمة

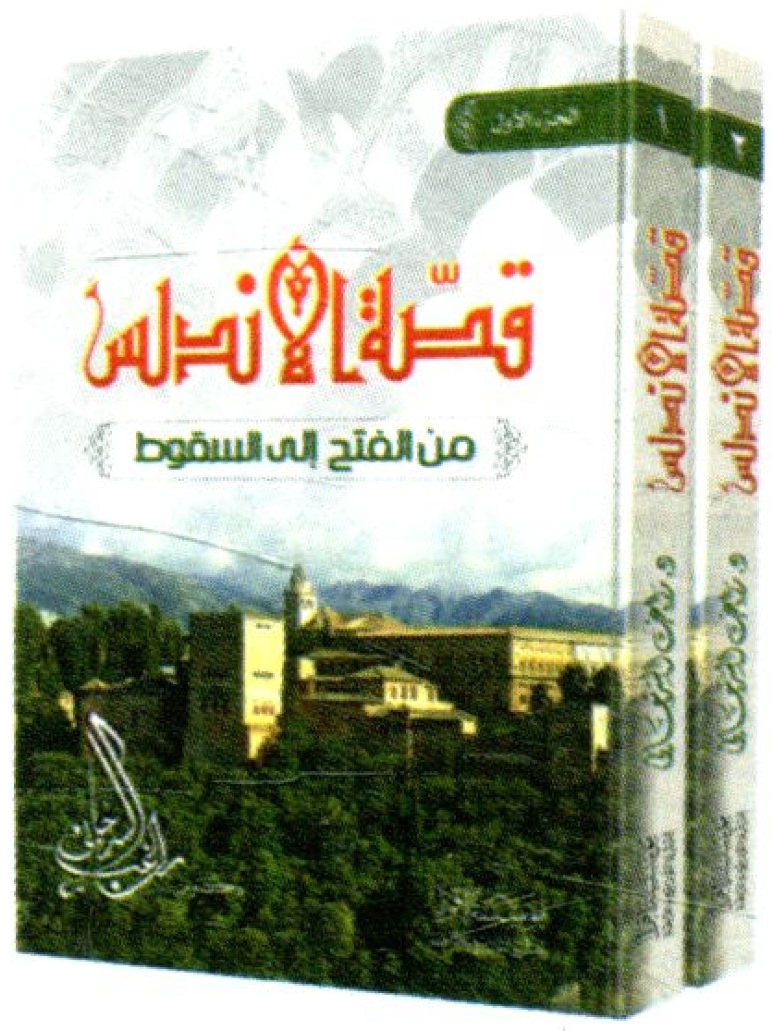
٣٠. الحج ليس للحجاج فقط

٣١. من يشتري الجنة

- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.

* * *



هذا الكتاب

ليس من المقبول أن يهمل المسلمون تاريخهم، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم:
﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]..

وليس من المقبول أن يجهل المسلمون تاريخ الأندلس، وهو يمثِّل ثلثي التاريخ الإسلامي!

وليس من المقبول أن يعيش المسلمون الآن أزمات كثيرة تعرَّضوا لأمثالها في تاريخهم السابق، ثم لا يبحثون عن حلولها في صفحات هذا التاريخ الطويل..

إن تاريخ الأندلس تحديدًا يُعَدُّ من أهم فترات التاريخ الإسلامي قاطبة؛ حيث إنه شمل - في أكثر من ثمانمائة سنة - كل أسباب قيام الأمم وسقوطها، وكل عوامل النصر والهزيمة، وكل أسس النجاح والفشل..

إنه ثروة حقيقية، وكنز لا تنتهي عجائبه..

وفوق كل ذلك فهو من أكثر أحداث التاريخ إثارة وتشويقًا..

ولهذا كله كان هذا الكتاب..

د. راغب السرجاني

www.IslamStory.com

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
www.iqraakotob.net

Designed by Hatem El Ashry